بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الجماعات الإسلامية
نقد المسار وتصحيح المسيرة

الجماعات الإسلامية

نقد المسار وتصحيح المسيرة

أ.د. ملفي حسن الشهري

الطبعة الأولى

2015

للنشر والتوزيع
الوراق
www.alwaraq-pub.com

المحتويات

الموضوع	الصفحة
نافذة	7
المقدمة	9
أولا : لمحة تاريخية	15
ثانيا: العمل الجماعي	23
ثالثا: تجربة تحكي واقع الجماعات	77
رابعا: سقطات وأخطاء الجماعات	81
32-1: الولاء والبراء	82
32-2: الحب للجماعة والبغض لها	89
32-3 : التعصب للجماعة	98
32-4: الشخصية المتشنجة	111
32-5 : السرية	117
32-6 : مصادرة العقول وشل التفكير	126
32-7 : مصلحة الدعوة (دعوة المصلحة)	134
32-8 : تقزيم الأمة وتحجيم الإسلام	145
32-9 : التدرع بالآخرين	147
32-10 : التصنيف	151
32-11: الكهنوتية	163
32-12 : الغموض	166
32-13 : الوصاية	170
32-14 : الجماعة أولا (الجماعة قبل المبادئ)	177
32-15 : الإسقاط	182
32-16 : البيعة	193

الموضوع	الصفحة
32-17 : الانكفاء المعرفي	202
32-18 : القداسة المطلقة والإصطفاء	210
32-19 : التقية	218
32-20 : القيادة والجماعة	224
32-21 : كارثية وصول الغير	228
32-22 : الجماعات والمراجعات	231
32-23 : الأهلية وصفات القيادة	237
32-24 : قصر مفاهيم الإسلام على ما يخدم أفكار الجماعة	241
32-25 : مصادر التمويل	244
32-26 : عقدة المؤامرة	246
32-27: حب القيادة	252
32-28 : محاكمة المقاصد وحمل الأمور على سوء النية	259
32-29 : استعباد الناس باسم الدين	267
32-30 : التلون الحربائي	271
32-31 : التفلت والتراجع للأتباع	277
32-32 : انعدام النصرة	281

نافذة

قال مسعر بن كدام : ما أدركت من الناس من له عقل كعقل ابـن مـرة. جـاء رجـل . فقـال : عافـاك الله جئتـك مـسترشداً ، إنـي رجـل دخلـت في جميـع هـذه الأهواء، فما أدخل في هوى منها إلا القرآن أدخلني فيـه ، ولم أخـرج مـن هـوى إلا القرآن أخرجني منه ، حتى بقيت ليس في يدي شيء؟!!

قال : فقال عمرو بن مرة : الله الذي لا إله إلا هو لقد جئت مسترشداً؟

قـال : نعـم أرأيـت هـل اختلفـوا في أن محمـداً رسـول الله ، وأن مـا أتـى بـه من الله الحق؟

قال : لا.

قال : فهل اختلفوا في القرآن أنه كتاب الله ؟

قال : لا .

قال : فهل اختلفوا في دين الله أنه الإسلام؟

قال : لا.

قال : فهل اختلفوا في الكعبة أنها القبلة ؟

قال : لا .

قال : فهل اختلفوا في الصلوات الخمس ؟

قال : لا.

قال : فهل اختلفوا في رمضان أن شهرهم الذي يصومون؟

قال : لا .

قال : فهل اختلفوا في الحج أنه بيت الله الذي يحجونه ؟

قال : لا .

قال : فهل اختلفوا في الزكاة أنها من مائتي درهم خمسة؟

قال : لا .

قال : فهل اختلفوا في الغسل من الجنابة أنه واجب ؟

قال : لا.

قال : فذكر هذا وأشباهه، ثم قرأ ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾ (آل عمران : 7).

قال : فهل تدري ما المحكم؟

قال : لا.

قال : فالمحكم ما اجتمعوا عليه ، والمتشابه ما اختلفوا فيه ، شد نيتك في المحكم ، وإياك والخوض في المتشابه .

قال : فقال الرجل : الحمد الله الذي أرشدني على يدك ، فوالله لقد قمت من عندك وإني لحسن الحال"[1].

قال أبو العالية : "لما كان زمان علي ومعاوية ، وإني لشاب القتال أحب إلي من الطعام الطيب ، فتجهزت بجهاز حسن حتى أتيتهم ، فإذا صنفان ما يرى طرفاهما ، إذا كبر هؤلاء كبر هؤلاء ، وإذا هلل هؤلاء هلل هؤلاء ، فراجعت نفسي . فقلت : أي الفريقين أنزله كافرا؟ ومن أكرهني على هذا؟ قال : فما أمسيت حتى رجعت وتركتهم"[2].

ويحكى أن ابن دريد تشوق لبغداد فلما دخلها لم تعجبه لما رأى من أخلاق أهلها . فقال:

سمعت بوصف الناس هنداً فلم أزل أخا صبوة حتى نظرت إلى هند
فلما أراني الله هنداً وزرتها تمنيت أن تزداد بعدا على بعد

ويقول الأميري في لون الطيف:

إذا اختل شيئا بناءُ الأساس تضاعف في الصدع ذاك الخلل
فلابد من رأب كل الصدوع وجمع الصفوف ودرء العلل
ولابد من قصد ذات الإله وحشد القوى ليصح العمل

(1) أحسن التقاسيم ، البشاري المقدسي (365).

(2) سير أعلام النبلاء 4/ 209، 210.

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، إله الأولين والآخرين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين .. أما بعد،

الدعوة إلى الله هي طريق الأنبياء والمرسلين، وعباد الله الصالحين على مر العصور والدهور، فمن وافق سيد المرسلين فقد حاز الخير الجزيل، ومن حاد وفارق كان إلى الضلالة والشطط يسير.

إن الدعوة إلى الله تحتاج إلى تأمل ووقفة متبصر، في حياة المصطفى ﷺ كيف كان يتعامل مع كل أطياف المجتمع، وهل كان لدعوته أبعاد تربوية ذات قيم عملية، تبني الشخصية المسلمة المتزنة، ذات الأفكار والتصورات السليمة التي عليها يبني قواعد انطلاقاته الدعوية لنشر الإسلام، وقيمه العليا بعيدا عن تحقيق الذوات، أو تسخيرها لغير الإسلام باسم الدين، وبناء صروح للدعوة متعددة المشارب متشاكسة المسار، متباينة القيم والأخلاق، متصادمة التصورات والأفكار، تطفو فيها الغثائية ويقل فيها النفع للأمة، وتكمن في حنايها ارتكاسات وانتكاسات الأمة، فلا يذهب زبدها جفاء، وإنما يمكث في نسيج الدعوة وبالاً عليها، وبين منعطفاتها ينخرها ويصيبها بهشاشة التفرق، وتعدد المسارات، وكثرة التناقضات، مما يحول المجتمع إلى مجتمع متآكل تأكله الشحناء، والبغضاء، والحزبية، والظلم، فتحوله إلى جزر كل جزيرة قد سكنها جمع من البشر استقلت بذاتها تتقاذفها أمواج الفردية والحزبية، ليس لها منافذ شواطئ للنجاة لمن يسكن على ظهرها من اناس، وليس لديها قبول لمد قنوات اتصال معرفي، أو حياتي، أو بناء ثقافي، أو دعوي مع غيرها لتنسلخ من الحزبية، وتبني بناء التواصل بدل بناء التقاطع، والتجمع بدل التشرذم، والقوة بدل الضعف، والاعتصام بدل التنازع والفشل.

إن الأمة أحوج ما تكون في هذا العصر إلى الوحدة على مستوى الجماعات الإسلامية، والدول الإسلامية والشعوب الإسلامية وكل ما له صلة بالأمة ووحدتها.

إن التفرق قد ضرب الأمة في مقتل وفتح أعين الأعداء على بيضتها، وإن تعدد الجماعات والتناحر الذي تعيشه جر الشعوب إلى التنافر، والبغضاء قد أفقدت الأمة مكامن القوة فيها، فأصبح من المسلمات أن الجماعات الموجودة على الساحة أصبحت حملا وعبئا ثقيلا على الأمة يثقل كاهل الشعوب، ويجعلها تقف موقف المتحير من واقعه، وما فيه من تناقضات دعوية، وميادين قد حولتها الجماعات حلبات للمصارعة، في كل حلبة بعض الجماعات تتصارع وتدمي خصمها، بل تحاول القضاء عليه بالضربة القاضية حتى يكون الميدان لأحد الجماعتين لا يشاركها فيه أحد له توجه إسلامي، مما ألقى بظلال الشقاوة وألآم الفرقة على الأمة، حتى أصبح يصدق عليها قول أحمد شوقي -رحمه الله-:

وإذا أراد الله إشـــــقاء القـــــرى جعـــل الهـــداة بهـــا دعـــاة شـــقاق

إن الجماعات الإسلامية لم يقف الأمر عند تفرقها وكيل الشتائم والشقاق وذم بعضها بعضاً، بل لقد اكتوت الأمة بهذه المناكفات، والشقاقات سواء على مستواها الأمني، أو الفكري، أو العبادي مما كان له الأثر البالغ في قناعات الشعوب بهذا الدين، وأنه نظام حياة متكامل.

وكل ذلك بسبب نهج هذه الجماعات العدائي، والمتشنج الذي أورث فصاما نكدا في حياة الأمة، إن حال هذه الجماعات كحال الطوائف في الأندلس عندما كانت في حالة الاحتضار، والذي ترتب عليه أن فقدت الأمة هذا الجزء من بلاد المسلمين.

إن ما تعيشه الجماعات من أمراض قد أنتن وأزكم أنوف الأمة، إن هذه الأمراض أصبحت أمراضا مستعصية بسبب استفحالها وتمكنها من كل مفاصل الجماعات حتى أصبحت الجماعات لا تئن إلا لمرضها، ولا تشتكي إلا من آلام مفاصلها، ولا تعرف إلا ذاتها، ولا تتألم إلا لها دون أن يكون لها شعور يتحسس ويتلمس مشاعر الأمة من خلال المنظور العام "إنما المؤمنون أخوة" و "المسلم أخو المسلم"، فقد وسدته التراب، وبقيت الأمة تئن تحت جناية هذه الجماعات، والتي لا

يصلح حالها وهي تعيش تحت وطأة هذه الأقدام، التي ترفس كل حراكها وتكتم أنفاسها حتى لا تتنفس إلا من خلالها .

إن حال الأمة لا يصلح إلا بتجديد أمر دينها، ومن هذا التجديد تجاوز هذه الجماعات وتوحيد الأمة على كلمة سواء.

ولا يكون ذلك إلا بتنادي علماء الأمة بعيدا عن هذه الزمات الناتئة في جسم الأمة، وجمع كل من في تلك القوارب في سفينة الإسلام، وأن يتولى قيادتها علماء الأمة الربانيون الذين يجمعون الأمة على منهج وفكر وتصور واحد، قاعدته ونبراس قيمه ما كان عليه ﷺ، وما سار عليه الصحابه ومن اهتدى بهديهم، وأن يجنبوا الأمة مزالق الجماعات، وبهرجات الانتماءات، وحسد الحزبيات، وتعدد المناهج، وكفى بالأمة جراحا من الداخل والخارج فقد أحاط أعداء الأمة بها من كل مكان وتفننوا في تلقينها أصناف التعذيب والهوان، وسحق قيمها، وامتهان كرامتها، وسلب إرادتها، لقد طحنت الأمة بين حجري الرحا من الخارج اليهود، والنصارى، والرافضة وكل كافر جحود، ومن داخل بعضها حكومات فاسدة قد أظهرت الفساد في البلاد والعباد، وجماعات شرذمت الأمة فهدمت صفها وسياج وحدتها الذي تنكسر عليه سهام ونصال كل عدو إلى كنتيونات كل كنتيون له نظامه الخاص به، بل يحاول إسقاط غيره ويكون هو الوارث له، وإن كل جراح يمكن أن تندمل إلا جراح الجماعات، فإن علاجها يصعب ويحتاج إلى البتر أحيانا، لأنها تتحول إلى سرطان يتحرك بخصائص الجسم وينتشر في صفاته.

إنني أقول لهذه الجماعات كفى تفرقاً وتحزباً، كفى التداعي على هذه الأمة لتحزيب أفرادها ،إن حال الأمة يمزق الفؤاد ويدمي القلب ويذهب بالعقل لما تعيش من تناحر وتنابز وتدابر وتهاجر بسبب تعدد الجماعات، ومحاولة كل جماعة كبت غيرها من الجماعات ودحرها واستئصالها من الوجود.

إن الدافع لكتابة هذه الوقفات، والمحطات النقدية هو توحيد صفوف الأمة، وجمعها على منهج الحق الذي يستوعب الجميع وينبذ التفرق فيه، وتذكير الجماعات الغافلة عن ضرر الانتماءات والحزبيات بخطر الانغلاق والتعصب

وتحجيم أفق الدعوة ونبذ المخالف راجيا أن يكون هذا النقد على طريق البناء وسبيل الإصلاح ومعرفة الجوانب المشرقة فتعزز، والخطأ فيصحح، وهذا منهج قرأني، فقد نبه الله أولى العزم لتصحيح المسيرة .

قال الله تعالى: ﴿ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾(هود: 46، 47)

وقال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (الأنفال : 67).

علما أن المرض قد يكون علاجه من الصعوبة بمكان، قد يحتاج إلى عملية جراحية يتألم المريض منها بسبب قوة النقد، أو كشف الحقائق، أو مصادمة النفوس بما لم تعتاده، وما أطرحه في هذا الكتاب ليس إلا الجزء الأول وسيتبعه إن شاء الله بقية السقطات وهي لا تقل عما ذكر، بل سيكون هناك تحليلات وأمثلة حية لذلك إن شاء الله.

أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يجمع شعث هذه الأمة، وأن يوحد كلمتها على الحق، وأن يدحر أعداءها، وأن يكفيها مزالق الجماعات، وانحراف مسارها إنه على كل شيء قدير، وأن يهيئ لها قيادة ناصحة أمينة، يعز الله بها الدين وأهله، ويذل بها الشرك وأهله، وأن ينزع الغل، والحقد، والضغينة من قلوب المسلمين، وأن يرفع راية السنة، ويقمع راية البدعة والكفر.

أولا

لمحة تاريخية عن نشأة الجماعات وأسباب ذلك

أولا : لمحة تاريخية عن نشأة الجماعات وأسباب ذلك

معرفة نشأة أهم الجماعات وأسباب النشأة أمر يسهم في فهم الواقع الحركي، ونحن في ذكر هذه النشأة والدافع لذلك وإرهاصاتها لن نتعمق كثيراً، بل نذكر ذلك على سبيل الإيجاز المختصر جدا، لأن الكلام عن الجماعات ونشأتها وأمورها أمر يطول المقام فيه، وقد سبق نشأة الجماعات أحداث جسام كان لها الأثر الكبير على الأمة الإسلامية.

ففي أواخر الدولة العثمانية، اشتدت مظاهر الضعف في أجهزة الدولة، وازداد الضغط عليها لعدة عوامل داخلية وخارجية، وكان أهمها قضية الامتيازات التي كانت الدولة تمنحها مرغمة لدول أوروبا، تحت ضغط قضية حماية الأقليات النصرانية التي كانت تعيش تحت حكم العثمانيين، ومنذ عام 1840م بدأت القوانين الوضعية في التسلل إلى دائرة التشريع العثمانية[1].

وفي عام (1902م) رفض السلطان عبد الحميد الثاني -رحمه الله- السماح لليهود بالهجرة إلى فلسطين، والاستيطان فيها، فتوجهت جهود اليهود، ومن خلال جميع المؤسسات الخاضعة لتوجيههم لمحاولة خلع السلطان المسلم، والقضاء على سلطته بكل وسيلة، وكان من أبرز المؤسسات اليهودية التي شاركت في هذا الدور المجمع الماسوني بسيلانيك، وحزب تركيا الفتاة، وجمعية الاتحاد والترقي، وقد أدت هذه الجهود وفي ظل الأوضاع المتردية التي كانت الدولة تعاني منها، إلى افتعال سلسلة من الثورات والمجازر في صفوف الجيش، أدت بدورها إلى خروج الجيش عن سلطة السلطان عبد الحميد، ووصول جمعية الاتحاد والترقي إلى سدة الحكم، وإعلان الدستور في (1908)[2].

وبعد إعلان الدستور، توجه الاتحاديون إلى إثارة التعصب العرقي بين الشعوب التي تحكمها الدولة العثمانية، فدعوا إلى الطورانية، وشرعوا بالضغط

(1) وقد ذكرنا طرفا من ذلك في كتاب "دلالات الشورى الحضارية وقواعدها الفكرية".

(2) أسرار الانقلاب العثماني (47- 55).

على بقية الأجناس، لفرض التتريك في اللغة، والدواوين الرسمية، وكانت عاملا لتأجج الثورات.

وفي سنوات الحرب العالمية الأولى، استجاب الشريف حسين لإغراء إنجلترا وأعلن ثورته على الحكم العثماني سنة (1916م) ودخلت الشعوب المسلمة مع بعضها في حرب عمياء، لا ناقة لها فيها ولا جمل، ثم كان اجتماع مارك سايكس "البريطاني" وفرانسوا بيكون "الفرنسي" (1916م) لرسم خريطة العالم العربي بعد تقسيم مناطق النفوذ والتي نشأت عليها حكومات الدول العربية الموجودة وهي أول خارطة لتقسيم العالم العربي فيما عرف بـ"سايكس بيكون". وفي هذه المرحلة (2 نوفمبر 1917م) كان وعد بلفور والذي أيد إنشاء وطن قومي لليهود في قلب البلاد الإسلامية في فلسطين، ومن هنا سُلِّمت فلسطين لليهود لتأسيس إسرائيل، ويعد ذلك أكبر صفعة في وجه الأمة الإسلامية، والعربية، وعلامة على سقوط هيبة الخلافة الإسلامية، وبعد ذلك بنحو ثلاثة أعوام دخل الجنرال الفرنسي "غورو" دمشق (1338هـ، 1920م) ووضع قدمه على قبر صلاح الدين الأيوبي وهو يقول في تحد وتشف وحقد : "هانحن قد عدنا يا صلاح الدين".

وقد تمخضت الحرب العالمية الأولى عن إسدال الستار على الدولة العثمانية وتعددت عوامل انهيارها حتى سقطت الخلافة الإسلامية والتي اتصلت حلقاتها ثلاثة عشر قرنا ونصف، وذلك بسبب التآمر الداخلي والخارجي، وكان ذلك على يد الكماليين (2 مارس 1924م – 26 رجب 1342هـ)، وقد أحدث ذلك صدمة للمسلمين، وحدث في البلاد الإسلامية وخاصة البلاد العربية منها عشرات الثورات من 1918 إلى 1939م، وحركات مقاومة لهذه التغيرات لكنها قمعت بالحديد والنار، وأخذ العداء والكره يتجذر لكل من ساهم في إسقاط الخلافة وبانتهاء الحرب العالمية الأولى انتهت معها حاجة بريطانيا لخدمات الشريف[1].

(1) انظر التشريعات الإلهية لا القوانين الوضعية د. عمر سليمان الأشقر (64 – 77).

بعد أن قام مصطفى كمال أتاتورك بإلغاء الخلافة وإعلان الجمهورية التركية عام (1924م) وانصرفت الحكومات الشكلية والإقليمية الموجودة على رأس الحكم في البلاد الإسلامية، انصرفت إلى السعي وراء أطماعها وترسيخ قواعد حكمها ومبادئها القومية، غير عابئة بكل ما يحيط بالإسلام من انتهاك لحرماته، وتحطيم لمقدساته، هذا ما لم تكن تلك الحكومات نفسها أداة طيعة بيد الاستعمار إلا ما رحم ربك.

وفي هذا الجو المنذر بشر مستطير من سقوط الخلافة وتآمر الشرق والغرب على المسلمين، كان له الأثر الكبير على المسلمين في استنهاض الهمم لإعادة الخلافة الإسلامية لما سبب سقوطها من فراغ في حياة الأمة.

وقد تابع المسلمون بقلق وخوف التطورات الداخلية في تركيا بدءا من الدستور الجديدة لعام (1922م) الذي فصل الدولة عن الخلافة ومرورا بإعلان إلغاء الخلافة (3 مارس 1924م) وانتهاء بإلغاء اعتبار الإسلام دين الدولة في تركيا (10 أبريل 1928م).

ومن هنا أخذت الخلافة الإسلامية ومحاولة إعادتها أبعاداً جديدة والهدف منها إعادة وحدة الأمة تحت راية الخلافة، ومن ذلك إصدار عدد من الكتب والمجلات من ذلك "مجلة الفتح" التي أصدرها محي الدين الخطيب – رحمه الله- وصدر العدد الأول منها (29 ذي القعدة 1433هـ - 10 يونيو 1926م) وقد بينت ما ارتكبه العهد الكمالي في معاداة الإسلام وجلب للقوانين الغربية، وهذه المجلة امتداد لاتجاه الجماعة السلفية والتي هي بداية أنفاسها عام (1924م)، وبداية كانت الفتح من أول الداعين "لجمعية الشباب المسلمين"، وسبق ذلك "جمعية العلماء المسلمين في الجزائر" وبدأت عملها المنظم منذ (1920م) وأعلنت وجودها الرسمي عام 1931م وكان رئيس الجمعية الشيخ عبد الحميد بن باديس –رحمه الله-.

وقد سبق "جمعية العلماء المسلمين في الجزائر" "جمعية الاتحاد المحمدي" (1896م) والتي عرفت فيما بعد بالجماعة النورسية ومؤسسها سعيد النورسي في عام

(1908م) بعد الإطاحة بالسلطان عبد الحميد بتآمر من جمعية الاتحاد والترقي، وقد حاول أتاتورك استمالة بديع الزمان لكنه رفض ذلك، وقال : "أعوذ بالله من الشيطان والسياسة"، وقد شارك في الحرب العالمية الأولى .

وتعد الجماعة النورسية الأم لجميع الأحزاب الإسلامية السياسية التي نشأت في تركيا فيما بعد إلى وقتنا الحاضر، وهي جماعة صوفية لها تأثيرها الكبير في تركيا.

جماعة التبليغ والتي أسسها الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي (1920م) وقيل (1926م)، وقد انتشرت هذه الجماعة انتشاراً سريعاً في الهند، وباكستان، وبنجلادش، ثم كان لها بعد ذلك وجودها في العالم العربي والإسلامي وهي تنتشر في معظم بلدان العالم وهي ذات طابع صوفي تبتعد في منهجها عن الخلافات الفقهية وقضايا السياسة ولها مصطلحاتها الدعوية الخاصة بها.

وفي هذه الأثناء تأسست جماعة أنصار السنة (1345هـ - 1926م) أسسها الشيخ محمد حامد الفقي –رحمه الله– وهي تهتم بالجانب التأصيلي العلمي وقد كان لها روابط جيدة مع "جمعية الشبان المسلمين"، وتوافق في المنهج وتداخل في التصورات.

ثم تكونت نواة جماعة الإخوان المسلمين في الإسماعيلية عام (1928م) وكان من أهدافها إعادة الخلافة الإسلامية، وقد شاركها في هذا الاتجاه عدد من الجماعات مثل حزب التحرير، وحزب ماشومي في إندونسيا، والجماعة الإسلامية في الهند، ثم انتقل البنا –رحمه الله– (عام 1932م) إلى القاهرة وبذلك انتقلت الدعوة إليها، في أطر وأسس جديدة، ثم تطورت هذه الأطر والأسس وأخذت أبعادا جديدة فمن (1939م- 1945م) توسعت برامجها وأصبح لها ارتباط بالجانب السياسي وهذا التطور أحدث ردة فعل لدى بعض الأتباع .

وقد تعرضت جماعة الإخوان لعدد من الانشقاقات[1] منها انشقاق بعض الأتباع عندما ولي الشيخ حسن البنا –رحمه الله- أحد أعضاء الجماعة القيادة في الإسماعيلية وقد كان نجارا فاعترض على ذلك بعض أعضاء الجماعة وانشقوا عنها.

وانشق عن الجماعات في الأربعينات (1938م) حركة شباب محمد، وكذلك انشقاق إبراهيم حسن، وأحمد السكري نائب حسن البنا (1947م) وقد ذكر السكري أنه هو المؤسس الحقيقي للجماعة.

ثم بدأت هذه الجماعة تختلف مع بعض الأتباع، فخرج منها عشرات الجماعات كالقطبية والسرورية وغيرها، وتعد السرورية أشهر الجماعات المنشقة عن التنظيم مع بقاء أشكال منهج الإخوان وأدوات التنظيم قائمة بنفس المفاهيم، وقد كان هذا الانشقاق عام (1969م)، وقد سبق ذلك أن انتقل محمد سرور إلى السعودية عام (1965م) وإن كان لم يقطع صلته بالإخوان عندما قدم السعودية، إلا أنه في نهاية الستينات بدأ يمشي في طريق آخر كما ذكر في مراجعاته.

وقد أنشأ بعدها الجماعة الإسلامية في باكستان أنشأها أبو الأعلى المودودي – رحمه الله- في (24/ 8/ 1941م) وهي تتعانق مع جماعة الإخوان في كثير من الأفكار والتصورات، وقد نشطت الجماعة، وانتشرت في شبه القارة الهندية عندما انفصلت باكستان عن الهند .

ثم تبع الجماعة الإسلامية حزب التحرير والذي تأسس في القدس عام (1953م) أسسه الشيخ تقي الدين النبهاني، وكان سبب نشأته سقوط الخلافة الإسلامية والتي إعادتها من أهم مرتكزات الحزب، وقد افتتح له فرع في لبنان وسوريا وكثير من البلاد الإسلامية.

(1) وأسباب الانشقاقات وآثارها على العمل الإسلامي قد أفردناه ببحث مستقل.

جماعة الجهاد تأسست عام (1966م)، وقيل (1964م) على يدي إسماعيل طنطاوي، وأيمن الظواهري، ونبيل البرعي، وكانوا حينها طلابا في الثانوية، وهي جماعة ذات اتجاه سلفي تتبنى الجهاد للتغيير، وهي تختلف عن تنظيم الجهاد والذي كان نشأته عام (1980م) على يدي محمد عبد السلام الذي اجتهد في توحيد الجهاديين، وقد مارس بعض الاغتيالات، ثم كان له مراجعات فيما بعد.

وقد أصاب التنظيم عدد من الانشقاقات كان أولها عام (1967م)، فقد انشق يحي هاشم، ثم في عام (1973م) كان انشقاق علوي مصطفى، وتتابع ذلك، وهناك جماعة أفرزتها الأحداث لها علاقة سواء بجماعة الجهاد، أو الإخوان كالتوقف والتبين، والتكفير والهجرة، والقطبية وغيرها.

ولو نظرنا في هذه المرحلة والأسباب الحقيقية لنشأة هذه الجماعات لوجدنا أن سقوط الخلافة الإسلامية -أعادها الله- كان سببا رئيساً، وكذلك ما شهدته مصر من تكون الأحزاب السياسية المنظمة كالحزب الوطني الذي تأسس عام (1879م) وحزب الأمة وحزب الأحرار الدستوريين الذي انشق عن حزب الوفد عام (1921م) ونشأة الجمعيات الوطنية الاجتماعية حتى بلغ عددها ما يقارب العشرين جمعية كجمعية العروة الوثقى، ومكام الأخلاق، والمواساة، وكانت نشأة هذه الجمعيات قبل الحرب العالمية الأولى وجميعة التقوى، والهداية، وإحياء السنة، وغيرها.

وهذا ما نلمسه في واقع الجماعات في التأثر فقد تأثرت بهذه العوامل كلها، حتى في تسمياتها كجمعية الاتحاد المحمدي تأثرا بالاتحاد والترقي، وفي تصوراتها وتعاملها مع واقع التنظيم، إلا أن سقوط الخلافة يأخذ المعلم الأبرز، ثم إن كثيراً من هذه الجماعات جعلت من خصائصها إعادة الخلافة دون غيرها وإنها الوحيدة القادرة على ذلك.

ثانياً
العمل الجماعي

ثانياً : العمل الجماعي

العمل الجماعي من الأمور التي قد رسخ الإسلام قاعدتها في حياة الأمة وحازت جانباً كبيراً له دوره في العبادة، وتلاحم الأمة وقيام أمرها، فمن الأمور التي حث الإسلام على القيام بها وآدائها جماعة، الصلاة والحج وغير ذلك، فصلاة الجماعة تؤدي جماعة لتربية الأمة على التحامها، وأن تكون أمة واحدة لا جزراً متناثرة، ولا أوصالاً مفككة، ولما في ذلك من حكم أخرى، مع مراعاة التربية الفردية كما في صلاة النافلة، وقاعدة العمل الجماعي، أو الفردي الإخلاص والإتباع، إن العمل الدعوي يأخذ أنماطاً متعددة فمنها الدعوة الفردية، أو الدعوة الجماعية، وكل ذلك قد حث عليه الإسلام.

قال الله تعالى :﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾(آل عمران : 104).

قال القرطبي –رحمه الله– : "منكم" للتبعيض، ومعناه أن الآمرين يجب أن يكونوا علماء، وليس كل الناس علماء، وقيل : لبيان الجنس، والمعنى لتكونوا كلكم كذلك، قلت –أي القرطبي–: الأول أصح، فإنه يدل على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية"[1].

وقال بكر أبو زيد –رحمه الله–: "والأمة هنا هي أمة العلماء[2] الذين يصلح الله بهم عموم الأمة، وهم أهل الحل والعقد في الأمة، وهم الذين تطمئن إليهم النفوس، ويشعون أنوار النوازل، ويدعون إلى الله"[3].

(1) الجامع لأحكام القرآن 5/ 253.

(2) "أمة العلماء" قصر للعام على بعض أفراده فيكون تبعيضا للتبعيض.

(3) حكم الانتماء (65) .

وقد اختار الشوكاني[1] أنها للتبعيض، لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من فروض الكفايات يختص بأهل العلم.

يقول عبد الرحمن الحنبلي : "وقال جماعة : معنى قوله "أمة" أي أئمة" "من" للتبعيض –أي أئمة للقيام بأمر الله في الدعوة إلى الخير"[2].

وهناك من صحح الثاني، وجعل الأمة أخص من الجماعة وجعلها للجنس، ولكن الأظهر في قوله –تعالى– "منكم" لبيان الجنس.

قال الزجاج : "ولتكونوا كلكم أمة تدعون إلى الخير وتأمرون بالمعروف"[3].

وقال ابن الجوزي : "من" هنا تدخل لتحض المخاطبين من سائر الأجناس"[4].

وقد يؤيد ذلك قوله تعالى :﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (آل عمران : 110).

قال الأخفش : "كنتم خير أمة" خير أهل دين، وقال ابن منظور: "الأمة الشرعة والدين"[5].

وقال ابن جرير الطبري : "أصل الأمة الجماعة تجتمع على دين واحد، ثم يكتفى بالخبر عن الأمة عن الدين لدلالتها عليه كما قال –جل ثناؤه– : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ (النحل :93) يراد به أهل دين واحد"[6].

---

(1) فتح القدير 1/ 369.

(2) الكنز الأكبر 1/ 38.

(3) زاد المسير 1/ 434، الكنز الأكبر 1/ 38.

(4) المصدر السابق 1/ 434.

(5) لسان العرب 12/ 24.

(6) تفسير الطبري 2/ 195.

وقال الحسن البصري، ومجاهد وجماعة : "الخطاب لجميع الأمة بأنهم خير الأمم"[1]، وهذا ما كان يبايع عليه الرسول ﷺ أصحابه .

عن جرير بن عبد الله البجلي، قال : "أتيت رسول الله ﷺ فقلت : أبايعك على الإسلام . قال : فقبض يده، وقال : "والنصح لكل مسلم"[2].

وعند البخاري "فشرط على والنصح على كل مسلم".

وهو ما فهمه السلف –رحمهم الله– فقد كتب الربيع بن خثيم وصيته "بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أوصى به الربيع بن خيثم، وأشهد الله عليه وكفى بالله شهيداً، وجازيا لعباده الصالحين ومثيباً، فإني رضيت بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبياً، وإني أقر نفسي ومن أطاعني أن نعبد الله في العابدين، ونحمده في الحامدين، وأن ننصح لجماعة المسلمين"[3].

قلت: نقطة الخلاف بين الرأيين، أن كلاً فسر الأمة من زاوية معينة باعتبار حال المنكر والتحقيق في الجمع بينهما، أن الأمة مخاطبة بالنهي عن المنكر، فهناك من المنكرات ما لا يعذر أفراد الأمة في إنكارها، كإماطة الأذى عن الطريق، ومن المنكرات من لا يصلح لإنكاره إلا العلماء، لأنه يحتاج إلى علم ومعرفة، ومن المنكرات ما يحتاج إلى جماعة المسلمين، فمن هنا للجنس، لأنها تستغرق جميع المسلمين كل بحسب قدرته ووسعه.

فمبدأ إشاعة تكليف الأمر، والنهي في عموم الأمة كل يجب حالة طريق اللحمة ولزوم الجماعة والاتباع، والتحزب والتفرق والتشرذم هو الابتداع.

(1) الكنز الأكبر 1/ 41.

(2) البخاري 1/ 139 رقم 58، أحمد 4/ 357، 366.

(3) الدارمي 2/ 292 رقم 3190.

قال الله تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (آل عمران : 103).

هذه الآية تقرر حقيقتين :

الحقيقة الأولى : أن الاعتصام نعمة بها تألفت القلوب، فتجلت الأخوة في الحياة العملية.

والحقيقة الثانية : أن التفرق كفران للنعمة التي يتولد عنها العداوة والبغضاء وهو الظاهر بين الجماعات كما نشاهده في الساحة.

يقول ابن كثير –رحمه الله- : "ولا تفرقوا" أمرهم بالجماعة ونهاهم عن التفرقة ..... ثم قال : وقد ضمنت لهم –أي الآية- العصمة عند اتفاقهم من الخطأ كما وردت بذلك الأحاديث المتعددة"[1].

إذ الأصل في أحوال البشر الاختلاف عند إخلادهم إلى الأرض والبعد عن المنهج الإلهي في الدعوة.

قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ " (هود : 118، 119).

وقد فُسِّرَ أن رحمة الله المرادة هنا الجماعة لا الشيع، والأحزاب، والفرق، والنحل، والطوائف.

قال ابن الجوزي : "إلا من رحم ربك، قال ابن عباس : هم أهل الحق، وقال الحسن : أهل رحمة الله لا يختلفون"[2].

(1) تفسير ابن كثير 1/ 390.

(2) زاد المسير 4/ 172.

وجاء عن طاووس، وابن عباس في قوله –تعالى- "ولذلك خلقهم" أي لرحمته"[1].

وقال ابن أبي العز الحنفي : "فجعل أهل رحمته مستثنين من الخلاف"[2].

ولاشك أن أهل هذه الخيرية هم من كان على سبيل رسول الله ﷺ وسلك مسلكه وسبيله.

قال الله تعالى : ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (يوسف : 108).

لأن في تفرق السبل تشبه بالذين اختلفوا فيه من قبل وتركوا حقيقة الجماعة.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (آل عمران: 105).

من هنا يظهر الدخن في اتباع غير طريق محمد ﷺ والجماعة من بعده.

عن حذيفة بن اليمان –رضي الله عنه- يقول : "كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت : يا رسول الله، إنا كنا أهل جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال : نعم . قلت : وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال : نعم، وفيه دخن، قلت : وما دخنه ؟ قال : قوم يهدون بغير هديي، تعرف منهم وتنكر، قلت : فهل بعد ذلك الخير من شر ؟ قال : نعم، دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها، قلت : فما تأمرني إن أدركني ذلك ؟ قال : تلزم جماعة المسلمين وإمامهم، قلت : فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام ؟ قال : فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تَعَضَّ بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك"[3].

---

(1) تفسير ابن كثير 2/ 266.

(2) شرح العقيدة الطحاوية (514).

(3) البخاري 13/ 35 رقم 7084، مسلم 3/ 1475 رقم 1847/ 51، أحمد 5/ 403.

وفي لفظ "يكون بعدي أئمة لا يهتدون بهداي ولا يستنون بسنتي، وسيقوم فيهم رجال قلوب الشياطين في جثمان إنس"[1].

وفي رواية "هديه على دخن"[2].

قال ابن حجر –رحمه الله-: "وفيه دخن، وهو الحقد، وقيل : الدغل، وقيل : فساد القلب، ومعنى الثلاثة متقارب...

وقيل المراد بالدخن :الدخان ويشير بذلك إلى كدر الحال، وقيل الدخن : كل أمر مكروه، وقال أبو عبيد يفسر المراد بهذا الحديث : الحديث الآخر "لا ترجع قلوب قوم على ما كانت عليه، وأصله أن يكون في لون الدابة كدورة فكأن المعنى أن قلوبهم لا يصفو بعضها لبعض"[3].

وعند أبي داود : "قلت : يا رسول الله، هل بعد هذا الشر خير؟ قال : هُدْنة على دخن، وجماعة على أقذاء فيها، أو فيهم، قلت : يا رسول الله، الهدنة على الدخن ما هي ؟ قال : لا ترجع قلوب أقوام على الذي كانت عليه"[4].

وعند أحمد : "تكون أمارة على أقذاء وهدنة على دخن، قال : قلت ثم ماذا ؟ قال : ثم تنشأ دعاة الضلالة .."[5].

وعند أحمد "فتنة عمياء صماء عليها دعاة على أبواب النار"[6].

وأقل أحوال هذه الجماعات أن يقال إن فيها دخناً وهذا ظاهر لا مِرَاءَ فيه، فكم من الحقد، والغل بين جنبات أتباعها ومن تعامل معها جزم بذلك، بل لو

(1) مسلم 3/ 1476 رقم 1847/ 52.

(2) أحمد 5/ 403، وأبو داود 4/ 447 رقم 4247.

(3) فتح الباري 13/ 36.

(4) أبو داود 4/ 447 رقم 4246، أحمد 5/ 386.

(5) أحمد 5/ 403، قال المحقق : حديث حسن . 38/ 424 رقم 23429.

(6) أبو داود 4/ 446 رقم 4245، أحمد 5/ 386، وقال المحقق : حسن 38/ 316 رقم 23282.

أقسم مقسم على ذلك أرجو أن لا يحنث، فقلوبهم لا تصفو بعضها لبعض وأن أظهروا غير ذلك، وهو ما نراه ونشاهده اليوم، لأن السراديب المظلمة وزوايا الجماعات تشهد بذلك.

عن النبي ﷺ أنه قال : لما نزل قوله –تعالى– "﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ ﴾ قال : أعوذ بوجهك، "أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ" قال: أعوذ بوجهك، "أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ" (الأنعام: 65) قال : هاتان : أهون"[1].

قال القرطبي : "وقال الحسن : هي في أهل الصلاة، قلت –أي القرطبي– وهو الصحيح فإنه المشاهد في الوجود"[2]، وأنها في أهل الصلاة، مذهب ابن عباس، وأبو العالية، وقتادة والحسن، وقد فسر ابن عباس "أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا" فقال : يبث فيكم الأهواء المختلفة فتصيرون فرقا، قال ابن قتيبة : يلبسكم من الالتباس عليهم، والمعنى : حتى تكونوا شيعا، أي فرقا مختلفة، ثم يذيق بعضكم بأس بعض بالقتال والحروب، وقال الزجاج : يلبسكم –أي : يخلط أمركم خلط اضطراب لا خلط اتفاق ... ومعنى شيعاً : أي يجعلكم فرقاً"[3].

قال الطحاوي : "فدل أنه لابد ان يلبسهم شيعاً ويذيق بعضهم بأس بعض مع براءة الرسول ﷺ من هذه الحال"[4]، وقد أشار الله إلى أن الرسول ﷺ ليس ممن فرَّق الدين في شيء.

قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾(الأنعام : 159).

---

(1) البخاري 8/ 291 رقم 4628، 13/ 295 رقم 7313، 13/ 388 رقم 7406 .

(2) الجامع لأحكام القرآن 8/ 414، 415.

(3) زاد المسير 3/ 59 .

(4) الطحاوية 2/ 1276.

يقول أبو العالية : "... وإياكم وهذه الأهواء فإنها توقع بينكم العداوة والبغضاء، وعليكم بالأمر الأول الذي كانوا عليه قبل أن يتفرقوا، قال عاصم: فحدثت الحسن البصري، فقال : قد نصحك والله وصدقك"[1].

وهذا حال الجماعات في وقتنا الحاضر فمن علم حالها، فإنه يعرف شدة بأسها وحقدها على من خالفها على مستوى التنظيمات الدعوية (الجماعات)، لوكان فرداً ووالله لقد اصطلى بجحيم هذه الجماعات بعض الأفراد أكثر مما لو كان يتعامل مع علمانيين، أو ليبراليين، وهي أشد بأساً بينها، لكن التدافع الظاهر يمنع كثيرا من مظاهر ذلك، أما في الحقيقة فحدث ولا حرج، فكم وكم، ومن انتمى لجماعة فإنه يعلم ذلك، قاتل الله الحزبية، كم تسحق وتمحق، وكل جماعة تدعي أن غيرها واقع في الحزبية وأشد الجماعات نكاية تلك الجماعة المتلونة في الأسماء، فهي كالحرباء تتقمص كل زمن اسم وما أخدعها لاتباعها وللمجتمع .

والمخرج من ذلك كما بَيَّن من لا ينطق عن الهوى، وإن هو إلا وحي يوحى "تلزم جماعة المسلمين وإمامهم، قلت : فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام ؟ قال : فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك.

قال البيضاوي : "المعنى .. إذا لم يكن في الأرض خليفة، فعليك بالعزلة والصبر على تحمل شدة الزمان، وعض أصل الشجرة، كناية على مكابدة المشقة"[2].

وقال ابن بطَّال : "فيه حجة لجماعة الفقهاء، في وجوب لزوم جماعة المسلمين وترك الخروج على أئمة الجور"[3].

وقال الشاطبي : "وحاصله –أي الراجح- أن الجماعة راجعة إلى الاجتماع على الإمام الموافق لكتاب الله والسنة، وذلك ظاهر في أن الاجتماع على غير سنة

(1) المنتقى النفيس من تلبيس إبليس (33).

(2) فتح الباري 13/ 36، 37.

(3) فتح الباري 13/ 36، 37.

خارج عن الجماعة المذكورة في الأحاديث المذكورة، كالخوارج ومن جرى مجراهم"[1].

وهذا هو حال الافتراق فيه ترك الجماعة وتشرذم الفكر باتباع حزب، أو طائفة، كما كان من الخوارج ومن جرى مجراهم، وهذا حال الجماعات في وقتنا الحاضر في الغالب، لأنها لا ترجع عن علماء الأمة وفقهائها، بل لكل جماعة علماؤها وفقهاؤها الموافقون لأهوائها من يقبل قولهم، مع أن جماعة المسلمين هم معالم الطريق، وأنوار المعرفة، لأن الله قد جعلهم حجة والناس لهم تبع.

يقول ابن حجر –رحمه الله– المراد بالجماعة "أهل العلم، لأن الله جعلهم حجة على الخلق والناس تبع لهم في أمر الدين"[2].

ولهذا حذر العلماء من اتباع دعاة الفرقة وزعماءها من أهل الفرق والجماعات، والأحزاب، لأن "كل حزب بما لديهم فرحون" ،"والله لا يحب الفرحين".

قال الطبري : "والصواب أنه متى لم يكن للناس إمام فافترق الناس أحزاباً فلا يتبع أحداً في الفرقة ويعتزل الجميع إن استطاع ذلك خشية الوقوع في الشر"[3].

ومصلحة الأمة لا تتحقق إلا بالاجتماع على إمام واحد وجماعة واحدة، ولا يدب إليها الفساد إلا عند الافتراق.

يقول ابن تيمية –رحمه الله– : "فإن بني آدم لا تتم مصلحتهم إلا بالاجتماع لحاجة بعضهم إلى بعض، ولابد عند الاجتماع من رأس، حتى قال الرسول ﷺ بتأمير الواحد في اجتماع القليل العارض في السفر تنبيها بذلك على سائر الجماعات"[4].

(1) الاعتصام 2/ 260، 265.

(2) فتح الباري 13/ 36، 37.

(3) فتح الباري 13/ 36، 37.

(4) السياسة الشرعية (138، 139).

وتطلق جماعة المسلمين على الاجتماع على أمير واحد، فإذا تشرذمت، وتحزبت، وتفرقت كانت هي الفرقة العذاب والجماعات التي ذكر العلماء أنه لا يتبع أحد منها، بل بين ﷺ أن الأسلم اعتزال تلك الفرق، لأن لكل جماعة وفرقة إماماً وأحياناً أكثر من رئيس متشاكسين.

قال ابن أبي العز الحنفي : "الجماعة هي جماعة المسلمين إذا اجتمعوا على أمير حيث أمر عليه الصلاة والسلام بلزومه، ونهى عن فراق الأمة فيما اجتمعوا عليه من تقديمه عليهم، والطعن عليه في سيرته المرضية التي اختاره العلماء الصلحاء لتعيدها لغير موجب، بل بالتأويل وإحداث بدعة في الدين"[1].

وقال أبو يعلى : "فالجماعة التي أمر رسول الله ﷺ بلزومها وسمى المنفرد مفارقاً لها نظير الجماعة التي أوجب عمر الخلافة لمن اجتمعت عليه –أي أهل الحل والعقد– الذين تجتمع كلمة الأمة باتفاقهم، وتفرق بتفرقهم"[2].

فعلى ذلك تكون جماعة المسلمين هي "أهل الحل والعقد من صلحاء المسلمين إذا اجتمعوا على خليفة، أو رئيس للأمة، والناس تبع لهم في ذلك"[3].

وقد أمر الرسول ﷺ بلزوم الجماعة ونهى عن الفرقة لأنها باب للدخن كما سلف، عن معاذ بن جبل –رضي الله عنه– أن النبي ﷺ قال : "إن الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم يأخذ الشاة القاصية والناحية، فإياكم والشعاب، وعليكم بالجماعة والعامة والمسجد"[4].

وعند عبد بن حميد "يأخذ من الغنم الشاة المهزولة والقاصية، ولا يدخل في الجماعة ....."

---

(1) العقدية الطحاوية.

(2) الأحكام السلطانية (19).

(3) الاعتصام للشاطبي 2/ 260، 265.

(4) أحمد 5/ 233، 244، وعبد بن حميد 1/ 162 رقم 114، أبو نعيم في الحلية 2/ 257، وهو حسن كما قال المحقق للمسند 36/ 358 رقم 22029.

وعن أبي هريرة –رضي الله عنه– قال : "إن الله يرضى لكم ثلاثا، أن تعبدوه لا تشركوا به شيئا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم"[1].

وعن زيد بن ثابت –رضي الله عنه– قال : "ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم، إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمور، ولزوم جماعة المسلمين، فإن دعوتهم تحيط من ورائهم"[2].

وقد جاء من حديث جبير بن مطعم بلفظ "ثلاث لا يغل عليهم قلب المؤمن، إخلاص العمل، والنصيحة لولي الأمر، ولزوم الجماعة .."[3].

يقول ابن الأثير –رحمه الله– : "إن هذه الخلال الثلاثة تستصلح بها القلوب، فمن تمسك بها طهر قلبه من الخيانة، والغل، والشر"[4].

وقال ابن قيم الجوزيه : "أي لا يحمل الغل ولا يبقى فيه مع هذه الثلاثة، فإنها تنفي الغل، والغش، وفساد القلب وسخائمه"[5].

وعند النظر إلى ما تحدثه الفرقة من غل، وغش، وحسد، وفساد للقلب، وتناحر، وتباغض يعلم صدق هذا الحديث، فالشعب السوداني من أوسع الشعوب صدرا وعطفا، وأسمحهم أخلاقا، وأكثرهم ائتلافا وحبا لبعض، ولكن هذا التميز قد أفسدته الحزبية العلمانية، والجماعات الإسلامية، فكيف الشعوب والتي هي على خلاف أخلاق الشعب السوداني، فإنها أشد فتكا وكرها لبعض وتأثرا بشطط الجماعات.

---

(1) مسلم 3/ 1340 رقم 1715/ 10 ، أحمد 2/ 327، 367.

(2) أحمد 5/ 183، وقال المحقق : إسناده صحيح . 35/ 467 رقم 21590.

(3) أحمد 4/ 80، وقال المحقق : حديث حسن لغيره . 27/ 300 رقم 16738.

(4) النهاية في غريب الحديث 3/ 381 .

(5) مفتاح دار السعادة (79).

يقول عبد الحي يوسف : "السوادنيون لا تجمعهم مرجعية واحدة، بل هم شيع وأحزاب وطوائف، وقل أن تجد حزبا، أو جماعة، أو طائفة إلا وقد انشطرت إلى قسمين أو أكثر، والإسلاميون في الأغلب ليسوا بأحسن حالا، فلا توحدهم جهة، ولا تجمعهم أهداف مشتركة، بل يكيد بعضهم لبعض، ويبدون العداوة والخصام"[1].

إن فهم السلف –رضوان الله عليهم- مستقر على وجوب لزوم جماعة المسلمين، وهم أهل السواد الأعظم، والذين يحكمهم أهل الحل والعقد عند انعدام الإمام، فإذا وجد الإمام الشرعي وجب الانقياد والطاعة في المعروف، وأن لا يعمل على شق عصا الأمة.

عن مطرف بن عبد الله بن الشخير أنه قال : "كنا نأتي زيد بن صوحان فكان يقول : يا عباد الله : أكرموا، وأجملوا، فإنما وسيلة العباد إلى الله بخصلتين : الخوف، والطمع"، فأتيته يوم وقد كتبوا كتابا فنسقوا كلاماً من هذا النحو :

إن الله ربنـــــا ..... ومحمـــــد نبينـــــا

والقرآن إمامنا ..... ومن كـــــان معنـــا

كمـــا ... كنـــا ..... ومن خالفنا كانت

يـــدنا عليـــه ..... وكنـــا .. وكنـــا

قال : فجعل يعرض الكتاب عليهم رجلاً رجلاً، فيقولون : أقررت يا فلان؟ حتى انتهوا إلي فقالوا : أقررت يا غلام؟ قلت : لا . قال –يعني زيداً- لا تعجلوا على الغلام، ما تقول يا غلام ؟ قلت : إن الله قد أخذ علي عهداً في كتابه، فلن أحدث عهداً سوى العهد الذي أخذه علي، فرجع القوم من عند آخرهم ما أقرمنهم أحد، وكانوا زهاء ثلاثين نفسا"[2].

(1) شبكة المشكاة الإسلامية "حوار في 3/ 3/ 2010م".

(2) حلية الأولياء 2/ 204، وسير أعلام النبلاء 4/ 192.

وبهذا التصور والفهم لمعنى جماعة المسلمين الذي فهمه علماء الأمة لا توجد "جماعة المسلمين"، لأن المسلمين، أو سوادهم الأعظم، أو علماءهم وأهل الحل والعقد فيهم لم ينتخبوا إماماً للمسلمين بشروطه المعتبرة شرعاً، والمتأمل لحديث حذيفة –رضي الله عنه–بعيداً عن التأويل والمؤثرات والجواذب الدعوية، والحزبية، والحظوظ الدعوية، فإنه يجد ذلك، وأن ما تدعيه بعض الجماعات بأنها جماعة المسلمين، أو أنها أهل السنة والجماعة، فإن هذا مبعثة الحزبية الضيقة قد ضربت جدرانها حول عقول كثير من الجماعات العاملة –بل كلها– في ميدان الدعوة إلى الله فأصبحت لا ترى إلا نفسها، وهضمت وجود الآخرين من حولها، وتنامى الأمر حتى رأينا أن بعضها يدعي أنه جماعة المسلمين، وأن مؤسسها هو إمام المسلمين، وبنوا على هذه التوهمات قصوراً وعلالي أضخم من جبال الهيمالايا، ولكنها أرفع من أعواد الخيزران، فبعضها ادعى وجوب البيعة لإمامهم .... والحقيقة أن العاملين للإسلام –بل للجماعات– هم جماعات من المسلمين وليسوا جماعة المسلمين، لأنه ليس للمسلمين اليوم جماعة ولا إمام[1].

ثم انفصل عن هذه الجماعة –أي جماعة الإخوان ومن تدعي أنها جماعة المسلمين – ما يسمى بالمسار التصحيحي، أو الصحوية، والمراد من هذا الاصطلاح إسقاط جماعة الإخوان عن طريق إيهام الناس أن المسار التصحيحي جاء لإنقاذ الأمة وتلافي الأخطاء، وهذا في حقيقته موهم، ولكن عند تتبع الحقيقة نجد أن الأمر غير ذلك، وإنما كان ذلك لكسب أتباع، وانشقاق، وتشرذم، وخلاف للجانب الشخصي نصيب الأسد فيه، ومحاولة لسحب البساط من تحت أقدام جماعة الإخوان، وأنها جاءت لتصحح مسارها، وهذه الجماعة تستخدم الفكرة ذاتها مع التيار السلفي لإسقاطه، وجعل ما تدعو إليه هو لإنقاذ السلفية المتمثلة في تيارهم

(1) القول المبين في جماعة المسلمين للشيخ سليم الهلالي (49، 50).

الذي لبسوه على المنهج الإخواني، وأن غيرها لا تمثل السلفية تمثيلا صحيحا وأنها هلامية التنظيم.

يقول أحمد فهمي : "السلبيات المتعلقة بالسلفيين من حيث كونهم منتمين إلى التيار السلفي، وهي سلبيات فكرية وتنظيمية وسلوكية نتجت بالأساس عن الطبيعة الفطرية التلقائية للتدين ذي الطابع السلفي، فهو تدين لا يتوقف على جماعة، أو دعوة بادئة، إذ يمكن حدوثه في أي زمان ومكان، عن طريق الرجوع المباشر إلى الكتاب والسنة، والمصادر الشارحة لهما، هذه التلقائية تحدث في الذهنية السلفية نوعا من الاستقلال، أو الانفرادية، بحيث يصعب معه التأطير الفكري، أو التنظيمي"[1].

وهناك من يطلق عليها سلفية الإخوان، والذي لم يبق على هذا الاسم – أي المسار التصحيحي- حتى تحول إلى مسمى أهل السنة والجماعة وعددهم بالمئات، والمسلمون بالملايين ليسوا أهل سنة ولا جماعة إلا باتباعهم، ولكن هذا الاسم لم يرج ولم يكتب له القبول، فقد روجوا له ببعض الكتب ككتاب "الانطلاقة الكبرى لأهل السنة والجماعة"، "ومجلة السنة"، "ومنهج أهل السنة والجماعة في تقويم الرجال للصويان"، "منهج أهل السنة والجماعة في الحكم على الآخرين هشام الصيني"، "ومنهج أهل السنة والجماعة في تدوين العقيدة"، "وموسوعة أهل السنة لعبد الرحمن دمشقية"، بل محمد سرور في أصل مخاطبته لبعض المشايخ . قال: "وأنا أعمل في جماعة ليس لها اسم، لأننا لا نجد أفضل ولا أحسن من اسم أهل السنة والجماعة، وجماعتنا ليست جزءا من أية جماعة معروفة على الساحة"، وقال في قناة الحوار إنه كان يرشح لها اسماً لكن رفض بعض الأتباع للجماعة كما ذكر أنها جماعة ذات تنظيم دولي، قلت : حتى جماعة المسلمين، ينفي محمد سرور أنه ليس جزءا منها. وغيرها سنتحدث عنه في مكانه.

(1) مستقبل السلفيين في مصر (73).

ومن يدرس إنكار هذه الجماعات، وأدبياتها وتصوراتها ونظرتها لمن حولها، فإنها تحاول أن تسقط الجميع، فقد حاولت إسقاط الإخوان، ثم هنا تحاول أن تسقط الأمة كلها، إن ادبيات هذه الجماعة وقاعدتها محاولة إسقاط السلفية الكاملة عن غيرها.

ثم تحولت عندما فشلت فشلاً ذريعاً في الترويج لذلك، بل لم يقبل، لأن المسلمين يعلمون أن أهل السنة والجماعة هم المتبعون للرسول ﷺ وهم السواد الأعظم.

عن أنس بن مالك –رضي الله عنه– سمعت رسول الله ﷺ يقول : "إن أمتي لا تجتمع على ضلالة، فإذا رأيتم اختلافا، فعليكم بالسواد الأعظم"[1].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله–: "ولهذا وصف الفرقة الناجية بأنها أهل السنة والجماعة وهم الجمهور الأكبر، والسواد الأعظم، وأما الفرق الباقية فإنهم أهل الشذوذ والتفرق والبذخ والأهواء، ولا تبلغ الفرقة من هؤلاء قريبا مبلغ الفرقة الناجية، فضلا أن تكون بقدرها، بل قد تكون الفرقة منها في غاية القلة، وشعار هذه الفرقة الكتاب، والسنة، والإجماع، فمن قال بالكتاب، والسنة، والإجماع كان من أهل السنة والجماعة". ... فإن أهل الحق والسنة لا يكون متبعوهم إلا رسول الله ﷺ الذي "لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى"، فهو يجب تصديقه في كل ما أخبر، وطاعته في كل ما أمر وليست هذه المنزلة لغيره من الأئمة ... وبهذا يتبين أن أحق الناس بأن تكون هي الفرقة الناجية أهل الحديث والسنة، الذين ليس لهم متبوع يتعصبون له إلا رسول الله ﷺ"[2].

ويقول بكر أبو زيد –رحمه الله–: "بعض من الذين كتبوا عن الجماعات والفرق الإسلامية المعاصرة للموازنة بينها ونقدها، يذكرون من أقسامها أهل السنة

(1) رواه ابن ماجه 2/ 1303 رقم 3950، الحاكم 116، 117، والحديث ضعيف.

(2) مجموع الفتاوى 3/ 346، 347 .

والجماعة، وهذا خطأ كبير في الفهم والتصور والبعد عن الحقيقة، فإن أهل السنة والجماعة، وأهل الحديث هم جماعة المسلمين، وليست هذه في شكلها ومضمونها إلا دعوة الإسلام بجميع ما تعنيه هذه الكلمة بخلاف الجماعات الأخرى، فهي أحزاب وفرق، منها ما فيه دخن، ومنها ما يدعو إلى شعبة من شعب الإسلام دون الأخرى.

ومعاذ الله أن يكون المسلمون جميعهم جماعات وأحزاباً، بل إن الطائفة المنصورة والفرقة الناجية –جماعة المسلمين المتلزمة بالكتاب والسنة والدعوة إليها– وانظر إلى فضل فقه المتقدمين في دين الله على المتأخرين حين كتبوا عن الفرق والملل والنحل، حيث خصصوا كتبهم لما تناثر من الفرق (الجماعات) على جنبي الصراط المستقيم (طريق جماعة المسلمين، أهل السنة الجماعة، اتباع السلف الصالح) فافهم"[1].

ويقول: "إن هذه الألقاب لا تُفضي إلى بدعة ولا معصية ولا عصبية لشخص معين، ولا لطائفة معينة، فإذا قيل : أهل السنة والجماعة انتظم هذا اللقب هذه الخصوص، وهذا لا يكون لأحد من أهل الفرق بأسمائهم ورسومهم التي انشقوا بها عن جماعة المسلمين"[2].

هذا فيمن انشقت عن جماعة المسلمين، فكيف بمن انشقت ممن انشقت عن جماعة المسلمين فإن الأمر يكون في حقها أشد بعداً، وأعمق، وأوغل شططا، وفي هذا عندما تعدد الجماعة في نفسها جماعات غالبا والتعدد دليل على الاختلاف، وتعدد التعدد دليل على ضراوة الخلاف، والاختلاف نتيجة حتمية لاضطراب الأصول التي تنفرد بها كل جماعة، وتدعو إليها وتقيم جماعتها عليها، يقول الزجاج –رحمه الله– : "يلبسكم – أي يخلط أمركم خلط اضطراب لا خلط

(1) حكم الانتماء (115).

(2) المصدر السابق (45).

اتفاق، وهذا يتناقض مع قاعدة الشرع المطرد من أن (الحق واحد لا يتعدد) وكل واحدة تقيم حرب التشكيك بما لدى الأخرى مدعية أن ما لديها هو الحق "وما لدى الأخرى هو الباطل كلا، أو بعضا"[1].

لكن هذه الجماعة والتي لا تمثل رأي مجموعة ترى أنها جماعة دولية مثل التي انشقت عنها وذلك من باب أني أنا من يمثل الإسلام وحدي، وأني أنا على الصواب وما عداي ليس جماعة المسلمين.

لم تستطع أن تبقى تحت مظلة هذا الاسم كثيرا لعدم تمكنها من إقناع الأتباع وغيرهم بذلك، بل لنبذ المحاضن الدعوية لهذا المسمى والذي ترى أنه لجميع المسلمين فانسلخت منه، وانتقلت إلى ما يسمى بالسلفية واستطاعت أن توجد لها بين السلفيين مكاناً بخداعهم أنها على منهج السلفية حتى استطاعت أن تستقطب عدداً من هؤلاء القوم وأقامت عدداً من المؤتمرات[2] بمسمى السلفية وأشركت فيه بعض السلفيين المختارين بعناية والذين ينطلقون من حب الخير لكل المسلمين، ودخولهم بعض الجمعيات السلفية حتى إذا كان لهم موطئ قدم انشقوا واستقلوا كجمعية الحكمة والإحسان في اليمن وغيرها، وسلفية مصر عمدوا إلى زرع الانشقاقات، ثم الاصطياد في هذه الأجواء المتكهربة . ثم ما لبثوا أن خرجوا باسم جديد على السلفية والتي ركبوا موجتها فترة واستطاعوا أن يستقطبوا عدداً من أفرادها، ويكونوا لهم أرضية دعوية فسموا أنفسهم بالسلفية الحركية، وهذا في أصله طعن في حقيقة السلفية التي امتطوا صهوة جوادها فترة من الزمن، وأخذوا يروجون لذلك عند بعض الكُتَّاب، مثل صاحب كتاب "اختلاف الإسلاميين" .

وما كتب في الشرق الأوسط باسم السلفية الحركية، ولقد شرقوا بهذا المقال وغربوا به ليجذروه فكرياً، واجتماعيا حتى لقد أخذ أتباع هذا الاتجاه يرسلونه

(1) زاد المسير 3/ 59.

(2) ومن ذلك مؤتمر "السلفيون وآفاق المستقبل" الذي أقيم في تركيا في ذي القعدة 1432هـ - أكتوبر 2011م، وقد وضع له ميثاق شرف، وهو غير قابل للنشر.

لبعض الواجهات العلمية عن طريق البريد الإلكتروني والواتساب، عن طريق بعث روابط تحمل هذا المقال وكأن ذلك فتح القسطنطينية، أو استرجاع بيت المقدس، أو إقامة الخلافة الإسلامية، وأنا وقتها كنت في إحدى أسفاري وقرأت المقال في الطائرة لكن عند وصولي إذا بأحد المشايخ والعلماء يرسل لي الرابط على الواتساب فعجبت لذلك، بل لقد أخذوا يناقشون ذلك في بعض القنوات.، وما يكتب في كثير من وسائل التواصل الاجتماعي سواء من أفراد هذه الجماعة، أو من تلقف هذه التسمية وهذا فيه تحذير لهذا المفهوم للهروب من اسم "السرورية"، أو جعلهم من الخوارج، أو انشقاقين عن جماعة الإخوان[1].

وقال الدكتور حاتم العوني : "هم السلفية الحزبية وكذلك يطلق عليهم السلفية الإصلاحية، والسلفية العلمية، كما في الكويت، والسلفية التجديدية كما في اليمن، وهناك من يطلق عليها القطبية، وإن كان القطبية في مصر يختلفون عن السلفية الحركية.

ومن المفارقات العجيبة أن أحدهم عندما يواجه بمثل هذه الأمور يقول هذه تسمية الناس لنا ولسنا من تسمينا بذلك، وهذا فيه من الغرابة والتهرب منهم من الحقائق ما فيه، وسيظهر حقيقة تلون هؤلاء كما سيأتي، لأن الواقع العملي والتطبيقي والتنظير للجماعة يخالف ذلك التهرب.

وقل لي بربك أليس ذلك مما يدل على إطلاق مصطلحات تخالف ما ثبت شرعا، واستبدالا للذي هو أدنى بالذي هو خير، فالله يقول سماهم المسلمين، قال الله –تعالى– ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ

(1) يقول عمر البشير الترابي "إن واحدة من الجماعات زاد أثرها بما زاد خطوة المجتمع الإسلاموي، فقد تتفرغ سلفيته أهل الحديث في سلفية جهادية، أو يتوزع السرورية إلى إخوان صرف" الإخوان المسلمون في الخليج العربي (109).

﴿ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ (الحج : 78).

عن الحارث الأشعري –رضي الله عنه– عن النبي ﷺ أنه قال : أمركم بخمس الله أمرني بهن، السمع والطاعة، والجهاد والهجرة، فإنه من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلى أن يرجع، ومن ادعى دعوى الجاهلية فإنه في جهنم، فقال رجال : يا رسول الله وإن صلى وصام ؟ قال: وإن صلى وصام، فادعوا بدعوى الله الذي سماكم المسلمين، والمؤمنين عباد الله[1].

إن الله سمانا المسلمين في الكتب السابقة . قال تعالى: ﴿ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ﴾ (الحج : 78).

وفي الحديث ثلاثة أسماء : الأول المسلمون، وهذه مثل ما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ (الأحزاب : 35).

والثاني المؤمنون :﴿ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ (إبراهيم : 31).

والثالث عباد الله : قال تعالى :﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ (الإسراء : 53).

فهذه التسميات جاءت في الإيمان، باسم الإيمان، وبالإسلام، ومنسوبة إلى الإيمان والإسلام، وأيضا جاءت تسميتنا بعباد الله، فهذه تسميات الله –عز وجل– لهذه الأمة فلا يخرج المسلم من دعوى الإسلام التي دعانا الله بها.

وهذه الأسماء الربانية تحمل معنى الدين بكل أبعاده وجوانبه، الدعوية والعلمية، والسياسية، والجهادية إلى آخرها، وليس فيها حصر للاسم على جانب من جوانب الدين، لأن من مساوئ الأسماء حصر الاسم في جانب من جوانب

(1) الترمذي 5/ 148 رقم 2863، وقال : حسن صحيح غريب . وقال الألباني : صحيح، صحيح الترمذي 2/ 338 رقم 2298.

الدين، لأن الدين كُـلُّ يأخـذ كُـلَّ التـسمية، الـسلفية العلميـة، والـسلفية الدعويـة، والسلفية الجهادية، والسلفية الحركية، فلم نقصر الـسلفية علـى بعـض مـسمياتها – كالسلفية الحركية- فهذا اسم محدث يـؤول إلى التفريـق في الـدين، ولـو كـان ذلـك مقرونا بحسن نية ابتداءا، واعتبار المآلات معتبر شرعا، وسد باب الذرائع من لـوازم حفظ الملة، والواقع الماثل للجماعـات المتـصفة بأسمـاء خاصـة برهـان قـوي علـى وجوب حظر هذه الأسماء لما أورثته هذه الأسمـاء مـن التعـصب لهـا مـن دون الله ورسوله ﷺ، ومن عَقْدِ الولاء والبراء عليها دون الإسـلام والـسنة . ومـن التهـاجر والتدابر بينهـا وبـين مثيلاتهـا، أو بينهـا وبـين أهـل الـسنة الـدارجين علـى منهـاج السلف، ولأن التفريق جاء في الدين وصفا لأهل الأهواء[1].

قال ابن قيم الجوزية : "عند عد علامات أهـل العبوديـة، والعلامـة الثانيـة "ولم ينسبوا إلى اسم" لم يشتهروا باسم يعرفون به عند النـاس مـن الأسمـاء الـتي صـارت أعلاماً لأهل الطريق.

وأيضا فإنهم لم يتقيدوا بعمل واحـد يجـري علـيهم اسمـه، فيعرفـون بـه دون غيره من الأعمال، فإن هذا آفة في العبوديـة، وهـي عبوديـة مقيـدة، وأمـا العبوديـة المطلقة، فلا يعرف صاحبها باسم معين من معاني أسمائها، فإنه مجيب لداعيها علـى اختلاف أنواعها، فله مع أهل العبوديـة نـصيب يـضرب معهـم بـسهم، فـلا يتقيـد برسم، ولا إشارة، ولا اسم، ولا بزيّ، ولا طريق وضعي اصطلاحي، بـل إن سـئل عن شيخه . قال : الرسول، وعـن طريقـه ؟ قـال : الاتبـاع، وعـن خِرْقتِـه ؟ قـال: لباس التقوى، وعن مذهبه . قال : تحكـيم الـسنة، وعـن مقـصده ومطلبـه ؟ قـال: يريدون وجه الله ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ (الأنعام : 52)، وعن رباطـه، وعـن خانكـاه ؟ قال ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ

(1) الفرق بين الفرق (14).

لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾: (النور : 36-37)، وعن نسبه قال :

أبـــي الإســـلام لا أب لـــي ســـواه إذا افتخـــروا بقـــيس أو تمـــيم

..... وهؤلاء لما كانوا مستورين عن الناس بأنسابهم، غير مشار إليهم ولا متميزين برسم دون الناس، ولا منتسبين إلى اسم طريق، أو مذهب، أو شيخ، أو زي، كانوا بمنزلة الذخائر المخبوءة، وهؤلاء أبعد الخلق عن الآفات، فإن الآفات كلها تحت الرسوم والتقيد بها، ولزوم الطرق الاصطلاحية، والأوضاع المتداولة الحادثة، هذه هي قطعت أكثر الخلق عن الله وهم لا يشعرون[1].

"وأرشدهم أن يتداعوا بـ (المسلمين) و (المؤمنين) و (عباد الله) وهي الدعوة الجامعة بخلاف المفرقة كـ (الفلانية) و (الفلانية) والله المستعان"[2].

ومن الطريف ان الجماعات تعرف أتباعها عن إطلاق مصطلح معين، فالإخوان إذا قالوا : فلان من الإخوان عرف أنه من جماعتهم، وإذا قال أهل التبيلغ : فلان من الأحباب علم أنه تبليغي، وإذا قال السروري : فلان من الزملاء، علم أنه سروري، وإذا قال السلفي : من أهل المنهج عُلم أنه سلفي، بل تعرف الجماعات المنتمين للجماعات الأخرى أفرادها بهذه الأسماء، أو المصطلحات.

ولهذا لما دعا كل من المتخاصمين من الأنصار والمهاجرين قومه سمى الرسول ﷺ ذلك جاهلية، وقال : إنها خبيثة.

عن جابر –رضي الله عنه– قال : غزونا مع النبي ﷺ وقد ثاب معه ناس من المهاجرين حتى كثروا وكان من المهاجرين رجل لعاب، فكسع أنصاريا، فغضب الأنصاري غضبا شديدا حتى تداعوا، وقال الأنصاري : يا للأنصار، وقال

(1) مدارج السالكين 3/ 174، 175، 176.

(2) مدارج السالكين 2/ 370.

المهاجري : يا للمهاجرين، فخرج النبي ﷺ فقال : ما بال دعوى الجاهلية؟ ثم قال: ما شأنهم ؟ فأخبر بكسعة المهاجري الأنصاري. قال، فقال النبي ﷺ: دعوها فإنها خبيثة"[1].

وفي رواية "دعوى أهل الجاهلية"[2].

وفي لفظ "ما بال دعوى الجاهلية ... دعوها فإنها منتنة"[3].

يقول ابن تيمية : "كل ما خرج عن دعوى الإسلام والقرآن، من نسب، أو بلد، أو جنس، أو مذهب، أو طريقة، فهو غرار الجاهلية، بل لما اختصم مهاجري وأنصاري، فقال المهاجري : يا للمهاجرين، وقال الأنصاري : يا للأنصار، قال النبي ﷺ أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم"[4].

وقال ابن قيم الجوزية : "الدعاء بدعوى الجاهلية، كالدعاء إلى القبائل، والتعصب للإنسان، ومثله التعصب للمذاهب، والطوائف، والمشايخ، وتفضيل بعض على بعض في الهوى والعصبية، وكونه منتسبا إليه، يدعو إلى ذلك ويوالي عليه ويعادي، ويزن الناس به، مثل هذا من دعوى الجاهلية"[5].

ويقول بكر أبو زيد : "فلا يسوغ للمسلم أن يتلقب بأنه قدري، أو مرجئ، أو خارجي، أو أشعري، أو ماتريدي، أو معتزلي ..... كما لا يسوغ أن يصنف اليوم : إخواني، صوفي، تبليغي ..... وهكذا –سروري، سلفي حركي، جامي– فالمنع من جهتين، إنه لقب لم يرد به الشرع، أو لهذا ولما فيه من مخالفات لنصوص الشرع في المادة والرسم"[6].

---

(1) البخاري 6/ 546 رقم 3518.

(2) مسلم 4/ 1998 رقم 2584/ 62 .

(3) مسلم 4/ 1998 رقم 2584/ 93، 94.

(4) اقتضاء الصراط المستقيم (17).

(5) تيسير العزيز الحميد (444).

(6) حكم الانتماء (105).

وعليه فلا يجوز إحداث واختراع شعارات وألقاب لم يرد بها الشرع فإنها تكون في البداية كلمة وفي النهاية مذهباً ونحلة، فلا تغتر، وإن زخرفه أهل الأهواء .... وإن الحزبية ذات المسارات والقوالب المستحدثة –التي لم يعهدها السلف– من أعظم العوائق عن العلم، والتفريق عن الجماعة، فكم أوهنت حبل الاتحاد الإسلامي، وغشيت المسلمين بسببها الغواشي.

فاحذر –رحمك الله– أحزابا وطوائف طاف طائفها، ونجم بالشر ناجمها، فما هي إلا الكميازيب تجمع الماء كدرا وتفرقه هدرا"[1].

وقد نهى الرسول ﷺ عن الأحلاف لما فيها من تشتيت الأمة، وإن الإسلام جاء بقيمه ومبادئه ودعوته لجمع كلمة المسلمين تحت لواء جماعة المسلمين للقضاء على تلك الأحلاف مهما كانت مبرراتها ودواعيها.

عن جبير بن مطعم –رضي الله عنه– قال : قال رسول الله ﷺ : "لا حِلْف في الإسلام، وأيما حلف كان في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة"[2].

وعن عبد الله بن عمرو –رضي الله عنهما– قال : قال رسول الله ﷺ "... أوفوا بحلف الجاهلية، فإن الإسلام لم يزده إلا شدة، ولا تحدثوا حلفا في الإسلام"[3]. وفي لفظ "ولا حلف في الإسلام"[4].

(1) حكم الانتماء (108، 109).

(2) مسلم 4/ 1961 رقم 2530/ 206، أبو داود 2925، أحمد 4/ 83، مشكل الآثار 2/ 238، 21، وابن حبان 10/ 214 رقم 4371، 2472، والبيهقي 6/ 262.

(3) أحمد 2/ 207، وقال المحقق : إسناده حسن 11/ 526 رقم 6933.

(4) أحمد 2/ 180، 205، وقال المحقق : صحيح 11/ 516 رقم 6917.

وعن ابن عباس –رضي الله عنهما– قال : قال رسول الله ﷺ "لا حلف في الإسلام وما كان في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة، أو حدة"[1].

وعن قيس بن عاصم أنه سأل النبي ﷺ عن الحلف ؟ فقال : "ما كان من حلف في الجاهلية فتمسكوا به، ولا حلف في الإسلام"[2].

يقول بكر أبو زيد : "لا حلف في الإسلام هذا من مشاهير السنن في الصحيحين وغيرها، التي قطع الإسلام بها جميع المواد التي كانت أساسا للولاء والبراء في الجاهلية، وجعل الإسلام وحدة مادة الولاء والبراء"[3].

والجماعات الإسلامية في قاعدتها التصورية وروحها الانتمائية، الولاء للجماعة مقدم على الولاء للإسلام، وإن أظهر أن ذلك هو حقيقة الموالاة والمعاداة، ولا أدل على ذلك من النظر إلى هذا الأمر عند الاختلاف والتنازع، أو عندما تريد جماعة إسقاط، أو انتقاص جماعة أخرى، ونحن نعيش مع الخداع النفسي في هذه المسألة. يجب علينا التجرد المطلق، وهذا عزيز إن لم يكن معدوماً عند أفراد الجماعات والأحزاب والفرق غائب في منهجها، ولهذا فإن العقد العام هو عقد الإسلام لا عقد الجماعة، ولا حلف في الإسلام، "ومن أجل هذا العقد العام –أي عقد الإسلام والالتزام بأوامره ونواهيه– قرر الفقهاء أنه لا حلف في الإسلام، وكفى بعقدة الإسلام حلفا، فلضرورة المساواة بين المسلمين في هذا العقد العام، لا يجوز أن يتحالف بعض المسلمين من دون بعضهم الآخر، إذ إن ذلك يميز الحلفاء على سائر المسلمين، ويجعل لهم حقوقا ليست لسائرهم، ولو لم

(1) أحمد 1/ 317، 329، الدارمي 2/ 243، أبو يعلى 4/ 225 رقم 2336، وابن حبان 10/ 213 رقم 4370، قال الهيثمي : رواه أبو يعلى، وأحمد ورجالهما رجال الصحيح، مجمع الزوائد 8/ 173، وقال محقق المسند : حديث صحيح 5/ 80 رقم 2909.

(2) أحمد 5/ 61، الطيالسي 2/ 411رقم 1180، والحميدي 2/ 507 رقم 1206، والحديث صحيح .

(3) الانتماء (122، 123).

يكن تحالف البعض نكاية بالبعض الآخر، لأن مجرد التمييز بمخالفة خاصة، يضع غير الحليف في مكان أدنى من الحليف"[1].

وهذا حال الجماعات أن من ينضم تحت لواء الجماعة ومظلة التنظيم فما يحصل عليه من الامتيازات لا يحصل عليها غيره من المستقلين –أي غير المنتمين– فمن باب أولى المنتسبون لجماعة أخرى، لأن من كان في جماعة أخرى في دائرة المنافس وداخل في عالم المنبوذين لهذه الجماعة . وهذا عين التنازع والتباغض والتنافر، وهذا قاعدته هذه الأحلاف والتي قضى عليها الإسلام، ولم يبق منها إلا ما كان يجمع الأمة ولا يفرقها، وكان قاعدته "وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّـهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا " وهذا ما فعله ﷺ، فعن أنس –رضي الله عنه– قيل له : بلغك أن رسول الله ﷺ قال " لا حلف في الإسلام" فقال أنس : قد حالف رسول الله ﷺ بين قريش والأنصار في داره"[2].

لأن قريشاً والأنصار مادة الإسلام وقاعدته ونصرته، ولهذا قال للمتكاسعين كما في حديث جابر –رضي الله عنه– المتقدم : "ما بال دعوى الجاهلية"، وأمر ﷺ بتركها بقوله : "دعوها فإنها خبيثة".

ولهذا فإن الحلف إذا كان للتعاضد والاتفاق وبناء الكيان الإسلامي وجعله مُجتمعا له كيان موحد وآراء واحدة تستمدها من النظرة العامة للإسلام، ونظرة جماعة المسلمين "أهل السنة والجماعة"، كما في تحالف قريش والأنصار وهم الذين في وقت الرسول كانوا يمثلون جماعة المسلمين، وإمامهم المصطفى ﷺ فإنه تحالف محمود .

(1) النظم الإسلامية، الشيخ مصطفى وصفي (331).

(2) مسلم 4/ 1960 رقم 2529 / 204، 205.

قال بكر أبو زيد معلقا على كلام الشيخ مصطفى وصفي : "فانظر قوله السديد، وتعليله السليم، لأن مجرد التمييز بمخالفة خاصة يجعل غير الحليف في مكان أدنى من الحليف.

وهكذا الانتماء إلى الفرق المعاصرة يجعل المنتسب إليها في مكان فوق غيره في نظرهم، ولهذا قال الرسول ﷺ "لا حلف في الإسلام" وللعلماء على تتابع القرون أبحاث وتقريرات مهمة في رفض الحزبية المتميزة عن منهاج النبوة باسم، أو رسم، منهم الشاطبي، وابن تيمية، وابن القيم، والمقريزي، والطاهر بن عاشور، والشنقطي، والبشير الإبراهيمي، وغيرهم –رحمهم الله–"[1].

إن جماعة المسلمين لابد أن يتحقق لقيامها ثلاثة أركان كما يقول بكر أبو زيد : "علم بالضرورة من دين الإسلام أن الأصل أنه لا دين إلا بجماعة، ولا جماعة إلا بإمامة، ولا إمام إلا بسمع وطاعة، وهذه الثلاثة متلازمة، فلا قوام لسوق الإسلام وقيام جماعة المسلمين وصلاحهم في معاشهم ومعادهم تحت ولاية إسلامية ذات شوكة ومنعة إلا بهذا".

يُروى عن عمر –رضي الله عنه– أنه قال " لا إسلام إلا بجماعة، ولا جماعة إلا بإمارة، ولا إمارة إلا بطاعة"[2].

والإمامة لها هدف سامي، فأصل الإمامة هي حراسة الدين وإقامة جماعة المسلمين، فهي واجبة بالإجماع .

يقول الماوردي –رحمه الله– : "والإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا، وعقدها لمن يقوم بها في الأمة واجب بالإجماع"[3].

(1) حكم الانتماء (123، 124).

(2) الدارمي 1/ 79 وفيه صفوان بن رستم : مجهول ميزان الاعتدال 2/ 316.

(3) الأحكام السلطانية (5).

وقال ابن حزم –رحمه الله– : "اتفق جميع أهل السنة، وجميع المرجئة، وجميع الشيعة، وجميع الخوارج على وجوب الإمامة، وأن الأمة واجب عليها انقياد لإمام عادل يقيم فيهم حكم الله ويسوسهم بأحكام الشريعة التي أتى بها رسول الله ﷺ"[1].

وقال ابن خلدون : "نصب الإمام واجب قد عُرِفَ وجوبه في الشرع بإجماع الصحابة والتابعين"[2].

والواجب هو تنصيب إمام واحد، لأن التعدد يؤدي إلى تفريق الأمة وتعدد الجماعات وظهور التناحر والفرقة، والتنازع.

يقول الماوردي –رحمه الله– : "كما لا يجوز تقليد إمامين لأنهما ربما تعارضا في العقد والحل والعزل، وقد قال الله –سبحانه– :﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (الأنبياء : 22)"[3].

وقد بين الله في الآية أنها لا تكن أمة إسلامية إلا إذا كانت واحدة، فإذا تفرقت، وتحزبت وأصبحت فرقا وجماعات، فإنها لا تمثل بتفرقها الأمة الإسلامية، لأن موازينها قد اختلت، وقيادتها قد تعددت، وولائها قد وجهته للحزب والجماعة، وهذا خلاف النداء القرآني.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ (الأنبياء : 92).

وقال الله تعالى: ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴾ (المؤمنون: 52).

(1) الفصل في الملل والأهواء والنحل 4/ 8777.

(2) المقدمة (210).

(3) الأحكام السلطانية (27).

وقال الله تعالى:﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾(آل عمران : 103).

وهذا أمر الله –تعالى– ورسوله ﷺ في عدم التفريق، وقد رُتِبَ على التفرق والتنازع فشل الأمة، قال تعالى: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾(الأنفال : 46).

فلزوم الجماعة منجاة في الدنيا ومَغْنمٌ، والفرقة هلكة ومغرمٌ، قال ﷺ: "عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة، فإن الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد، ومن أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة"[1].

إذا النجاة في لزوم جماعة المسلمين والسير معهم على منهاج الكتاب والسنة يدعو إلى ذلك، ويصبر ويصابر، وعلى أهل العلم والإيمان من جماعة المسلمين أهل السنة والجماعة أن تجتمع رابطتهم –رابطة العلماء– وتكون هذه الرابطة ردءا عن نشوء أحزاب وجماعات على جنبي الصراط المستقيم لا على الصراط المستقيم، ولتتم تربية شباب الأمة وتحصينهم بالعلم الشرعي النافع من أصوله ومعاقله وحتى لا يسل الشباب من بين أيديهم، تحتضنهم الفرق وعوامل التقريب، وتعصف بهم الأهواء والضلالات وتتخطفهم شياطين الإنس والجن، وأخيرا تصاب الدعوة بالاحتضار"[2].

---

(1) الترمذي 4/ 465 رقم 2165، والسنة لابن أبي عاصم 1/ 42، والحاكم 1/ 114، وقال : هذا حديث صحيح، وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح غريب، وصححه أحمد شاكر كما في الرسالة 575، وقد أيد الألباني تصحيح الحاكم والذهبي . وقال : هو كما قالا، السنة لابن أبي عاصم 1/ 43.

(2) حكم الانتماء (65).

بل إن الفرقة والحزبية هي من مقاتل العمل الإسلامي، والفصام النكد في طريق اجتماع الأمة، وما يحصل في سوريا وغيرها من التناحر وتأخر النصر بين الفرق والطوائف والجماعات هناك إلا دليل -تشتت شملها وبعد نصرها على عدو الإسلام والمسلمين، بل وقتل بعضهم بعضا، وتفخيخ مقار المخالف، واجتماعاته، وما مأساة إدلب إلا شاهد حزين على ذلك.

وقد ذكر الإمام أحمد –رحمه الله- في العلل ومعرفة الرجال، عن الحسن . قال: شهدت يوم تراموا بالحصا في أمر عثمان حتى جعلت أنظر فما أرى أديم السماء من الرجم، فسمعت كلام امرأة من بعض الحجر، فقيل لي: هذه أم المؤمنين، فسمعتها تقول: إن نبيكم ﷺ قد برئ ممن فرق دينه واحتزب. قال عبد الله: قال مُؤمِّل عائشة، والصواب أم سلمة[1].

ويقول الشاعر :

أي شيء نراه داء عضالا قيل ما في البلاد من أحزاب
يزعم الكل أنه في طريق سار فيه الرسول بالأصحاب
فرقوا الدين ثم جاءوا بشيء ليس في سنة ولا في كتاب

(1) كتاب العلل 2/ 548 رقم 3597، وهذا إسناده رجاله ثقات . عدى مؤمل بن إسماعيل فقد وثقه يحيى بن معين، وقال ابن حجر : صدوق سيء الحفظ، ويعضده ما ورد من شواهد ومتابعات فقد روى ابن شبه في تاريخ المدينة . عن أبي الأشهب، عن الحسن : قال: رأيت قتلة عثمان تحاصبوا حتى ما أرى جلد السماء، ورُفع مصحف من إحدى الحجر . فقيل : (يعلم أن محمداً برئ ممن فرق دينه، وكان شيعا) (6/ 330، 331)، وهذا إسناد صحيح فقد ثبت سماع الحسن من أم سلمة ورواه ابن عساكر من طريق شيبان، عن أبي الأشهب، عن الحسن : قال : لقد رأيت الذين قتلوا عثمان تحاصبوا في المسجد حتى ما أبصر أديم السماء، وإن إنسانا رفع مصحفا من حجرات النبي ﷺ ثم نادوا : ألم تعلموا أن محمدا ﷺ قد برئ ممن فرق دينه وكان شيعا، تاريخ دمشق 39/ 325.

إذا الحزبية سبب للفرقة، وهي تفتيت لوحدة الأمة وإجهاض لمشروع الاستخلاف، وفتح أبواب الهزيمة وتشرذم الأمة، وهناك أحيانا شطط في التفكير، وزغل في المعرفة، وحجب لرؤية ذي البصيرة قد يكون سبب ذلك دافع التبرير للحزبية والفرقة، ومن ذلك أن اختلاف المناهج المؤدية إلى الفرقة وتعدد الأحزاب، وأن اختلاف الجماعات في ذلك هو اختلاف مناهج، وهو مثل اختلاف الأنبياء، بأي عقل كان القياس ومن أي مورد استسقى هذا التصور، ومن أي بحور العلم رشف هذا المخرج والتبرير للجماعات، انظر إلى نص عبارات القائل "وإن مثل تعدد اجتهاداتهم في ذلك مع وحدة الدين، والقرآن، والسنة، مثل تعدد مناهج الأنبياء -عليهم السلام- من بعض الوجوه وحدة ملتهم"[1].

فقد ورد تبيين ذلك في القرآن، وتبيين خطله حيث قال الله -تعالى- :

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ (المائدة: 48).

وعن جابر بن عبد الله أن عمر بن الخطاب أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتب فقرأه على النبي ﷺ فغضب وقال : أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب، والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا نسألهم شيئاً فيخبروكم بحق فتكذبوا به، أو بباطل فتصدقوا به، والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حيا ما وَسِعَهُ إلا أن يتبعني"[2].

(1) البيانوني في وحدة العمل الإسلامي بين الأمل والواقع (24).

(2) أحمد 3/ 387، وابن أبي شيبه 9/ 47.

إذا المنهج هو في الاتباع للبيضاء النقية التي لا دخن فيها ولا تبديل، ولا تحزب ولا تفرق، ولا تعصب، ولا يجعل الولاء والبراء يقاس بمقاييس الجماعة وميولاتها، واجتهاداتها.

قال تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (يوسف : 108).

إنها بصيرة الاتباع لا ولاء ومحبة يدخلها دخن الولاء للجماعة والحب لها الذي قد يفضي في بعض أحيانه إلى شرك الولاء وشرك المحبة، وهذا قد استشرى بين الجماعات سواء كانت حركية تصحيحية، أو إخوانية، أو جامية، أو غيرها.

إن هذه الجماعات بهذا التفرق لا تحقق معنى جماعة المسلمين، بل تفرق جماعة المسلمين إلى شيع وأحزاب، إن هذا التفتيت، والتشطير آفة ومرض لمخالفتها منهاج النبوة.

إن جماعة المسلمين على منهاج النبوة لا تقبل التشطير ولا التجزئة، فالنبي ﷺ من حين بعثته نبيا رسولا إلى وفاته، ثم صحابته –رضي الله عنهم– ومن تبعهم بإحسان كانت دعوتهم لتكون جماعة المسلمين حاملة راية التوحيد، لا لجماعة من المسلمين"[1].

"إذا ليس في الأرض جماعة المسلمين بالمفهوم الشرعي"[2].

"لأن المسلمين، أو سوادهم الأعظم، أو علماءهم وأهل الحل والعقد فيهم لم يختاروا حاكما عاما، أو خليفة للمسلمين"[3].

(1) حكم الانتماء (60).

(2) الطريق إلى جماعة المسلمين (33).

(3) العمل الجماعي (38).

إذا الموجودون هم أحزاب، أو جماعات تجتمع لغرض بعينه، كما قال أهل اللغة "العدد الكثير من الناس ... والطائفة من الناس يجمعها غرض واحد"[1]، أو حزب، والحزب كما ذكر أهل اللغة "جماعة الناس، والجمع أحزاب" وحزب الرجل أصحابه وجنده الذين على رأيه .. وكل قوم تشكلت قلوبهم وأعمالهم فهم أحزاب وإن لم يلق بعضهم بعضا"[2].

يقول ابن تيمية –رحمه الله- : "وأما رأس الحزب : فإنه رأس الطائفة التي تتحزب - أي تصير حزبا-فإن كانوا مجتمعين على ما أمر الله به ورسوله، من غير زيادة ولا نقصان فهم مؤمنون لهم ما لهم وعليهم ما عليهم، وإن كانوا قد زادوا في ذلك ونقصوا، مثل التعصب لمن دخل في حزبهم بالحق والباطل، والإعراض عمن لم يدخل في حزبهم، سواء كان على الحق والباطل، فهذا من التفرق الذي ذمه الله –تعالى- ورسوله، فإن الله ورسوله أمر بالجماعة والائتلاف، ونهيا عن التفرق والاختلاف، وأمرا بالتعاون على البر والتقوى، ونهيا عن التعاون على الإثم والعدوان"[3].

فهذه الجماعات قد تقطعت أمر الجماعة بينها زبرا، وكل منها بما لديه فرح خلافا لما كان عليه الصدر الأول.

يقول عبد القادر البغدادي –رحمه الله- : "كان المسلمون عند وفاة رسول الله ﷺ على منهاج واحد في أصول الدين وفروعه غير من أظهر وفاقا، أو أضمر نفاقا"[4].

(1) المعجم الوسيط 1/ 136 .

(2) لسان العرب 1/ 308.

(3) الفتاوى 2/ 466.

(4) الفرق بين الفرق (14).

قـــال الله تعـــالى:﴿ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴾ (المؤمنون : 53).

يقول سيد قطب –رحمه الله- : "لقد مضت الرسل –صلوات الله عليهم-أمة واحدة، ذات كلمة واحدة، وعبادة واحدة، ووجهة واحدة، فإذا الناس من بعدهم أحزاب متنازعة لا تلتقي على منهج ولا طريق.

ويخرج التعبير القرآني المبدع هذا التنازع في صورة حسية عنيفة، لقد تنازعوا الأمر حتى مزقوه بينهم مزقا، وقطعوه في أيديهم قطعا، ثم مضى كل حزب بالمزقة التي خرجت في يده، مضى فرحا لا يفكر في شيء، ولا يلتفت إلى شيء، مضى وأغلق على حسه جميع المنافذ التي تأتيه منها أية نسمة طليقة، أو يدخل إليه منها أي شعاع مضى"[1].

وهذا التصوير من سيد –رحمه الله- يذكرني أنني كنت أتكلم مع بعض القيادات الكبار لإحدى الجماعات يوما ما عن الجماعات، وهو يعد من كبار المفكرين والمنظرين عن تعددها ولماذا لا تجتمع ؟ فقال : إن هذه الجماعات كل منها يمسك بطرف من الحق ولا يرى العمل إلا من خلاله، فهذا التصوير في هذه الآية يصور لنا حال الجماعات تقطعوا أمرهم بينهم زبرا.

يقول ابن سعدي –رحمه الله- : "أي تقطع المنتسبون إلى اتباع الأنبياء (أمرهم) أي : دينهم بينهم (زبرا) أي قطعا (كل حزب بما لديهم) أي ما عندهم من العلم والدين (فرحون) يزعمون أنهم المحقون، وغيرهم على غير الحق"[2].

إن هناك من يحرص على التحزب وبقاءه وديمومته، لأنه يحقق من ذلك مصالح ذاتية سواء كان ذلك من داخل الجماعة، أو من خارجها وما أكثر أتباع

(1) ظلال القرآن 4/ 2471/ ، 1472.

(2) تفسير الكريم الرحمن 5/ 357.

الجماعات الذين يمتطون الجماعة لتحقيق منصب دعوى، أو مركز إعلامي، أو إشباع ميولاته القيادية، أو تحقيق مصالح دنيوية، أو تكوين هيمنة وكهنوتية .

لقد صار بيني وبين أحد القياديين في إحدى الجماعات الإسلامية نقاش عن الجماعات، فقال إنني مؤمن بما تقول، لكن نحن نحقق بعض الخدمات وتسهيل الأمور عن طريق الوساطات داخل كثير من الدوائر الحكومية عن طريق أفراد هذه الجماعة بالتوصية، لو لم يكن ذلك لما حصلنا على ما نريد، وقال في الأخير: "ريح راسك".

وهذا المرض موجود بكثرة في كثير من القيادات داخل الجماعات ولا أدل على ذلك من الأجنحة المتناحرة داخل الجماعة، أو التنافس بين الجماعات مما جعلها تتقاطع وتتدابر في سبيل حزبيتها.

يقول العدوي –رحمه الله– "لو عرف المصلح السياسي أن تحزب الأمة، وجعلها شيعا تتقاتل في سبيل حزبيتها، وتنسى بذلك التحزب مصالحها ومرافقها، هي سنة عدو الله فرعون القدوة السيئة في الاستبداد، والمثل الواضح في الطغيان والظلم، ولو عرفت الناس ذلك لعلموا أن هذه الوسيلة هي التي يلجأ إليها الغاصب في تثبيت قدمه، وتمكين سياسته، يخلق في الأمة الأحزاب ويغذي فيها معنى الحزبية بأساليبه الشيطانية، ثم يطلب منها بعد ذلك أن تتحد –إذ هي طلبت إليه مصلحة من مصالحها– فيعلقها على محال، إذ الحزبية لا يمكن أن تزول ما دامت الأمة العاصية باسطة سلطانها، فإنها على حساب الحزبية تعيش، وبواسطتها تصل إلى ما تريد"[1].

وهذا حال الجماعات في وقتنا، كل جماعة تدعي أنها على الحق وأن غيرها هو الباطل، إنها جماعة المسلمين، أو أهل السنة والجماعة أو ... إلخ.

(1) دعوة الرسل إلى الله تعالى (د).

"فكل جماعة تكرس لدى أفرادها مفهوم التمايز والانفصال، وتزكي لديهم روح التشرذم والتهارج مع الآخرين، جماعة بدعية ضالة، لأن لزوم الجماعة بمفهومها العام، والشامل هو المخرج من الفتنة"[1].

ويظهر لنا عند انتفاء جماعة المسلمين وتحقق التشرذم في الأمة، والتشطر واقع علما أنه سيبقى هناك من يترسم طريق جماعة المسلمين دون مصادرة للآخرين ولا فرحا بما لديه من زبر، تكون ذات سمات إسلامية صرفة، وأخلاق دينية بعيدة عن تعصب وتحزب الجماعات الموجودة الآن على الساحة دون استثناء، والتعصب المقيت الذي نلحظه في واقع الأحزاب والجماعات، وسوف نسوق شيئا من ذلك لاحقا الذي تنتهجه هذه الأحزاب والجماعات مما يجعل الإنسان يتوقف كثيرا، فإنه يرى عدم جواز الانضمام لها بهذه الكيفية، لأنه يتحول إلى عضو من أعضاء الجماعة، لا يفكر إلا بعقل الجماعة، ولا ينظر إلا بعينها، ولا يقول إلا ما تقول ولا يتبنى من المواقف إلا ما تتبنى سواء فقه ذلك، أو لم يفقه، ولو كان ذلك مخالفا لنص صريح، أو إجماع، أو قول خالف المصلحة وظهر عوره وارتكاسته، ويكون بذلك خالف جماعة المسلمين، فإذا وافق كان من جماعة المسلمين.

يقول الشافعي –رحمه الله– : "ومن قال بما تقول به جماعة المسلمين فقد لزم جماعتهم، ومن خالف ما تقول به جماعة المسلمين فقد خالف جماعتهم التي أمر بلزومها، وإنما تكون الغفلة في الفرقة، فأما الجماعة فلا يكن منها كافة غفلة عن معنى كتاب، ولا سنة، ولا قياس إن شاء الله"[2].

وقد كان هناك من يجتمع ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر لكنهم لم يخرجوا عن قاعدة جماعة المسلمين.

(1) الثوابت والمتغيرات د. صلاح الصاوي (245).

(2) الرسالة (475، 476).

وقد حث الله –تعالى– إلى مثل ذلك، قال تعالى ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران: 104).

يقول الزهري، عن هشام بن حكيم –رضي الله عنه– : "كان يأمر بالمعروف في رجال معه"[1].

وكان عبد الرحيم بن محمد البغدادي –رحمه الله– ممن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر في جماعة، قال صفي الدين عبد المؤمن : كان شيخا جليلا عالما عارفا، من أَجلِّ شيوخ الحديث، ملتزما بالسنة، زاهدا ذا فضل وورع ... قال الذهبي: وله أتباع وأصحاب يقومون في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حدث بالكثير ببغداد وبدمشق"[2].

وذكر ابن الجوزي عن أبي الوفاء بن عقيل الحنبلي . قال : "رأيت في زماننا أبا بكر الأقفالي في أيام القائم إذا نهض لإنكار منكر استتبع معه مشايخ لا يأكلون إلا من صنعة أيديهم، وكان هشام بن حكيم يأمر بالمعروف في رجاله"[3].

وذكر عبد الرحيم البغدادي أن له أتباعا وأصحابا يقدمون في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"[4].

وقال ابن تيمية : "وتعلمون أنا جميعا متعاونون على البر والتقوى، واجب علينا نصرة بعضنا بعضا مما كان وأشد"[5].

(1) تهذيب التهذيب 11/ 37.

(2) كتاب الذبل على طبقات الحنابلة 2/ 315، 316 رقم 422.

(3) تلبيس إبليس (145).

(4) المنطلق (150، 151).

(5) الفتاوى 28/ 52 .

وقال : "وما غاب عنا أحد من الجماعة، أو قدم إلينا الساعة، أو قبل الساعة إلا ومنزلته عندنا اليوم أعظم مما كانوا وأشد"[1].

هذا إذا كانت تلك الفئة الآمرة بالمعروف والناهية عن المنكر والمجتمعة على ذلك لا تلغي غيرها، بل هي سائرة إلى الله على طريق جماعة المسلمين، أما إذا كانت متنافرة متضادة متناحرة، وإنما همها هو أن يكون لها قاعدة اجتماعية تكون هذه القاعدة قاعدة استنبات أعضاء للجماعة، كما هو حال الجماعات، فإنه يقام المركز، أو أي مجال دعوي، ثم يحدد في نهايته مكتسبات الجماعة من خلال القدرة على احتواء بعض المشاركين وليس أن كسبها هو إيصال الحق للجميع، فالجماعات عندما يكون همها الاستئثار ويلعن بعضها بعضا، فهذا هو التحزب وما لا يجوز الانتماء إليه، لأن ذلك هو التحالف المنهي عنه، لانتفاء تحقق الولاء والبراء كما هو مراد في الشرع، وإنما يكون الولاء والبراء للجماعة، أو الحزب، أو الفرقة، أو الطريقة، لأنه لا يراعي عندئذ حقوق المسلمين، لأن حق المسلم على المسلم يجب أن يحفظ تحت أي مظلة حزبية، إلا أن الحزبية لا تراعي ذلك، ومن يشاهد أمر الجماعات ويدخل إلى سراديبها ومنحنيات طرقها يعلم أنها لا تقدم حق الإسلام على حق الجماعة وهذا من الضلال، لأنهم جعلوا الإسلام يخدم الجماعة وليس العكس كما يجب، ولهذا يظهر بينهم الحسد، واللعن، والطعن، والتنافر، والتناحر، ثم ليس هناك من يخلص القول ليجمع تلك الجماعات، ولو وجد لنفرت منه جميع الجماعات واتهمته بالعمالة والتخابر إلى غير ذلك.

يقول القاضي عياض –رحمه الله– قال أحمد بن حنبل : مازلنا نلعن أهل الرأي ويلعنوننا حتى جاء الشافعي فمزج بيننا.

قال القاضي عياض إن الإمام الشافعي : تمسك بصحيح الآثار واستعملها، ثم أراهم أن من الرأي ما يحتاج إليه، تبنى أحكام الشرع عليه، وأنه قياس على

(1) الفتاوى 28/ 56.

أصولها، ومنزع منها، وأراهم كيفية انتزاعها والتعلق بعللها وتنبيهاتها، فَعَلِمَ أصحاب الحديث أن صحيح الرأي فرع للأصل، وعلم أصحاب الرأي أنه لا فرع إلا بعد أصل، وأنه لا غنى عن قديم السنن وصحيح الآثار أولاً"[1].

وهذا الاجتماع على النهي عن المنكر والأمر بالمعروف والسعي لمصلحة الأمة وتقويم كيانها، وأن لا يفرق بين أفرادها ولا يقرب أحد على أحد لطائفية، أو حزبية، والحزبية تقضي أكثر وقتها في التخطيط والتدبير لإسقاط غيرها من الجماعات، والحزبيات، ولو أن هذه الجماعات تركت غيرها وعملت وسارت على طريق جماعة المسلمين واستغلت هذا الوقت لكان المسلمون شامة، ولتحقق إقامة الإسلام، ولكان اتباعه مثالا حيا، لكن أصبحوا عقبة أمام من يريد أن يهتدي، ومن العجب أن الجماعات تتناحر عندما تريد أن تضم أحدا إلى صفها من المستقيمين، فيتم التنازع على المستقيمين الملتزمين، أما هداية أصحاب المعاصي، فإن الجماعات لا تنظر له بمنظار بذل الوقت لهدايته إلا ما كان من جماعة التبليغ.

وقد سُئلت اللجنة الدائمة لهيئة كبار العلماء عن : "هل يجوز إقامة أحزاب إسلامية في دولة علمانية وتكون الأحزاب رسمية ضمن القانون، ولكن غايتها غير ذلك وعملها الدعوي سري؟

الجواب : يشرع للمسلمين المبتلين بالإقامة في دولة كافرة أن يتجمعوا ويترابطوا ويتعاونوا فيما بينهم سواء كان ذلك باسم أحزاب إسلامية، أو جميعات إسلامية لما في ذلك من التعاون على البر والتقوى"[2].

وهذه الإيجابية من هيئة كبار العلماء فيها السداد، لأن الدولة الكافرة يجب على المسلمين أن يجتمعوا فيها ويكونوا قوة ضغط تدفع عنهم تخطف أهل الكفر لقيم ومبادئ المسلمين، ثم إن ذلك لابد أن يكون الجميع تحت مظلة واحدة، وأما

(1) ترتيب المدارك 1/ 91، 3/ 181 .

(2) اللجنة الدائمة 23/ 408.

ما نشاهده في بلاد الكفر من المسلمين، فإنه لا يصلي بعض الجماعات في مسجد الجماعة الأخرى، أي تفكك وتناحر، بل العداء ويصل إلى الأيدي أحيانا، بل يعاني المسلم من المسلم الآخر أكثر مما يعاني من الكافر، فالجماعات بهذه الصورة جعلت بأس المسلمين بينهم شديداً.

إن الجماعات تجعل من دخل في حزبهم وجماعتهم ووافقهم في اجتهاداتهم هو الحقيق بأن يعقد له الولاء، وتبذل له الأخوة والمحبة، ولو كان فيه من العيوب والنواقص ما فيه، ومن لم يدخل حزبهم، أو خالفهم في اجتهاداتهم فهو صاحب كل نقيصه المتبرأ منه، ولو كان فيه من المحاسن، وصفات الصلاح والتقوى ما فيه، وكأنهم لم يسمعوا قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ﴾ (الحجرات : 13).

عن أبي نضرة قال حدثني من سمع خطبة رسول الله ﷺ في وسط أيام التشريق . فقال : يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا أحمر على أسود، ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى، أبلغت ؟ قالوا : بلغ رسول الله ﷺ قال : ليبلغ الشاهد الغائب[1].

وفي حديث أبي هريرة –رضي الله عنه– : "إن الله –عز وجل– قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء، مؤمن تقي، وفاجر شقي، والناس بنو آدم، وآدم من تراب، لينتهين أقوام فخرهم برجال، أو ليكونن أهون عند الله من عدتهم من الجعلان التي تدفع بأنفها النتن"[2].

(1) أحمد 5/ 411، وأبو نعيم في الحلية 3/ 100، قال المحقق : وإسناده صحيح 38/ 474 رقم 23489، وقال الألباني : صحيح الصحيحة رقم (2700).

(2) أحمد 2/ 371 والبيهقي 10/ 232، وقال المحقق إسناده حسن، مسند أحمد المحقق 14/ 349 رقم 8736.

وفي حديث عقبة بن عامر – رضي الله عنه- : "ليس لأحد على أحد فضل إلا بالدين، أو عمل صالح، حسب الرجل أن يكون فاحشا بذيا، بخيلا جبانا"[1].

ومن حديث أبي ذر –رضي الله عنه- أن النبي ﷺ قال له : "انظر فإنك لست بخير من أحمر، ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى"[2].

فبعد هذا هل يُقَّدم أحد من أجل جماعته، أو حزبه إلا إذا كانت الجماعة هي جماعة المسلمين وكان هو الأتقى؟ أم لغير ذلك؟ فإنها جاهلية ومحادة لما ذكر الله ورسوله أن الميزان هو ميزان التقوى، وصاحب التقوى من اعتصم بحبل الله – تعالى- لأنه هو المطلوب والذي حث عليه الدين.

قال الله تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ (آل عمران: 103).

ونهى عن الفرقة فقال: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (آل عمران: 105)

وهؤلاء الذين تفرقوا هم الذين ذكرهم الله أنهم شيع وأحزاب، قال الله تعالى:﴿ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ (الروم : 31 : 32).

وهذا التحذير فيه إيحاء أنه قد يقع الإشراك في التفرق إذا كان تفرقا كفريا، أو الإشراك الذي يقع بسبب الولاء والمحبة للجماعة وهذا دون الإشراك الكفري.

فإذا كانت سبباً من أسباب تفرقه الأمة وقد تكون سببا رئيسا، فمعنى ذلك أنها أخذت صورة من صور المنافقين الذين قد أخذوا مسجدا ضرارا وتفريقا.

(1) أحمد 4/ 145، 158، والطبراني في الكبير 17 / 295 رقم 814، والحديث صحيح.

(2) أحمد 5/ 159 وهو صحيح لغيره، المحقق 35/ 321 رقم 31407.

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾(التوبة : 107، 108).

ولهذا مسجد أسس على التقوى التي هي من خلالها يتمايز المسلمون لا الجماعات أولى بالاتباع، وطريق من أقام في هذا المسجد هي طريق جماعة المسلمين.

ومن الطريف أنه في سنة من السنوات أقامت إحدى الجماعات مخيماً، وكان التنافس والتناحر بين السرورية المنغلقة، والإخوان المتفتحين ظاهرا وفي الوقت ذاته، أقامت الجماعة الأخرى مخيمها فشنت حربا إعلامية وفكرية حتى أسمت ذلك المخيم بمخيم الضرار.

فعلى كل جماعة ألا تكون صورة الضرار مظهراً من مظاهر منهجها حتى يجتمع شتات هذه الجماعات على منهج جماعة المسلمين، لأن الإسلام أسس الأمة على الاجتماع لا على الافتراق.

كما ورد في الحديث، تلزم جماعة المسلمين إلى أن قال ﷺ "فاعتزل تلك الفرق كلها".

بل جعل للمنازع في الإمامة والساعي إلى تفرقة المسلمين ضرب العنق، عن ابن عمر –رضي الله عنهما– أن النبي ﷺ قال : "من بايع إماما فأعطاه صفقة يده، ثمرة قلبه، فليطعه ما استطاع، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا رقبة الآخر"[1].

وعن عرفجة شريح الأشجعي –رضي الله عنه– قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : "إنه ستكون هنات وهنات فمن أراد أن يفرق هذه الأمة وهي جميع فاضربوه بالسيف كائنا من كان".

(1) أحمد 2/ 161 من حديث عبد الله بن عمرو –رضي الله عنهما– وإسناده صحيح كما قال المحقق : 11/ 45 رقم 6501 .

وفي لفظ: من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد يريد أن يشق عصاكم أو يفرق جماعتكم فاقتلوه"[1].

بل إذا بويع لخليفتين قتل الآخر منهما حفاظا على اجتماع الأمة.

عن أبي سعيد الخدري –رضي الله عنه– قال : قال رسول الله ﷺ : "إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما"[2].

ومن هنا فما هو حكم الانتماء والعمل مع هذه الفرق والأحزاب والجماعات التي أقل ما يقال فيها، إن كثيراً من جوانبها ملتبسة.

يقول ابن قيم الجوزية –رحمه الله – : "إذا أشكل على الناظر، أو السالك حكم شيء، هل هو الإباحة، أو التحريم ؟ فلينظر إلى مفسدته، وثمرته وغايته، فإن كان يشتمل على مفسدة راجحة ظاهرة، فإنه يستحيل على الشارع الأمر به، أو إباحته، بل العلم بتحريمه من شرعه قطعي، ولاسيما إذا كان مفضياً إلى ما يغضب الله ورسوله موصلا إليه عن قرب وهو رُقْية له، ورائد، وبريد، فهذا لا يشك في تحريمه أولوا البصائر"[3].

وقد أُعْتُبِرَ أن الجماعات وتعددها ظاهرة مرضية، يقول ابن عثيمين –رحمه الله– : "تعدد الجماعات ظاهرة مرضية وليست ظاهرة صحية"[4].

لذا فإن تعدد القيادات، أو الجماعات الإسلامية اليوم حالة مرضية يجب أن لا تستمر بحال من الأحوال، وكل مسلم مسؤول عن علاج هذه الظاهرة ليعود المسلمون كما كانوا خير أمة أخرجت للناس، وليكون الدين كله لله"[5].

---

(1) مسلم 3/ 1479 رقم 1852/ 59.

(2) مسلم 3/ 1480 رقم 1852/ 60.

(3) مدارج السالكين 1/ 496، 497.

(4) الصحوة الإسلامية (132).

(5) منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله 1/ 168، محمد سرور. وهو جزء من الظاهرة المرضية وقد صدق في قوله وخالف في عمله.

ويقول محمد العبده : "إن طريقة تأسيس الجماعات والهيكلية التي بنيت عليها - وكانت في زمن وظروف معينة- هذه الطريقة تحمل في داخلها جراثيم الحزبية سواء قلَّت، أو كثرت، لأن الجماعات عندما انفصلت عن جسم الأمة ولم تحاول بعدئذ تجديد نفسها والارتباط بجمهور الأمة مرة ثانية، وإقامة المؤسسات الفكرية والعلمية لاستيعاب القدرات والأذكياء، فلابد أن ينشأ مرض الحزبية، وهو مرض عضال، أضر كثيرا بالجماعات الإسلامية وفرقها وأضعفها"[1].

ويقول أبو اسحاق الحويني : "في الحقيقة أنا لا أرى لهذه الجماعات إيجابية، بل أرى أن السلبيات تحيطها من كل جانب ... كل جماعة تتعصب لنفسها وتحذر من الآخر .. ومن ليس معنا فهو علينا .. هذا هو الواقع .. حتى جماعة التبليغ التي كنا نتصور أنهم لا يعبؤون بهذه التقسيمات نجدهم عندنا في مصر من أكثر الجماعات تعصبا حتى إن التبليغي لا يزوج ابنته لغير التبليغي ... ولديهم قائمة من العلماء وطلبة العلم لا يجوز أن يستمع لهم ولن يستمعوا أبداً ؟!! والتحزب والجماعات يبقي ألوفا محجوبة عنا !! جماعات لا آخر لها وكل حزب بما لديهم فرحون !! ولا أدري تعدد الجماعات ما فائدته ؟!"[2].

ولهذا فإن انشقاق حزب فأكثر عن جماعة المسلمين يلوح متميزاً بـ (الرمز) و (الشعار) و (المنهج) و (التخطيط) أو بشيء من ذلك عن منهج النبوة مهما أحاط به من حسن النية وصفاء القصد، فإنه لا محل له من القبول في الإسلام من حيث مبدأ الانشقاق، أو بكليته، فدين الله في كتابه وسنة نبيه ﷺ فكما أنه لا محل بحال للاختلاف في الكتاب، فلا محل للاختلاف في نشره والدعوة إليه إذ الغاية لا تسوغ

(1) موقع صيد الفوائد (ما بعد الجماعات).

(2) حوار الصحفي الكويتي ذياب عبد الكريم أثناء زيارة أبو اسحاق الحويني للكويت، شبكة أنا مسلم للحوار الإسلامي.

الوسيلة، فالوسيلة لها أحكام الغايات، فلا بدمن سير الغاية والوسيلة معا تحت سلطان النظر الشرعي قبولا وردا"[1].

وقد قرر العلماء أن لها مفسدة ويكفي أنها ظاهرة مرضية كما يذكر بعض قادة هذه الجماعات ومنظريها.

يقول حسن البنا –رحمه الله– : "ويعتقد الإخوان كذلك أن هذه الحزبية قد أفسدت على الناس كل مرافق حياتهم، وعطلت مصالحهم، وأتلفت أخلاقهم، ومزقت روابطهم، وكان لها في حياتهم العامة والخاصة أسوأ الأثر، كما يعتقد الإخوان أن هناك فارقا بين حرية الرأي والتفكير، والإبانة والإفصاح، والشورى والنصيحة، وهو ما يوجبه الإسلام، وبين التعصب للرأي والخروج على الجماعة، والعمل الدائب على توسيع هوة الانقسام في الأمة وهو ما تستلزمه الحزبية، ويأباه الإسلام، ويحرمه أشد التحريم، والإسلام في كل تشريعاته يدعو إلى الوحدة والتعاون"[2].

ويقول الشيخ عبد السلام عبد الكريم : "في الحزبية من المفاسد ما لا يقاس به مصالحها، لأنه لو كان فيها خير لدل عليه وأرشد إليه الناصح الأمين –عليه الصلاة والسلام– وقد ظهر بالفعل تلك المفاسد الجسام التي نجمت عن قيام تلك الأحزاب في عصرنا هذا"[3].

يقول الشيخ العلامة عبد العزيز بن باز –رحمه الله– : "ولا يجوز التفرق والاختلاف، ولا إلى حزب فلان وحزب فلان، ورأي فلان وقول علان، وإنما الواجب أن تكون الدعوة واحدة إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فالواجب على

(1) حكم الانتماء (135).

(2) رسائل حسن البناء (146، 148).

(3) منهاج الدعوة السلفية وموقفها من الجماعات الإسلامية (141)، اختلاف الإسلاميين (273).

المسلمين أن تكون طريقتهم واحدة وهدفهم واحداً وهو اتباع كتاب الله وسنة رسوله ﷺ"[1].

وقد سئل الشيخ مصطفى العدوي عن ذلك فأجاب : "لا تشترك مع أي جماعة من الجماعات، ولا تبايع أي شخص منهم .. أنت مسلم ونحن مسلمون، فنتعلم ديننا من كتاب ربنا وسنة نبينا ﷺ، ولأقوال أئمتنا من الصحابة والتابعين، وأهل العلم السابقين –رحمهم الله– أما أن أنتظم مع جماعة من الجماعات وكل جماعة فيها بلايا كما لا يخفى عليكم، ومن ثم تتسبب أحيانا في خروج على جماعات المسلمين، وأحيانا أخرى، وهذا السائد العام، عصبيات جاهلية، وتناحر لا معنى له، ولم يأمرنا الله به، فأنصحك أن تتعلم دينك، من كتاب ربك، وسنة نبيك ﷺ، تتعاون مع المسلمين عموما على البر والتقوى بالقدر الذي تطيقه، بالقدر الذي تستطيعه، ولا تحجر نفسك على جماعة من الجماعات بعينها"[2].

ويقول هشام مصطفى عبد العزيز : "فالحزبية نوع من أنواع العنف الفكري، يؤدي إلى الانتقاص من المخالفين والطعن فيهم، والتشنيع عليهم، حتى وإن كانوا من العلماء والدعاة المشهود لهم بالعلم والفضل، وحتى لو كان الخلاف خلافا شكليا، أو في بعض القضايا الفقهية، والمسائل الاجتهادية، وليت الأمر يقف عند هذا الحد"[3].

ويقول العلامة البشير الإبراهيمي –رحمه الله– "إن طريق العلم محفوف بالعوائق من مقت يحيق، ووقت يضيق وإن الأقدار وضعت في طريقكم إلى العلم عائقا جديدا هو شر عائق وأضرها، هو هؤلاء الدعاة الغاشون والسماسرة المضلون يدعونكم إلى السياسة ليصدوكم عن العلم، وإلى الحزبية ليصرفوكم من

(1) مجموع الفتاوى 2/ 310.

(2) اختلاف الإسلاميين 271، 273.

(3) هو سماكم المسلمين (22).

الجماعة ... إنهم يملؤونكم بالخيالات صغارا لتفرغوا من الحقائق كبارا، وإنه لنوع من التسميم المرجأ لا يشعر به المصاب إلا بعد فوات الوقت"[1].

وقد أفتت هيئة كبار العلماء بالمملكة العربية السعودية بهذه الفتوى "لا يجوز أن يتفرق المسلمون في دينهم شيعا وأحزابا يلعن بعضهم بعضا ويضرب بعضهم رقاب بعض، فإن هذا التفرق مما نهى الله عنه ونعى على من أحدثه، أو تابع أهله، وتوعدنا عليه بالعذاب العظيم، وقد برأ الله رسوله منه.

قال الله تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (آل عمران: 103-105).

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (الأنعام : 159-160).

وثبت عن النبي ﷺ أنه قال: "لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض". والآيات والأحاديث في ذم التفرق في الدين كثيرة.

تبين في هذا أن مجرد قيام جماعة، أو حزب، أو طائفة، أو فرقة وتميزها عن جماعة المسلمين باسم غير الاسم الذي عم الله به الأمة ﴿ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ (الحج : 78) أو تميزها بعقيدة، أو عبادة لم يأذن بها الله في كتابه وسنة نبيه ﷺ، وسبيل المؤمنين من الصحابة، أو انعزالها بمركز خاص، أو أمير غير ولي الأمر، أو بيعة دينية، أو سياسية غير البيعة العامة لولي الأمر، كل ذلك، أو بعضه خروج

(1) عيون البصائر (351).

عن جماعة المسلمين، وتشتيت شملها وتقطيع لأمرها زبراً انتهى بأهله إلى التعصب، والتنازع، والفشل، وذهاب الريح، والموالاة في الحزب والمعاداة فيه، والحب فيه والبغض فيه بدعوى أن ذلك كله في الله.

بل لقد وصل الأمر بالمسلمين نتيجة لتعدد الجماعات والأحزاب والفرق والطوائف إلى تعدي بعضهم على بعض بالتهم والشائعات الكاذبة والسباب حتى قتل رفقاء الجهاد والدعوة بعضهم بعضا والعجب كل العجب أن يدعى أكثر الحزبيين أن همهم الأول تجميع الصفوف ووحدة المسلمين ... كيف تتجمع الصفوف ويتحد المسلمون بواسطة جماعات وطوائف وأحزاب متفرقة يحاول كل طرف فيها أن يثبت أنه على الحق وغيرهم على الباطل يؤيد حزبه ويعارض الأحزاب الأخرى"[1].

وهناك عشرات الفتاوى من علماء الأمة منهم الشيخ الألباني[2] –رحمه الله، والشيخ صالح الفوزان[3]، والشيخ صالح اللحيدان[4]، والشيخ عبد المحسن العباد[5]، والشيخ مقيل –رحمه الله–[6] وغير هؤلاء كثير.

وإليك ما قاله شيخ الإسلام في عصرنا ابن عثيمين –رحمه الله–في جوابه على عدد من الأسئلة ذكرتها هنا على طولها لما لها من علاقة مباشرة بما نحن فيه:

س: هل هناك نصوص في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ تدل على إباحة تعدد الجماعات الإسلامية.

---

(1) رقم الفتوى 1674 في 7/ 10/ 1397هـ عن حقيقة الدعوة إلى الله تعالى لسعد الحصين (69 – 73).

(2) فتاوى العلماء الأكابر لعبد الملك الرمضاني (98).

(3) مراجعات في فقه الواقع السياسيي والفكري د. الرفعاي (44، 45).

(4) http://www.ia601208.us.archive.org

(5) تسجيل صوتي .

(6) السؤال البليغ عن أسئلة تتعلق بجماعة التبليغ (28).

ج : ليس في الكتاب ولا في السنة ما يبيح تعدد الجماعات والأحزاب، بل إن في الكتاب والسنة ما يذم ذلك، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ (الأنعام : 159). وقال تعالى ﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ (الروم : 32).

ولاشك أن هذه الاحزاب تنافي ما أمر الله به، بل ما حث الله عليه في قوله: ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴾(المؤمنون : 52)، ولاسيما حينما ننظر إلى آثار هذا التفرق والتحزب حيث كان كل حزب وكل فريق يرمي الآخر بالتشنيع، والسب، والتفسيق، وربما بما هو أعظم من ذلك، لذلك فإنني أرى أن هذا التحزب خطأ .

وقول بعضهم : أنه لا يمكن للدعوة أن تقوى وتنتشر إلا إذا كانت تحت حزب؟!!

نقول : إن هذا الكلام غير صحيح، بل إن الدعوة تقوى وتنتشر كلما كان الإنسان أشد تمسكا بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وأكثر اتباعا لآثار النبي ﷺ وخلفائه الراشدين .

س : هل لتعدد الجماعات الإسلامية في الساحة أثر سلبي أم أنها ظاهرة صحية؟

ج : تعدد الجماعات ظاهرة مرضية وليست ظاهرة صحية، والذي أرى أن تكون الأمة الإسلامية حزبا واحدا، ينتمي إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ولست أريد بذلك أن أجبر الناس أن يتحدوا على رأي واحد، لأن هذا شيء غير ممكن، والخلاف في الرأي موجود حتى في عهد الصحابة رضي الله عنهم، وحتى في حياة الرسول -عليه الصلاة والسلام- فالذين قال لهم الرسول -عليه الصلاة والسلام- : (لا يصلين أحد منكم العصر إلا في بني قريظة) وخرجوا من المدينة وأدركتهم الصلاة انقسموا في فهم هذا النص، فمنهم من رأى أن يؤخر الصلاة حتى يصل إلى بني قريظة وإن خرج الوقت، ومنهم من

رأى أن يصلي الصلاة في وقتها وإن لم يصل إلى بني قريظة، وبلغ ذلك رسول الله ﷺ ولم يعنف أحدا منهم .

المهم أن الخلاف في الرأي موجود، لكن الخلاف في الاتجاه هو الذي يخشى منه، بمعنى أن كل واحد منا يعتقد بأنه على منهج مخالف لمنهج أخيه بحيث يتكلم في أخيه ويسبه وربما يخرجه من الإسلام، لأنه لم يكن على طريقته، هذا هو الذي يخشى منه كما هو الواقع من بعض الناس اليوم، تجده إذا خالفه أحد في رأيه – وقد يكون الرأي الصواب مع مخالفه- تجده يهاجمه ويسبه في كل فرصة يتمكن فيها من سبه ومهاجمته، وهذا لاشك خلاف طريق المؤمنين، فالمؤمنون إخوة مؤتلفون وان اختلفوا في الرأي، بل إني أقول : إن الاختلاف في الرأي إذا كان مبنيا على الدليل فليس اختلافا في الحقيقة، لأن كلاً من المختلفين إنما يريد العمل بالدليل، فهم متفقون في الواقع لكنهم مختلفون في فهم هذا الدليل، وهذا الاختلاف في الفهم أمر موجود في بني آدم، ولا يضر ولا يؤدي إلى اختلاف القلوب مع حسن النية .

س: ما موقف المسلم تجاه تعدد الجماعات واختلافها ؟

ج : نشاهد في هذا الوقت كثرة الحديث عن الجماعات الإسلامية التي تدعو إلى الله -عز وجل-، كالتبليغ، والإخوان، والسلفية، فأي هذه الجماعات نتبعها ؟ وما موقف المسلم من اختلاف الجماعات ؟

والله موقفي أنا من هذا أنه أمر مؤلم ومؤسف، ويخشى أن هذه النهضة والصحوة الاسلامية تعود فتخمد، وتتحطم وتشل، لأن الناس إذا تفرقوا كانوا كما قال الله عز وجل:﴿ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ ﴾(الأنفال : 46) إذا تفرقوا وتنازعوا فشلوا وخسروا، وذهبت ريحهم، ولن يكون لهم وزن.

وأعداء الإسلام -ممن يتسمون بالإسلام ظاهرا، أو ممن هم أعداء له ظاهرا وباطنا-يفرحون بهذه التفرقة، وهم يوقدون نارها، ويأتون إلى هذا ويقولون: هذا فيه كذا وهذا فيه كذا، يلقون العداوة والبغضاء بين هؤلاء الإخوة الدعاة إلى الله عز وجل .

فالواجب علينا أن نقف ضد كيد هؤلاء المعادين لله ولرسوله ولدينه، وأن نكون أمة واحدة، وأن يجتمع بعضنا إلى بعض، ويستفيد بعضنا من بعض، وأن نجعل أنفسنا كداع واحد، وطريق ذلك أن يجتمع في كل بلد الزعماء الذين لهم كلمة في إخوانهم، ويتدارسوا الوضع، ويجتمعوا على خطة تكون جامعة للجميع، حتى وإن اختلف منهاج الدعوة إلى الله -عز وجل- فلا يهم، المهم أن نكون إخوة متآلفين على الحق متحابين.

وأما قوله : أي هذه الطوائف أفضل ؟ فأنا إذا قلت : إن الطائفة الفلانية أفضل فهذا إقرار لهذا التفرق، وأنا لا أقره، وأرى أن الواجب أن ننظر في أمرنا نظرة صدق وإخلاص لله -عز وجل-، ولكتابه ولرسوله ﷺ، ولأئمة المسلمين وعامتهم، وأن نكون يدا واحدة، والحق والحمد لله بين، ولا يخفى إلا على أحد رجلين : إما معرض، واما مستكبر، أما من أقبل على الحق بإذعان وانقياد فإنه لاشك سيوفق له .

س : هل الانتماء إلى حزب الإخوان، أو التبليغ في بلادنا على صواب أم على خطأ؟

ج : الذي أرى أنه على خطأ، وأنه لا ينبغي أن تفرق الأمة، هذا إخواني، وهذا تبليغي، وهذا سلفي، كلنا نريد أن نكون أمة واحدة تحت شعار واحد، وهو الإسلام الذي جاء به النبي ﷺ، ولابد أن يطبق الانسان أحكامه على حسب ما تقتضيه سنة الرسول ﷺ وهي معلومة لمن أراد الهدى، قال الله -تعالى- : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ (القمر : 17).

س : ما موقفنا ممن يدعو إلى الانتماء لحزب الإخوان، أو التبليغ بمنطق الأخوة والمحبه في الله؟

ج : إذا كان أحد يدعو إلى هذين الحزبين بناء على المحبة في الله والأخوة في الله، فإن هذه هي النية السليمة، أعني كونه يحب أن يكون المسلمون إخوة متحابين في الله -عز وجل-، ولكن كونه يدعو إلى حزب دون حزب، وينتمي إلى حزب دون آخر، ليس بصحيح، والذي أرى أن يكون الحزبان حزبا واحدا حتى لا نتفرق .

س : هل يجوز أن يكون في عنق الشخص بيعتان بيعة للوالي وبيعة لزعيم الحزب؟

ج : لا يجوز للإنسان أن يكون في عنقه بيعتان، بيعة لولي الأمر العام في البلد، وبيعة الرئيس الحزب الذي ينتمي إليه، وقول النبي ﷺ في المسافرين: "إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم"[1] لا يعني ذلك أنهم يعطونه بيعة، ولكن ذلك يعني أنه لابد للجماعة من شخص تكون له الكلمة عليهم حتى لا تختلف، وهذا مما يدل على أن الاختلاف ينبغي أن نسد بابه بكل طريقة[2].

(1) اخرجه أبو داود، كتاب الجهاد، باب : في القوم يسافرون يؤمرون أحدهم " رقم 2608، 2609، قال الأرناؤوط : سنده حسن . انظر شرح السنة 11/ 7.

(2) الصحرة الإسلامية : ضوابط وتوجيهات (131-137) سؤال 65-70.

ثالثاً
تجربة تحكي
واقع الجماعات

ثالثاً: تجربة تحكي واقع الجماعات

المتأمل لهذه التجربة وكيف تتحول القدرات إلى قدرات مسلوبة ويصبح الفرد يفكر بعقلية غيره، بل يتحول لاشعوريا مؤمنا بتلك الطقوس وتلك الخزعبلات، ومنساقا لها، مستسلما منطرحا انطراح المغشي عليه، حتى يصبح المنتمي كما قال العلامة البشير الإبراهيمي –رحمه الله– "هؤلاء الدعاة الغاشون، والسماسرة المضلون يدعونكم إلى السياسة ليصدوكم عن العلم، وإلى الحزبية ليصرفوكم عن الجماعة .. إنهم يملؤونكم بالخيالات صغاراً لتفرغوا من الحقائق كباراً، وإنه لنوع من التسميم المرجأ"[1]، أرجو التأمل والتفكر ومحاولة تحليل هذه التجربة.

أذكر أنني قرأت عن تجربة جميلة توضح كيف يتكرر السلوك الأعمى –وبقوة اجتماعية كبيرة– دون تفكير منطقي، أو سبب حقيقي ... فقد عمد أحد علماء الحيوان إلى حبس خمسة قرود في قفص كبير، وفي أعلى القفص علق موزة جميلة، ووضع تحتها سلما صغيرا .. وكلما حاول أحد القرود أخذ الموزة كان العالم يعاقبه (مع بقية المجموعة) بتيار قوي من الماء البارد، وبعد أن حاول كل قرد لعدة مرات اقتنع الجميع بخطورة نيل الموزة المعلقة بالسقف .. ليس هذا فحسب، بل اتفقت المجموعة كلها على ضرب أي فرد يحاول مجددا ،لأنها تعلمت بالتجربة أن تهور الفرد يضر الجماعة.

وهكذا عاشت القردة بسلام لعدة أيام – وتجاهلت وجود الموزة تماما حتى أخرج العالم أحد القرود وأدخل قردا جديدا.... ولأنه جديد لا يعرف ماضي الموزة، نظر إليها ولسان حاله يقول : "هممم، ما بال هؤلاء الحمقى لا يأكلون الموزة، هل أصيبوا بالعمى أم ماذا؟!" .. أما بقية القرود فتوقفت عن اللعب فجأة وأخذت تنظر برعب إلى القرد الجديد ولسان حالها يقول : "يبدو أننا سنتعرض للعقاب مجددا، لأن هذا الأحمق سيحاول أخذ الموزة".

(1) عيون البصائر (351).

وبعد لحظات ثقيلة من الانتظار والصمت والتوتر قفز القرد الجديد فجأة – وتسلم السلم لنيل الموزة- فلحقته بقية القرود وأوسعته ضربا ولكما (خوفا من الماء البارد) .. وكان المسكين كلما حاول أكلها يتعرض للضرب المبرح حتى تعلم عدم جواز مسها، أو حتى النظر إليها وبدأ يعتقد أنها "موزة مقدسة"!!

وبعد عدة أيام قام العالم بسحب قرد ثان وأدخل بدلا منه قردا جديدا، ولأنه –مثل صاحبه الأخير- لا يملك خلفية عن الموضوع انطلق فورا نحو الموزة المحرمة فهجمت عليه بقية القردة -بما فيها القرد الأخير- وأوسعته ضربا حتى تعلم عدم المساس بها وبدأ يعتقد بدوره أنها "موزة مقدسة"!!

وبعد عدة أيام سحب العالم قردا ثالثا وأدخل قردا جديدا، انطلق بدوره نحو الموزة فنال نصيبه من الضرب والتنكيل وبمشاركة القردين الأخيرين اللذين انفردا به لاحقا وأخبراه أنها موزة مقدسة .. ثم كرر عملية التبديل حتى أخرج جميع القردة الأصلية، التي تعرضت للعقاب بالماء البارد، واستبدلها بخمسة جديدة لم تتعرض للعقاب، ولكنها تعلمت قدسية الموزة وحرمة المساس بها.

وهكذا، رغم أن العالم لم يعد يستعمل رشاش الماء إلا لأنه حبس القرود داخل فكرة اجتماعية متوارثة مفادها : قدسية الموزة وعدم جواز مسها، أو حتى الاقتراب منها ... ليس هذا فحسب، بل قرر الاستمرار في عملية الاستبدال فأدخل قردا سادسا، وسابعا، وثامنا تعرضوا جميعهم للضرب من الجيل السابق .. وفي كل مرة كان الجيل الجديد يتعلم حرمة أكل الموزة دون معرفة السبب الحقيقي لذلك رغم أن الأجيال التالية لم تتعرض، أو حتى تسمع برشاش الماء البارد!![1].

(1) من يعرف جنيا يتلبسني لفهد عامر الأحمد (211، 212، 213).

رابعاً
سقطات وأخطاء
الجماعات

رابعاً: سقطات وأخطاء الجماعات

الأخطاء والسقطات من سمات البشر، ولكن هذه السقطات والأخطاء في مجالات أمور الدنيا، أو في الأمور الاجتهادية، وتكون خاصة، أو فردية أما أن تكون جماعية وفيما علم من الدين بالتلقي من نصوص الكتاب والسنة، وما سار عليه جماعة المسلمين أهل السنة والجماعة، فهذا أمر لا يقبله متدين يريد أن يسلك مسالك الصالحين، بل هو أمر يُنفر منه، ويحذر، وينصح لله ورسوله في منابذته، ويبصر الناس بخطره.

وبالذات في قضايا مفصلية يبنى عليها تحقق معنى جماعة المسلمين وحقيقة الأمة كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ (الأنبياء: 92)، وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴾ (المؤمنون: 52).

قال القرطبي: أمة واحدةٌ بالنصب على القطع، لمجيء النكرة بعد تمام الكلام، قاله الفراء. الزجاج: انتصب "أمةً" على الحال –أي: حال اجتماعها على الحق–، أي: هذه أمتكم مادامت أمة واحدة واجتمعتم على التوحيد، فإذا تفرقتم، وخالفتم فليس من خالف الحق من جملة أهل الدين الحق[1].

وسأعرض بعض هذه الأخطاء إلى بعض تلك السقطات والأخطاء منها ما هو خلل عقدي يجب أن يبين أنه خطأ، ومنها ما هو منهجي الواجب أن ينتهج فيه منهج النبوة وهذا كذلك يبين أمره، ومنها ما هو اجتهادي، وهذا أمره فيه سعة ولا يؤثر ذلك على وحدة الأمة، لأنه من منهج النبوة بشروط الاجتهاد ومجالاته ومن هذه السقطات والأخطاء:

(1) الجامع لأحكام القرآن14/ 283 .

32-1: الولاء والبراء

قال الله تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾(التوبة: 71) .

يقول القرطبي –رحمه الله–: "بعضهم أولياء بعض" أي: قلوبهم متحدة في التواد، والتحاب، والتعاطف"[1].

ويقول ابن الجوزي –رحمه الله–: "أي بعضهم يوالي بعضا، فهم يد واحدة يأمرون بالإيمان، وينهون عن الكفر"[2].

فولاية المؤمنين بعضهم لبعض هو نوع من الاعتصام بحبل الله، لأن في ذلك نبذ الفرقة، والعداوة، والتنازع، والتي هي طريق الفشل، ويكونون يدا واحدة بقلوب متحدة متحابة، لا متباغضة، وهذه حقيقة الموالاة بين المسلمين، فإذا اختل ذلك كان أمر الأمة إلى الفرقة والمهلكة، لأن الولاء والبراء من مسلمات الاعتقاد ووحدة الصف، فعند عقد شعار حزبي، أو فرقة من الفرق يصرف لها الولاء والبراء، فإن ذلك يعد شعار بدعياً.

يقول بكر أبو زيد –رحمه الله–: "من مسلمات الاعتقاد عقد سلطان الولاء والبراء تحت اسم الإسلام، ورسم أحكامه، فلا يجوز بحال عقده على شعار بدعي من اسم، أو رجل، أو طائفة، أو ما يفضي إلى بدعة، أو معصية"[3].

وهذا الشعار البدعي هو من عزاء الجاهلية.

---

(1) الجامع لأحكام القرآن 10/ 298.

(2) زاد المسير 3/ 468.

(3) حكم الانتماء (117).

يقول ابن تيمية –رحمه الله–: "كل ما خرج عن دعوى الإسلام والقرآن من نسب، أو بلد، أو جنس، أو مذهب، أو طريقة، فهو من عزاء الجاهلية"[1].

ويقول: "ليس لأحد أن ينصب للأمة شخصا يدعو إلى طريقته ويوالي ويعادي عليها غير النبي ﷺ، ولا ينصب لهم كلاما يوالي عليه ويعادي، غير كلام الله ورسوله، واجتمعت عليه الأمة، بل هذا من فعل أهل البدع الذين ينصبون لهم شخصا، أو كلاما يفرقون به بين الأمة، ويوالون على ذلك الكلام، أو تلك النسبة ويعادون"[2].

وقال ابن قيم الجوزية –رحمه الله–: "الدعاء بدعوى الجاهلية، كالدعاء إلى القبائل، أو العصبية للإنسان، ومثله التعصب للمذاهب، والطوائف، والمشايخ، وتفضيل بعض على بعض في الهوى والعصبية، وكونه منتسبا إليه، يدعو إلى ذلك، ويوالي عليه ويعادي، ويزن الناس به، فكل هذا من دعوى الجاهلية"[3].

ويقول بكر أبو زيد: "إن الحزب إن جعل أساس الولاء والبراء هو الإسلام ولم يتميز عنه باسم ولا رسم، فهذا هو الإسلام دون أي تميز في شكل، أو مضمون خارج عنه، وإن جعل الولاء والبراء على أمر، أو أمور أخرى، فهو صرف لقاعدة الإسلام (الولاء والبراء) عن متعلقها الشرعي، ومادتها الإسلامية، وهذا من ضروب العصبية التي تكاثرت النصوص على نبذها ومحوها من سجل المسلمين"[4].

ويقول الشيخ النجمي: "إن المنتمين إلى الحزبيات يجعلون حزبهم هو محور الولاء والبراء، والحب والبغض، والعداء وذلك مشاقة لله ورسوله، ومحادة لله ولرسوله حيث جعل الله –عز وجعل– محور الولاء والبراء هو الإيمان

(1) اقتضاء الصراط المستقيم (17، 79).

(2) الفتاوى 20/ 164.

(3) تيسير العزيز الحميد (444)، حكم الانتماء (117).

(4) حكم الانتماء (137، 138).

بالله ورسوله". قال تعالى:﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (المجادلة: 22)[1].

وعند النظر في حالة الجماعات والأحزاب الإسلامية، فإن الولاء بينها من أجل الانتماء، وهذا لا ينكره إلا متكبر متعال على الحق، أو جاهل بأمر الجماعات.

يحدثني أحد الاستشاريين يقول كنت في المستشفى وقابلت فلاناً وذكر اسمه دكتوراً في الجامعة فصد عني ولم يسلم، طبعا هذا الاستشاري كان له علاقة بالجماعة الأخرى علاقة احتواء لا انتماء، واذكر أنه كان مسؤول مدرسة تحفيظ القرآن في أحد الأحياء في الرياض كان من إحدى الجماعات، فكان كل المدرسين إما من نفس الجماعة، أو له علاقة عامة، وإذا جاء من غير الاتجاه كانت المشاكل والمضايقات له حتى ينقل من المدرسة، بل كان تسجيل الطلاب في هذه المدرسة أصعب من التسجيل في الجامعة إذا كنت على غير الخط، بل تحتاج إلى وساطة على أعلى المستويات ليسجل ابنك فيها، وفي الجامعة غالباً لا يقبل في الإعادة في الجامعة التي تسيطر عليها إحدى الجماعات إلا من كان من أعضاء تلك الجماعة.

والشواهد في الواقع العملي أكثر من أن تحصى، فما هو الرابط هنا ؟ هو الولاء للجماعة دون غيرها.

أليس هذا عين الفرقة والاختلاف والولاء لغير الله، مما ينشئ عنه الفتنة.

(1) الجهل المبين للعنسي (50).

يقول ابن تيمية –رحمه الله– :"كل ما أوجب فتنة وفرقة فليس من الدين سواء كان قولا، أو فعلا"[1].

وفيه تقليد الدين للرجال والتسليم المطلق لهم دون النقاش، أو الحوار، لأن ذلك في نظر الجماعة هي الفوضى والذي لا يفهم معنا الدعوة.

ويقدح حينئذ بكل قادح عقلي، أو عقدي .

كما قال الشاعر السيد إسحاق بن يوسف:

ثم من ناظر أو جادل أو رام كشفا لقذى لم ينجلي
قدحوا في دينه واتخذوا عرضه مرمى سهام المنصل[2]

يقول ابن مسعود –رضي الله عنه–: "لا يقلدن أحدكم دينه رجلا، فإن آمن آمن، وإن كفر كفر، فإن كنتم لابد مقتدين فاقتدوا بالميت فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة"[3].

يقول الإمام أحمد –رحمه الله–: "لا تقلدوني، ولا تقلدوا مالكا، ولا الشافعي، ولا الأوزاعي، ولا الثوري، وخذوا من حيث أخذوا"[4].

ويقول الذهبي –رحمه الله–: "فلا تعتقد أن مذهبك أفضل المذاهب وأحبها إلى الله –تعالى– فإنك لا دليل لك على ذلك ولا لمخالفك أيضا، بل الأئمة –رضي الله عنهم– على خير كثير، ولهم في صوابهم أجران على كل مسألة، وفي خطئهم أجر على كل مسألة"[5].

(1) الاستقامة 1/ 37.

(2) البدر الطالع 1/ 136.

(3) الحلية 1/ 136.

(4) شرح أصول الاعتقاد للألكاني 3/ 430.

(5) زغل العلم (35).

ولقد قلد أفراد الجماعات دينهم الجماعات وسيظهر ذلك جليا من خلال ما سنذكره إن شاء الله.

إن الولاء والبراء للإسلام عند الجماعات أضعف منه للجماعات فقد يُجير الإسلام لمصلحة الجماعة، ولا تُجير الجماعة لمصلحة الإسلام ولو جيرت الجماعات لمصلحة الإسلام لتحقق عز الأمة وسادت ريادتها، لأن من حق المسلم نبذ الحزبية الضيقة الممقوتة التي تضعف حزب الله –تعالى– وعدم السماح لها بالهيمنة ليكون الدين كله لله[1].

يقول سيد قطب –رحمه الله–: "إن المسلم ليس له ولاء ولا حلف إلا مع أخيه المسلم، إن الإسلام يوجب على المسلم أن يقيم علاقاته بالناس جميعا على أساس الإسلام، فالولاء والعداء لا يكونان في تصور المسلم وفي حركته على السواء إلا من خلال ما تقتضيه الشريعة الإسلامية"[2].

وهذا حال السلف –رضي الله عنهم– فلا ولاء ولا براء إلا للإسلام مهما كان الخلاف ومهما تعددت أسبابه .

يقول ابن تيمية –رحمه الله– كان السلف يوالون بعضهم بعضا موالاة الدين، لا يعادون كمعاداة الكفار، فيقبل بعضهم شهادة بعض، ويأخذ بعضهم العلم عن بعض، ويتوارثون ويتناكحون، ويتعاملون بمعاملة المسلمين بعضهم مع بعض، مع ما كان بينهم من القتال والتلاعن وغير ذلك"[3].

إن تصور الولاء والبراء من منظور الجماعات والأحزاب يفقد المنتمي النصرة للمسلمين ويولد في ذاته الخذلان والنصرة للجماعة فقط، وهذا ناتج من انعكاسات التربية الحزبية وإفراز من إفرازاتها وسلبية من سلبياتها، وهذا ما يفت في عضد المسلمين ويشرذم النصرة ويضعف قوة المسلمين، ومن يتابع أحداث

(1) الحركات الإسلامية المعاصرة د. عائض القرني (12).

(2) ظلال القرآن 6/ 758، 759.

(3) مجموع الفتاوى 3/ 285.

الساحة يجد هذا واضحا من تنوع الولاءات وانحسار كل نوع على فئة معينة من الأحزاب، ولا يتعدى هذا الولاء والبراء تلك الفئة من الجماعة، فلا نصرة إلا لها، ولا انقياد إلا لتعليماتها، ولا جماعة تنصر الإسلام إلا هي ولا صح إلا ما تعمله تلك الفئة، أو الحزب، أو تلك الجماعة، وعند استعراض أحوال الجماعات الإسلامية بعضها مع بعض فإنا نجد أن جانب الخذلان وعدم النصرة في منعطفاتها ومحطات سيرها فما أحداث حماة ولبنان وأفغانستان وسوريا والعراق واليمن إلا من الشواهد على هذه الأحداث من الخذلان وعدم النصرة.

والله تعالى قد أمرنا بالنصرة للمسلمين دون استثناء حيث قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴾ (الأنفال: 72).

يقول سيد قطب: "ولا يكون بعد هذا النذير نذير، ولا بعد هذا التحذير من تحذير ... والمسلمون الذين لا يقيمون وجودهم على أساس التجمع العضوي الحركي ذو الولاء الواحد والقيادة الواحدة، يتحملون أمام الله –فوق ما يتحملون في حياتهم ذاتها– تبعة تلك الفتنة في الأرض، وتبعة الفساد الكبير"[1].

وذلك عند انعدام الولاية للمسلم الحق ولا يكون ذلك إلا بالنظر إلى من يوالي أنه مسلم من المسلمين لا مسلماً من جماعته، أو حزبه .

قال ابن جريج: "وبيانه: أنه إذا لم يتول المؤمن المؤمن وليا حقا، ويتبرأ من الكافر جدا، أدى ذلك إلى الضلال والفساد في الدين"[2].

(1) ظلال القرآن 3/ 1560.

(2) زاد المسير 3/ 386.

وهل أدى إلى إفساد عقول شباب المسلمين وصرف الولاء الحق في غير مساره وإيجاد هذا الضلال والفساد إلا الانتماء المطلق للجماعات والأحزاب وقطع كل ولاء لغيرها فإلى الله المشتكى من عقول قد قصرت أفهامها إلى هذه الدرجة ورأت بذلك أنها تنصر الإسلام، والمسكين من لُبس عليه هذا الأمر عن طريق قولبة عقول الأتباع في قوالب الجماعة فأصبحت هذه العقول ذات مقاسات معينة لا يمكن أن تتعداها، أو تنتصر للحق إلا بفهمها عن طريق جماعتها.

يقول صادق أمين: "خذلان إخوانهم فمن يسمونهم بالإرهابيين فإن كثيرا من الاضطهاد الذي لقيه من التجأ إلى اليمن من المجاهدين لم يجدوا من الحركة الإسلامية ذرة مناصرة لهم ... بل تحاول الحركة التبرى منهم وإن من خذل مسلما خذله الله"[1].

والخذلان قاعدة جامعة مانعة لجميع الأحزاب إلا إذا كان هناك مصلحة للجماعة من المناصرة أما القاعدة العامة عند الجماعات فهو خذلان غيرها، بل الأدهى من ذلك التشفي والتعريض على سبيل السرور بما يصيب جماعة من الجماعات، أو شخصية مسلمة مستقلة عن الجمعيات ومن أكثر الجماعات تشفيا الجماعات ذات الخلايا العنقودية والدوائر المغلقة.

وقد بين الله تعالى أن نصره لمن نصره ومن نصرة الله أن ينصر المسلمين، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ (الحج: 40).

"إن الإسلام ربط المسلمين برابط لا يمكن لأي تنظيم وضعي مهما حصل عليه من القوة والدقة أن يصل إلى مثلها، وإن العلاقة، أو الأخوة الإسلامية هي

(1) إلى أين يتجه الإخوان المسلمون في اليمن (137).

أساس الولاء والبراء في الإسلام، فالمسلم ولي المسلم سواء عرفه أم لم يعرفه، بل ولو كان أحدهما في المشرق والآخر في المغرب"[1].

يقول يوسف بن أسباط، سمعت سفيان الثوري يقول: "إذا بلغك عن رجل بالمشرق صاحب سنة وآخر بالمغرب فابعث إليهما بالسلام وادع لهما ما أقل أهل السنة والجماعة"[2].

هذا هو التنظيم الرباني لعلاقات المسلمين من أهل السنة بعضهم مع بعض، فليتق الله الحزبيون ودعاة التنظيمات البدعية المفرقة الذين يقيمون علاقاتهم ولاءً وبراءة وفق لوائح حزبهم وقواعد تنظيمهم"[3].

32-2: الحب للجماعة والبغض لها

الحب في الله أوثق عرى الإيمان، والمتحابون في الله لهم منابر من نور يوم القيامة يغبطهم النبيون والشهداء، والحب في الله فضيلته أن من السبعة الذين يظلهم الله في ظله، رجلين تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه . والحب في الله يجد به المؤمن حلاوة الإيمان وبه يدخل المؤمن الجنة.

عن أنس بن مالك – رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: "ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر –بعد أن أنقذه الله منه- كما يكره أن يلقى في النار"[4].

(1) الدعوة إلى الله بين التجمع الحزبي والتعاون الشرعي (103).

(2) أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للألكاني 1/ 64 رقم 50.

(3) الدعوة إلى الله بين التجمع الحزبي والتعاون الشرعي (103).

(4) أحمد 3/ 173، 248، البخاري 1/ 60 رقم 16، مسلم 1/ 66 رقم 43/ 67.

وعن أبي هريرة –رضي الله عنه–قال: "قال رسول الله ﷺ: "والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا ...."[1].

وحقيقة الحب في الله كما قال يحي بن معاذ "لا يزيد بالبر ولا ينقص بالجفاء"[2].

قال أبو بكر بن عياش، عن عاصم "كان أبو وائل –شقيق بن سلمة– عثمانيا وكان زربن حبيش علوياً، وما رأيت واحداً قط تكلم في صاحبه حتى مات. وكان زرد أكبر من أبي وائل، فكان إذا جلسا جميعا لم يحدث أبو وائل مع زر –يعني– يتأدب معه لسنه"[3].

يقول الأعمش :أدركت أشياخنا زراً، وأبا وائل فمنهم من عثمان أحب إليه من علي، ومنهم من علي أحب إليه من عثمان، وكانوا أشد شيء تحاباً وتوادا"[4].

فإذا كان هذا حقيقة الحب في الله فما حقيقة الحب عند المنتمين للجماعات والأحزاب؟ هو الحب للجماعة والبغض لها، وهذا صرف ما كان لله للجماعة وهذا أمر فيه من الخطورة ما فيه، وهو حقيقة الواقع في الجماعة، فقد جعلت الجماعة نداً لله في الحب، وأنا أقولها، وعلى المنتمي للجماعات أن يقف مع نفسه ويخلو بها ويحاسبها ويعرض حب أفراد بقية الجماعات على نفسه، هل يحب لهم ما يحب لنفسه وأفراد جماعته أم لا، وسيصل هو بنفسه إلى النتيجة وفي حينها عليه أن يتعامل مع ذاته وغيره بتجرد، لأنه لم يخلق ليعبد الله بواسطة الجماعة، وإنما خلق ليعبد الله بما شرع عن طريق الاتباع وافقه من وافق وخالفه من خالف، فإنك إذا وافقت كنت أنت جماعة المسلمين ولو كنت وحدك، فإن الله أمرنا أن لا نعبده إلا بما شرع، وأن لا نجعل ديننا نهبا للجماعات نحب من أجلها، ونكره ونبغض من

(1) مسلم 1/ 74 رقم 54/ 93، وابن حبان 1/ 471 رقم 236.

(2) فتح الباري 1/ 62.

(3) سير أعلام النبلاء 4/ 168.

(4) المصدر السابق 4/ 169.

أجلها، وهذا ما نهى عنه ﷺ لأن ذلك مدعاة للتباغض، والتدابر، والتشاحن، والتقاطع، والتحاسد، ومهما كان لأحدنا من أعمال صالحة إلا أن ذلك التقاطع والتباغض والهجر سيكون له الأثر الكبير عليها إلا أن يشاء الله.

عن أبي هريرة –رضي الله عنه– أن رسول الله ﷺ قال: "لا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا تحاسدوا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانا، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يحقره ولا يخذله، كل المسلم على المسلم حرام، دمه –وقال إسماعيل في حديثه– وماله وعرضه"[1].

وعن ابن عمر –رضي الله عنهما– أن رسول الله ﷺ قال: "المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، من كان في حاجة أخيه كان الله –عز وجل– في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله –عز وجل– عنه بها كربة يوم القيامة، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة"[2].

وفي لفظ "المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ....".

وورد من حديث واثلة بلفظ "المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله"[3].

والجماعات تُقَعِدُ في حياة أتباعها الحالقة التي تحلق الدين بالبغضاء، والحسد والكراهية والغل.

عن الزبير بن العوام أن النبي ﷺ قال: "دب إليكم داء الأمم قبلكم، الحسد والبغضاء، والبغضاء هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر ولكنها تحلق الدين، والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، ألا أخبركم بما يثبت ذاك لكم، أفشوا السلام بينكم"[4].

---

(1) مسلم 4/ 1986 رقم 2564، أحمد 2/ 360، أبو داود 5/ 195 رقم 4882، الترمذي 3/ 325 رقم 1927.

(2) مسلم 4/ 1996 رقم 2580/ 58، أحمد 2/ 92 .

(3) أحمد 3/ 492، والطبراني 22/ 74 رقم 183 .

(4) الطيالسي 1/ 159 رقم 190، أحمد 3/ 29 رقم 1412، 1430.

وهذه القيم الربانية الرائعة والتي تبني عليها علاقة المسلم بأخيه، قد فقدت في ظل الحزبية واستبدلت بالبغضاء، والشحناء، والتقاطع، والتدابر وحمل أخيه المسلم على أسوأ المحامل، بل يتحول إلى عدو في صورة شيطان.

يقول د. البيانوني: "الحزبية البغيضة والتعصب المذموم، الذي يجعل كل طرف يتحزب لجماعته، ويتعصب لها، فيحب من معه ويبغض الآخرين، وكأن من ليس من جماعته عدو له، أو خارج عن دينه .... فيدعوه ذلك إلى إساءة الظن به، والمبالغة في نقده، وتتبع معايبه وأخطائه، وقد لا يتورع عن الكيد له والطعن فيه...."[1].

ويقول الطنطاوي –رحمه الله-: "تحب المرء فتراه ملكا، ثم تكرهه فتصيره شيطانا، وما تبدل، ولكن تبدلت حالة نفسك".

هذا حال الجماعات تعمل على تبديل أحوال النفوس، فتحب وتكره بناءا على تلك الأحوال لا بناءً على الحقائق.

وأنا أطرح سؤالا على من هو منتم لجماعة ألا يرى هذا الحديث واقعا في حياته الدعوية، بل وصل الأمر إلى ما هو أخطر أن أحدنا يسلم أخاه لعدو المسلمين، وما الساحات الساخنة في بلاد المسلمين إلا خير شاهد، بل ما يكتب كذلك بعض أفراد الجماعات في أفراد الجماعات الأخرى ونشاط تلك الجماعات وبعضها في بعض للجهات الأمنية، وهل بقي عند المسلمين والناس المنتمين وغيرهم في ذلك شك من خلال المواقف التي نراها في واقعنا المعاصر، ومن تحالفات الإسلاميين بعضهم ضد بعض فيمن تمثله بعض الجماعات، والتي لم تستطع التحالفات لأمور واستراتيجيات مستقبلية فقد آثرت السكوت وعدم النصرة لغيرها.

(1) وحدة العمل الإسلامي (72، 73).

والجماعات والأحزاب لا تعطي وترفد إلا من كان من الجماعة ومن كان من غير الجماعة، فلا حب ولا كرامة، لأن الحب لمن كان منتميا ولهذا يعطى، وهذا خلاف فعل الرسول ﷺ .

قيل لسفيان بن عيينة: ما بال أهل الأهواء لهم محبة شديدة لأهوائهم؟!!

فقال: أنسيت قوله تعالى: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ (البقرة: 93). أو نحو هذا من الكلام، فعباد الأصنام يحبون آلهتهم، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ (البقرة: 165). وقال: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى﴾ (القصص: 50) . وقال:﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ﴾(النجم: 23)[1].

يقول محمد العبده: ليس هناك أضر على الدعوة الإسلامية من الحزبية المنغلقة الضيقة، إنها داء وبيل يفتك بالأخوة الإسلامية فيقطع أواصرها ويجعل صفوها كدراً.

هل يجوز للمسلم أن يكون وجهه الطلق، وابتسامته العريضة، وسلامه الحار لمن هو من حزبه، أو جماعته، ولغيره العبوس والسلام البارد ؟! وهل يجوز للمسلم أن يغض الطرف عن أخطاء أصحابه، وإذا وقع غيره في الأخطاء نفسها شهر به وتكلم عليه ؟! وإذا ذكرت له انحرافا في الفكر، أو التصور وقع فيه واحد منهم أتى بالمسوغات، وقال: هذه أخطأ ولكنها لا تخدش في أصل المنهج بسبب هذه[2].

إن الجماعات لا تنظر لأفراد المجتمع كما تنظر لأفراد الجماعة، بل تضحى بغير أفراد الجماعة من أجل أفراد الجماعة مهما كان الأمر ولا تراعى حق المسلم على المسلم وأن أذكر لك مثالا هو لي شاهد عيان وقد أثر فيَّ تأثيراً كبيراً جعلني

(1) العبودية لابن تيمية (76، 77).

(2) خواطر في الدعوة (125).

أراجع حساباتي في واقع الدعوة هل أنا مصيب، أو مخطئ في واقع سيرى إلى الله هل أغتر بكثرة التنظير وما يقال من لحن قول يطرب السامع ويغتر به المخلص ؟

وظاهرة الاجتماعات التي تسودها اللحى، والثياب القصيرة، والتعانق وكيل المدح، والإشادة بالإنجازات، وهضم الآخرين، مما يجعلك تعيش وكأنك تعيش مع أهل بدر، وإذا خلا بعضهم إلى بعض حدث ولا حرج، أعود وأذكر ذلك الموقف، كان هناك مهرجان غنائي في إحدى المدن وقام مجموعة من الشباب المتحمسين للإنكار وكان ضمن المجموعة شاب ينتمي لإحدى الجماعات المنغلقة، فقبض عليهم أمنيا، فعقدت الجماعة اجتماعا عاجلا وحضره أهل العقد في الجماعة من المنطقة ومن خارجها للتشاور في أمر هذا المعتقل، وكيف الوصول لإطلاق ذلك الشاب وما هي الحلول الممكنة، والمعتقلون كانوا أربعة، ثلاثة لا ينتمون لجماعة، وواحد له انتماء، وكانت الكارثة النظر فقط لهذا الشاب ولم ينظر لهؤلاء الشباب الثلاثة من قريب ولا بعيد . قلت: هذا والله هو حق المسلم، لا حق الجماعة، وفعلا حق المنتمي على المنتمى فوق حق المسلم على المسلم، وحدث عن تلك المواقف أليس هذا الحب والبغض للجماعة ليس لله.

يقول ابن تيمية: "فتعليق الأمور من المحبة والبغض، والموالاة والمعاداة والنصرة والخذلان والموافقة والمخالفة، والرضا والغضب، والعطاء والمنع بما يخالف هذه الأصول المنزلة من عند الله مما هو أخص منها، أو أعم منها، أو أعم من وجه وأخص من وجه، فالأعم ما عليه المتفلسفة ومن اتبعهم من ضلال المتكلمة والمتصوفة والممالك المؤسسة على ذلك كملك الترك وغيرهم في تسويغ الدين بغير ما جاء به محمد رسول الله، وإن عظم محمدا وجعل دينه أفضل الأديان، وكذلك من سوغ النجاة والسعادة بعد مبعثه بغير شريعته.

والأعم من وجه الأخص من وجه: مثل الأنساب، والقبائل، والأجناس العربية، والفارسية، والرومية، والتركية، أو الأمصار والبلاد، والأخص مطلقا، الانتساب إلى جنس معين من أجناس بعض شرائع الدين، كالتجند للمجاهدين،

والفقـة للعلمـاء، والفقـر والتـصوف للعبـاد، أو الانتـساب إلى بعـض فـرق هـذه الطوائف كإمام معين، أو شيخ، أو ملك، أو متكلم من رؤوس المتكلمين، أو مقالة، أو فعل تتميز به طائفة، أو شعار هذه الفرقة من اللباس من عمائم، أو غيرها . كمـا يتعـصب قـوم للخرقـة، أو اللبـسة يعنـون الخرقـة الـشاملة للفقهـاء، أو الفقـراء، أو المختصة بأحد هذين، أو بعض طوائـف أحـد هـؤلاء، أو لبـاس الجنـد، أو نحـو ذلك، كل ذلك من أمور الجاهلية المفرقة بـين الأمـة، وأهلـها خـارجون عـن الـسنة والجماعة، داخلون في البدع والفرقة، بل دين الله –تعالى– أن يكـون رسـول الله ﷺ هو المطاع أمره، ونهيـه، المتبـوع في محبتـه، ومعـصيته، ورضـاه، وسـخطه، وعطائـه، ومنعه، وموالاته، ومعاداته، ونصره، وخذلانه.

ويعطي كل شخص، أو نوع من أنـواع العـالم مـن الحقـوق مـا أعطـاهم إيـاه الرسول، فالمقرب من قربه والمقصي من أقصاه، والمتوسـط مـن وسـطه ويحـب مـن هذه الأمور أعيانها، وصفاتها ما يحبه الله ورسوله منهـا ويكـره منهـا مـا كرهـه الله ورسوله منها، ويترك منها –لا محبوبا ولا مكروها– ما تركه الله ورسـوله كـذلك – لا محبوبا ولا مكروها"[1].

يقول ابن رجب: "ومن كان حبه، وبغضه، وعطاؤه، ومنعه لهـوى نفـسه، كـان نقصا في إيمانه الواجب، فيجب عليه التوبة من ذلك والرجوع إلى اتبـاع مـا جـاء بـه الرسول ﷺ من تقديم محبه الله ورسوله وما فيه رضا الله ورسوله على هوى الـنفس ومراداتها كلها"[2].

وهل العطاء والبغض والحـب عنـد الجماعـات منطلـق إلا مـن هـوى حـب الجماعة الذي قد يؤدي بالمنتمي إلى القدح في أعراض أفراد الجماعات ومن ليس له انتماء من غير جماعته.

(1) الفتاوى 3/ 342، 343.

(2) جامع العلوم والحكم (407).

عن سفيان بن الحسن . قال: كنت عند إياس بن معاوية وعنده رجل تخوفت إن قمت من عنده أن يقع في، قال: فجلست حتى قام، فلما قام ذكرته لإياس، قال: فجعل ينظر في وجهي ولا يقول لي شيئا حتى فرغت . قال لي: أغزوت الديلم ؟ قلت: لا، قال: فغزوت السند ؟ قلت: لا، قال: فغزوت الهند ؟ قلت: لا، قال: فغزوت الروم ؟ قلت: لا، قال: فسلم منك الديلم، والسند، والهند، والروم، وليس يسلم منك أخوك هذا ؟ فلم يعد سفيان إلى ذلك[1].

فهذا حال الجماعات في عمومها يسلم منه البعيد ويصطلي بنارها القريب، فهي أشد بأسا على غير أفرادها من المسلمين مع أن المؤمنين رحماء بينهم أشداء على غيرهم فنجد المتدين غير المنتمي يصله من الأذى والهجر، وتشويه السمعة، والوشاية، والانتقاص، ومصادرة الحقوق ما لا تتصوره من الجماعات وخاصة المنغلقة، ما لا يصله من اليهود والنصارى .

والأمر من ذلك والأشد دفعا على النفس أن البغض للغير يُلْبس بلباس الخلاف العلمي سواء كان على مستوى الجماعات، أو الأجنحة المتصارعة داخل الجماعة الواحدة، وقد ذكر ذلك من له علاقة وإطلاع بذلك وهو ما شاهدناه فيما مضى من واقع الدعوة.

يقول القرضاوي: "كثيرا ما تكون الخلافات بين الأفراد والفئات ظاهرها أنه خلاف في مسائل في العلم، أو قضايا في الفكر، وباطنها حب الذات –أو حب الجماعة– واتباع الهوى الذي يعمي ويصم ويضل عن سبيل الله.

وهذا ما لمسته للأسف في كثير من ألوان الخلاف التي وقعت ولازالت تقع بين الجماعات والحركات الإسلامية بعضها مع بعض، وبين الأجنحة المختلفة داخل الجماعة الواحدة، وبين الأفراد القياديين بعضهم مع بعض، فكثير منها يرجع إلى أمور شخصية وتطلعات ذاتية.

(1) شعب الإيمان رقم 6773 .

وإن كانت تغلف بالحرص على مصلحة الإسلام، أو الجماعة، أو غير ذلك مما قد يدق، أو يخفى حتى على الإنسان نفسه"[1].

يقول ابن رجب الحنبلي –رحمه الله–: "ولما كثر اختلاف الناس في مسائل الدين وكثر تفرقهم كثر بسبب ذلك تباغضهم وتلاعنهم، وكل منهم يظهر أنه يبغض لله، وقد يكون في نفس الأمر معذوراً وقد لا يكون معذورا، بل يكون متبعا للهوى، مقصرا في البحث عن معرفة ما يبغض عليه، فإن كثيرا من البغض كذلك إنما يقع لمخالفة متبوع يظن أنه لا يقول إلا الحق، وهذا الظن خطأ قطعا، وإن أراد أنه لا يقول إلا الحق فيما خولف فيه، فهذا الظن قد يخطئ ويصيب، وقد يكون الحامل على الميل مجرد الهوى، أو لإلف، أو لعادة، وكل هذا يقدح في أن يكون هذا البغض لله، فالواجب على المؤمن أن ينصح نفسه ويتحرز في هذا غاية التحرز، وما أشكل منه فلا يدخل نفسه فيه خشية أن يقع فيما نهى عنه من البغض المحرم.

وهاهنا أمر خفي ينبغي التفطن له وهو أن كثيرا من أئمة الدين قد يقول قولا مرجوحا ويكون مجتهدا فيه مأجوراً على اجتهاده فيه موضوعاً عنه خطؤه فيه ولا يكون المنتصر لمقالته تلك بمنزلته في هذه الدرجة، لأنه قد لا ينتصر لهذا القول إلا لكون متبوعه قد قاله، بحيث إنه لو قاله غيره من أئمة الدين لما قبله ولا انتصر له، ولا والى من وافق ولا عادى من خالفه، وهو مع هذا يظن أنه إنما انتصر للحق بمنزلة متبوعه وليس كذلك، فإن متبوعه إنما كان قصده الانتصار للحق، وإن أخطأ في اجتهاده وأما هذا التابع فقد شاب انتصاره لما يظنه الحق إرادة علو متبوعه وظهور كلمته، وأن لا ينسب إلى الخطأ وهذه دسيسة تقدح في قصد الانتصار للحق، فافهم هذا فإنه فهم عظيم، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم"[2].

(1) الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم (127).

(2) جامع العلوم الحكم 2/ 267.

32-3: التعصب للجماعة

إذا كان حال المنتمين إلى الجماعات أن الولاء والبراء، والحب والبغض من اجلها، فلاشك أن ذلك سيفرز لنا شخصا قد صبغ بالتعصب المذموم الذي يترشح في خلد المنتمي أنه يجب عليه ذلك، وهذا الواجب قد أملاه هواه وبريق الخطاب الجماعي، بل يجعل من كلام أقطاب الجماعة هدى وكلام غيرهم ضلالة.

يقول ابن تيمية: "وليس لأحد أن ينصب للأمة شخصا يدعو إلى طريقته ويوالي ويعادي عليها غير النبي ﷺ ولا ينصب لهم كلاما يوالي عليه ويعادي غير كلام الله ورسوله، وما اجتمعت عليه الأمة، بل هذا من فعل أهل البدع الذين ينصبون لهم شخصا، أو كلاما يفرقون به بين الأمة يوالون به على ذلك الكلام، أو تلك النسبة ويعادون"[1].

إن جعل كلام القائل من أقطاب الجماعة هدى يهتدي به بلا دليل، أو رشد إليه أمر فيه من الخطورة ما فيه، وكأنه أنزل هذا القائل منزلة الرسل، وجعل له ما يشبه العصمة، وهذا ما نشهده في أنفاس الحزبية .

يقول ابن تيمية –رحمه الله-: "أما وجوب اتباع القائل في كل ما يقول من غير ذكر دليل يدل على صحة ما يقول، فليس بصحيح، بل هذه المرتبة هي مرتبة الرسول التي لا تصلح إلا له"[2].

وقال ابن تيمية –رحمه الله-: "فمن تعصب لمالك، أو الشافعي، أو أحمد، أو أبي حنيفة ويرى أن قول هذا المعين هو الصواب الذي ينبغي اتباعه دون قول الإمام الذي خالفه، فمن فعل هذا كان جاهلا ضالا، بل قد يكون كافرا، فإنه متى اعتقد أنه يجب على الناس اتباع واحد بعينه من هؤلاء الأئمة دون الإمام الآخر فإنه يستتاب فإن تاب وإلا قتل"[3].

---

(1) مجموع الفتاوى 20/ 164.

(2) مجموع الفتاوى 35/ 121 .

(3) مختصر الفتاوى المصرية 1/ 134.

هذا رأي الأئمة فيما يتعلق بالفروع، أو الفقه الأصغر، فكيف بالفقه الأكبر وخاصة ما يتعلق بحقوق المسلمين، ونحواً من قول ابن تيمية.

قال محمد سلطان الخجندي الحنفي: "فمن يتعصب لواحد معين غير رسول الله ﷺ ويرى أن قوله الصواب الذي يجب اتباعه دون الأئمة الآخرين، فهو ضال جاهل، بل قد يكون كافرا يستتاب، فإن تاب فيها، وإلا قتل، فإنه متى اعتقد أنه يجب على الناس اتباع أحد بعينه من هؤلاء الأئمة فقد جعله بمنزلة النبي ﷺ وذلك كفر"[1].

إن من الواجب البحث عن الحق واتباعه، واتباع القول بالامتثال، لأن الحق دليل السائر إلى معرفة أهل الحق .

قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (الزمر: 18).

قال علي –رضي الله عنه–: "إن طلحة والزبير كانا على باطل، يا هذا، إنه ملبوس عليك، إن الحق لا يعرف بالرجال، اعرف الحق تعرف أهله"[2]. وهذا مفقود لدى كثير من الجماعات.

إن تعصب كثير من هذه الجماعات –بل كلها– المعاصرة لأسماء وشعارات، وأشخاص ومقالات ما أنزل الله بها من سلطان والمفاضلة وتحديد الولاء على أساس الانتماء للأشخاص واللافتات.

وليس على أساس التقوى والعمل الصالح والولاء العام لجميع المسلمين – والولاء الخاص – مع عدم تلقي الحق والخضوع له من مصادره الشرعية، وإنما من نظرة حزبية ضيقة، ومن رؤية القيادة، أو مزاجها وهو الذي جمد العقل والسلوك كل عند حدود جماعته.

---

(1) هل المسلم ملزم باتباع مذهب معين (541).

(2) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 1/ 340.

وهذا التحزب للجماعات هو مناقض ومخالف ما دعى إليه الإسلام من تحزب فقد جعل الله الحزبية الإسلامية عامة لكل المسلمين الذين (يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون)، ليس هم المنتمون لشريحة، أو قيادة، أو فئة، أو جماعة ذات طابع تحزبي ضد فئة أخرى من المسلمين، لأن هذا النوع من التحزب هو المنبوذ الذي نهى عنه الإسلام أما حزب الله فهم الذي يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون، فهؤلاء الذين لهم الولاء والذين يتولاهم الله، قال الله – تعالى-: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ (المائدة: 55-56) فإذا خرج مفهوم الحزب عن هذا المفهوم ظهر لنا الفهم الخاطئ.

وهو الذي يصنع تلك الحدود الموهومة التي تحيط بها كل جماعة نفسها والتي تصور لأفرادها في النهاية أنها هي وحدها الحق، وكل ما عداها باطل، أو خطأ، أو انحراف[1].

وهذا الكلام وإن كان صادراً عن بعض أفراد جماعة تعد أقوى وأشد الجماعات تعصبا وتحزبا إلا إنه واقع عندها وعند غيرها، وليس معنى أنها قالت جماعة من الجماعات الحقيقة أنها لا تتقمص تلك السلبيات التي تدفعها إلى الحزبية، فالحزبية كمتعاطي الدخان يشتمها ويذمها، كل الجماعات تنفيها عن نفسها وترمي بها غيرها وكذلك التعصب، والصحيح أنها كلها متحزبة ومتعصبة قد أشربت الحزبية بتحزبها.

علماً ان هناك من ينقد الحزبية في تنظيره ويفرق بينها وبين التنظيم وإن عدم التفريق خلل وهذا صحيح.

يقول الشيخ ناصر العمر: "الخلل في عدم التفريق بين الحزبية وبين التجمع والتنظيم: نظراً لطغيان الحزبية على بعض التنظيمات والجماعات الإسلامية،

(1) معالم الانطلاقة الكبرى (34).

وتحذير السلفيين من الحزبية، فقد تعدى هذا المفهوم إلى الخلط بين الحزبية الممقوتة وبين التجمع والتنظيم المشروع فأصبح مصطلح (الحزبية) عند بعض السلفيين يعني تحريم التجمع والتنظيم الذي هو من الأصول اللازمة لأي بناء ومشروع، حتى وصل الأمر إلى تعمد الفوضى والتفرق خوفا من تهمة الحزبية المحرمة[1].

وهذا الكلام من شيخنا ناصر العمر وفقه الله، رائع من حيث التنظير والأروع لو لامس ذلك الجانب التطبيقي، فالتنظيم والاجتماع مطلب شرعي، لكن مدى تطبيق ذلك في الواقع الحركي للجماعة، إنه غير موجود للمشاهد في واقعها الظاهر، وإدارة أمورها التنظيمية، فهي لا تشرك غيرها في إدارة العمل الدعوي، فالعمل الدعوي عندها خاص بها لا يظهر عليه قريب مقرب غير منتم، ولا عالم يدعو بعلم لأن هناك مفاهيم لا يفهمها لاهم، وهذا من التحزب وإما تكتل أهل الخير أمر الجماعة لا، إذا هذا هو عين التحزب، هل يمكن إطلاع أحد على أي من استراتيجيات الجماعة، وخططخا المستقبلية لا، إذا هذا تحزب وتنظيم له لا تنظيم للتجمع العام، نما من تنظيم إلا وهو مصاب بداء الحزبية، وليس معنى ذلك الدعوة إلى الفوضى، فهذا ممقوت، ونحن ندعو إلى تنظيم غير محزب وإشراب الحزبية درجات.

إن تفاوت ذلك في الأفراد نظرا للتدين، أو عدم فهم خط سير الجماعة، أو لانخداعه بها وبتعاملها معها على أنه من أفرادها، فيفهم ذلك التعامل أنه لكل المسلمين، وإذا أراد الحقيقة فعليه أن يتركها، ويُظهر ذلك فسيرى كيف تتقلب الأمور فتنقلب الابتسامة إلى تكشيرة، والمدح إلى قدح، وصورته الملائكية إلى شيطانية، وعبقريته وعلمه إلى جهل، وتدينه إلى بدعة، وخدمة الإسلام إلى عمالة، ونقض لهذا الدين، وعبادته إلى تزلف، والويل كل الويل له، وهذا كله منشؤه التعصب والحزبية المقيتة ليشبع أنانيته الحزبية وحصر الحق في طريقته.

(1) أوراق مؤتمر: السلفيون وآفاق المستقبل المقام في تركيا (9).

كمن ينتمي إلى شيخ، أو جماعة فلا يزال يتعصب له، أو لها وهو إنما يشبع بذلك نزعته الأنانية، حتى يصل به التعصب إلى حال يرى فيه أن المسلمين الصادقين ليسوا إلا من كانوا ضمن دائرة التبعية لشيخه، أو جماعته، وأن الآخرين ليسوا إلا مسلمين من الدرجة الثانية وإن من لم يكن منهم فهو عليهم"[1].

ويقول القرضاوي: "ومن التعصب الذي ينبغي أن نحذر منه، التعصب للفئة، أو الحزب، أو للجماعة التي ينتسب إليها المسلم، تعصبا يجعله ينتصر لها بالحق وبالباطل ... ومن التعصب للجماعة، أو الحزب أن يضفي من الصفات ما يشبه القداسة، أو العصمة، فكل ما تقوله فهو الحق، وكل ما تفعله فهو جميل، وكل ما يصدر عنها فهو صواب، وكل تاريخها أمجاد وكل رجالها ملائكة، وهذا ليس بصحيح"[2].

ويقول البيانوني: "من سلبيات الجماعات، الحزبية البغيضة والتعصب المذموم الذي يجعل كل طرف يتحزب لجماعته ويتعصب لها، فيحب من معه ويبغض الآخرين، وكأن من ليس من جماعته عدو له، أو خارج عن دينه ... فيدعوه ذلك إلى إساءة الظن به، والمبالغة في نقده وتتبع معايبه وأخطائه، وقد لا يتورع عن الكيد له، أو الطعن فيه"[3].

هذا عين التعصب وهو أشد من التعصب في الفروع، لأن التعصب للجماعة تعصب لكل قيمها، ومثلها، واجتهاداتها، وتصوراتها، وأحكامها، وقواعد انطلاقاتها، وحُكمٌ على الآخر حكما مطلقا أنه ضال وأنها هي المهتدية ومثال ذلك كما قال أبو حاتم بن خاموش عندما قيل له: "إن هذا ذكر له مذهبا ما سمعت به . قال: هو حنبلي . فقال: دعه ويلك، من لم يكن حنبليا فليس بمسلم"[4].

(1) باطن الإثم سلسلة أبحاث في القمة) السيوطي (35).

(2) الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم (219).

(3) وحدة العمل الإسلامي (72، 73).

(4) سير أعلام النبلاء (17/ 625).

وهذا من الانكفاء الانتمائي وهو خلاف حال السلف.

يقول أبو شامة المقدسي الشافعي –رحمه الله–: "ينبغي لمن اشتغل بالفقه أن لا يقتصر على مذهب إمام، ويعتقد في كل مسألة صحة ما كان أقرب إلى الدليل الكتاب والسنة المحكمة، وذلك سهل عليه إذا كان أتقن معظم العلوم المتقدمة وليجتنب التعصب والنظر في طرائق الخلاف المتأخرة، فإنها مضيعة للزمان، ولصفوه مكدرة، فقد صح عن الشافعي أنه نهى عن تقليده وتقليد غيره، قال صاحبه المزني في أول مختصره: اختصرت هذا من علم الشافعي، ومن معنى قوله لأقربه على من أراد مع إعلامه نهيه عن تقليد غيره، لينظر فيه لدينه، ويحتاط لنفسه، أي مع إعلامي من أراد علم الشافعي: نهى الشافعي عن تقليده وتقليد غيره"[1].

فالحزبية تتعصب لآرائها وتلزم بها الأتباع، يقول بكر أبو زيد: "الحزبية تقوم على التسليم بآراء الجماعة، وتوزيعها ونشرها وسد منافذ النظر لها، فضلا عن مراجعتهم لجداول أعمالها، وهذا يناقض ما دعا إليه الشرع"[2].

بل إن الحزبية وصل الأمر بها أنه لا يتم تزويج حزبي آخر من بنت حزبي آخر وأذكر أنه تقدم رجل من جماعة الإخوان لطلب الزواج من أخت أحد السرورية فرفض الأمر، لأنه إخواني، وأنا أقولها إنه لا يوجد وإن وجد فهو في عداد النادر حزبي تزوج أختاً، أو بنت حزبي آخر وهذا الواقع بين أيديكم.

ومن التعصب المقيت طلب العلم وتحمله، فإن أفراد الجماعات لا يتلقون العلم إلا من الحلقات والمجالس والجلسات والدروس التي يقوم عليها الجماعة، أو يكون الملقي له من أفراد الجماعة، وعند الإعلان عن محاضرة لرمز من رموز الجماعة فإنها تشتعل وسائل التواصل للإعلام عنها، وإذا كانت لأحد رموز جماعة

(1) الصحوة الإسلامية للقرضاوي (203).

(2) حكم الانتماء (149).

أخرى فإنه لا يعلن لها ولا يحضرها أحد من الجماعة الأخرى وإن حضر أحد فقد يكون من باب النقد وجمع الأخطاء، أو إنسان على حسن نية، وقد كان يعلن عن محاضرة لرمز من رموز الجماعة فيأتي إلى الإعلان ويمزقه ويعلق مكانه إعلان محاضرة لرمز جماعة أخرى والواقع هو الشاهد على ذلك.

يقول محمد العبده: "ومن هذه التربية أن يحال بين الفرد في أول عهده بالدعوة وتلقى العلم وبين الجلوس إلى العلماء، أو من عندهم علم وخبرة، فيربونه بأدبهم وسمتهم وتجربتهم وإذا أحيل بينه وبين هذا فهو يتلقى ممن يباشره عملية التربية". وبسبب هذه الحزبية تراه لا يطلع ولا يقرأ ولا يستقي إلا من طرف واحد من كتب أصحابه، وممن يوصى ألا يقرأ إلا لهم، فيتخرج ضيق الأفق، مشوه الشخصية الثقافية، لا ينظر إلا من زاوية واحدة ولا يعرف إلا الفكر الأحادي"[1].

وهذا المنهج التربوي الحزبي أفرز لنا في الواقع إرهابا فكريا.

يقول بكر أبو زيد: "وهذا الاعتقال الفكري أفرز في مقابلة الإرهاب الفكري بمعرفة ما لدى الآخرين للاستفادة من التجارب وتصحيح المسار وأعظم مولدات هذا الإرهاب، الانقطاع عن أنوار الدليل من الكتاب والسنة، والتمحور في فكر الجماعة والانغلاق في قالبها.

ففي الوقت الذي بدأ المسلمون يتخلصون من العصبية المذهبية الفروعية أخذت الأحزاب تنفخ في التعصب من وجه آخر هو أشد تأثيرا وأثرا"[2].

وهذا ما أدى إلى الانغلاق الفكري إلا على مدرستهم وجماعتهم وحزبهم ذو المفاهيم الضيقة ومنع نقاش مخالفيهم من المسلمين، وعدم مجادلتهم والإعراض عن القراءة، أو السماع للمدارس الإسلامية التي لديها ما ليس عند تلك الجماعة.

(1) خواطر في الدعوة (125) مع تقديم وتأخير.

(2) حكم الانتماء (145).

بل يتعدى الأمر ذلك إذا كان هناك خلية في جلسة عند أحد الجماعة فإنه ليس لأفرادها الجلوس إلى خلية أخرى عند فرد آخر ولو كان الموضوع نفسه، بل لو فرضنا أن أحد أفراد الخلايا كان عند زيد من الناس، ثم ذهب إلى عمرو من الناس فسأله، أو تعامل معه تعاملا حركيا، أو تعاملا يجعله يميل إليه أكثر من مسئوله الأول، فإن ذلك من القواصم وطوام العمل الدعوي، لأنها طريق الفوضوية وكسر باب الإغلاق عند هذه الجماعة المغلقة، وهذا الأمر في إدارة الخلايا العنقودية والتي تذكرك بكيفية العمل الماسوني ومصطلحاته، بل بعض الجماعات لكل مرحلة من مراحل العمل والمستوى الذي يصل إليه المنتمي مسمياته، ولو فرضنا أنه من هيئة كبار العلماء لابد أن يخضع لذلك الأمر وقد يكون مسئوله، أو مصنفة لا يساوي قلامة ظفره علما وعملاً.

والمنتمي إذا كان في خلية من الخلايا فإنه لا ينتقل إلى خلية أخرى، أو مسئول آخر إلا عبر قنوات وبرتوكولات معينة وهذا من العهد المعمول به وعلى المنتمي أن يسلكه.

وهذا ما لم يرضه السلف –رحمهم الله– بل كانوا لا يحملون الأمة على طريقة معينة، أو جماعة معينة، أو مذهب معين.

يقول ابن مفلح: "قال أحمد في رواية المروذي: لا ينبغي للفقيه أن يحمل الناس على مذهب"[1].

وقد سئل السيوطي –رحمه الله– عن رجل من الصوفية أخذ العهد على رجل، ثم اختار شيخا آخر، وأخذ عليه العهد، فعل العهد الأول لازم أم الثاني . فقال –رحمه الله– "لا يلزمه العهد الأول، ولا الثاني، ولا أصل لذلك"[2].

(1) الآداب الشرعية 1/ 212.

(2) الحاوي للفتاوى 1/ 253.

وحال هذه الجماعات في الحجر على الاتباع في التلقي والتحمل لا يكون إلا عبر قنوات تلك الجماعات كحال الصوفية تماما وهذا هو حال أهل البدع.

يقول الشيخ طارق عبد الحليم: "في يوم من أيام الشتاء (1988) كان أن فاجأني محمد سرور بحضوره لبيتي في لندن مع بعض الإخوة وطلب مني أن انضم إلى جماعته وأبايعه على ذلك ووعدني بكل مساعدة وكرر لي إعجابه بأسلوبي في الكتابة وطريقتي المنهجية في التفكير، فكان أن ترددت وذكرته أنني لا أحب أن أكون تحت أية قيادة مهما كانت، وأنني صاحب فكر ومنهج مستقل، بينته في كتبي، وعشت به وله أربعة عقود متتالية، فغضب الرجل وهاج وماج وخرج مهرولا من البيت، ثم أصدر أوامره لتلاميذه بعدم الحديث معي، أو حضور درسي وانقطعت بيننا الصلة . الرجل كان من الإخوان كما هو معروف، ثم خرج عنهم لسبب يتعلق بتقديرهم لمكانته كما يراها وتوليته مناصب معينة لا لخلاف فكري كما يشاع"[1].

هذا حال الجماعات والأحزاب في فرض الأوامر ومنع الأتباع من حضور دروس العلم، بل وصل إلى درجة منع أي وسيلة من وسائل الاتصال، كأن من لم يذعن ويتبع ويبايع وقع فيما وقع فيه من تخلف عن غزوة تبوك ولابد أن يقاطع حتى تنزل توبته من السماء، أيُّ تعصب، وأي ظلم، وأي جفاء، وأي تحزب أكبر من ذلك المساعدة، والعطاء لأجل الانتماء، والهجر والبراء من أجل الانتماء للجماعة، فأين حق المسلم على المسلم في مثل هذا الموقف في بلاد الكفر، أليس في هذا الموقف يتجلى حقيقة الحزبية والخروج من ذلك بثني الركب عند كل صاحب علم واتباع من العلماء الربانيين.

(1) موقع الشيخ طارق عبد الحليم.

يقول عبد الله بن خفيف: "اشتغلوا بتعلم العلم، ولا يغرنكم كلام الصوفية، فإني كنت أخبئ محبرتي في جيب مرقعتي، والكاغد في طرة سروايلي وكنت أذهب خفية إلى أهل العلم، فإذا علموا بي خاصموني، وقالوا: لا تفلح !!"[1].

وقال المعلق: "ما أشبه اليوم بالأمس، فكثير من ذوي الحزبيات المعاصرة يفعلون أبلغ من هذا –عياذا بالله– وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا".

فأهل البدع والأهواء تتفق طرقهم وأحوالهم في التعامل مع الأتباع وإن اختلفت الأسماء والبدع.

بل من التعصب المقيت أن رموز الحركة هم أعلم الناس وأوسعهم أفقا وأقدر على التعامل مع الواقع وأن غيرهم لا يعلم من العلم إلا ما يردده من قوالب لفظية، وهذا التعصب أفرز لنا نشازا من الملتزمين المتعصبين، المتناجين بدينهم وعلمهم الذي يرون أنه ليس لدى غيرهم في زواياهم المظلمة، ونجاواهم الشيطانية.

وقد بين الله تعالى أن النجوى من الشيطان. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ (المجادلة: 10).

وقد خص من النجوى ما فيه خير للأمة وهو قليل، قال تعالى:﴿ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (النساء: 114).

يقول سيد قطب –رحمه الله–: "لقد تكرر في القرآن النهي عن النجوى، وهي أن تجتمع طائفة بعيدا عن الجماعة المسلمة، وعن القيادة المسلمة لتثبيت أمر ... وكان اتجاه التربية الإسلامية واتجاه التنظيم الإسلامي .. والحكمة في هذه الخطة هو ألا تتكون "جيوب" في الجماعة المسلمة، ولا تنعزل مجموعات منها بتصوراتها

(1) المنتقى النفيس من تلبيس إبليس (443).

ومشكلاتها، أو بأفكارها واتجاهاتها، وألا تبيت مجموعة من الجماعة المسلمة أمرا بليل، وتواجه به الجماعةأمرا مقررا من قبل ... وهذا الأمر أحد المواضع التي ورد فيها هذا النهي من التناجي بمعزل عن الجماعة المسلمة وقيادتها .. ولقد كان المسجد هو ندوة الجماعة المسلمة"[1].

فإن خرجت النجوى عن ذلك فهي شر، لأن الله بين أن كثير من النجوى لا خير فيها، فكيف إذا كانت في الدين أنها دليل انحراف وشطط.

عن عمر بن عبد العزيز . يقول: "إذا رأيت قوما يتناجون في دينهم دون العامة فاعلم أنهم على تأسيس ضلالة"[2].

يقول بكر أبو زيد –رحمه الله-: "فيا طالب العلم ! بارك الله فيك وفي علمك، اطلب العلم وأدع إلى الله على طريقة السلف، ولا تكن خَرَّاجاً ولاَّجاً في الجماعات فتخرج من السعة إلى القوالب الضيقة، فالإسلام كله جادة ومنهج، والمسلمون جميعهم هم الجماعة، وإن يد الله مع الجماعة، فلا طائفة ولا حزبية في الإسلام"[3].

وهذه أحوال الجماعات وأشدهم في ذلك الجماعات المنغلقة، وهو حال معظم الجماعات وإن تفاوتت في ذلك وبحسب فهم السرية التي جعلوها قاعدة التدين عندهم وهذا والله تأسيس الضلالة كما قال عمر بن عبد العزيز –رحمه الله-: "إن الدعوة السرية لم تقصر على مواجهة أعداء الدعوة ولم تتوقف عند عتبة الدعوة الإسلامية، وإنما تسللت تحت اسم المصلحة إلى أجوائها، فأصبحت ممرا لتقديم الولاءات، وإبعاد الكفاءات عن مواطن الحل والعقد، وكان أول ضحايا الدعوة إلى السرية مقومات العمل الإسلامي، وليس أعداؤه، ويجب أن لا يغرب عن بالنا ما ألحقت الدعوة السرية، والباطنية بالإسلام من كيد وما لحق فكرها من

(1) ظلال القرآن 2/ 758.

(2) الدارمي 1/ 91.

(3) حلية طالب العلم (61) رقم 65.

انحراف وعقيدتها من زيغ، لأنها مشت في الأنفاق المظلمة، ولم يكن هناك سبيل للتصويب والحوار، ورصد نتائجه باسم الحفاظ على الكيان والسرية والأمن[1]، ومصلحة الدعوة ومرحليتها تستدعي ذلك وهي قد قطعت عدة عقود، والسرية والمنهج الباطني يتوغل في أوصالها من حيث السرية والمصطلحات الحركية.

بل قد تتعامل مع بعض أفراد الجماعات المنغلقة سنين وهو يسايرك ويتدرع بك وأنت لا تعرف أنه ينتمي لجماعة، بل إذا جاء ذكر الجماعات والتحزب أظهر لك أن كل ذلك باطل وهو غارق فيه إلى أذنيه.

وأذكر أن أحد المدرسين السوريين كان يدرس في الطائف وكان رجلا صالحا، سجن له أولاد في أحداث حماة وكان كبيرا في سنه، وأراد السرورية إبعاده من الطائف وإحلال أحدهم مكانه، لأنه من حزبهم فنقل هذا الرجل الصالح الصوام القوام الحافظ للقرآن إلى منطقة بعيدة جدا، ليس بها من وسائل التحضر شيء وكان هذا الرجل الصالح لديه زوجته وبناته، وقد قابلته بعد نقله بفترة إذا هو يشكي صعوبة المنطقة التي نقل إليها ونائيتها وانعدام وسائل الراحة تماما، وأنه يسكن أطراف إحدى القرى بين الوحوش ولماذا هذا ؟ لأنه ليس من حزبهم وأُتي برجل من جنسيته وأُحل مكانه مع أن الاثنين عند المقارنة حسب علمي والعلم عند الله –تعالى– أتقى لله ظاهرا وأزهد. فقاتل الله العصبية كيف ضاعت في سبيلها الحقوق وانتكهت الإنسانية .

وينتج عن هذا التعصب إهدار طاقات الأمة ومصادرة أعمال الجماعات الأخرى، بل مصادرة لكل الأمة من أجل الحزب، وهذه في حقيقتها كارثة وضرب للأمة في مقتل، لأن فيه تنصيب لجماعة يمثلها شخص يتبنى أطروحات وقضايا وجهات تلك الجماعة، أو الحزب دون غيرها.

(1) نظرات في مسيرة العمل الإسلامي (38-39) والدعوة إلى الله (70).

وهذا في الواقع إجهاض للمشروع الإسلامي وبناء الحكم الإسلامي وفيه إتباع غير هدي النبوة، لأنه لا يجوز أن ينصب شخص للأمة يتحزب لجماعته ويتعصب لأرائها ويوالي ويعادي من أجلها.

يقول ابن تيمية –رحمه الله-: "وليس لأحد أن ينصب للأمة شخصا يدعو إلى طريقة، ويوالي ويعادي عليها، غير النبي ﷺ، ولا ينصب لهم كلاما يوالي عليه ويعادي غير كلام الله ورسوله، وما اجتمعت عليه الأمة، بل هذا من فعل أهل البدع الذي ينصبون لهم شخصا، أو كلاما يفرقون به الأمة، يوالون به على ذلك الكلام، أو تلك النسبة ويعادون"[1].

ويقول بكر أبو زيد: "لا يجوز أن ينصب شخص للأمة يدعي إلى طريقته، ويوالي ويعادي عليها، سوى نبينا ورسولنا محمد ﷺ فمن نصب سواه على ذلك فهو ضال مبتدع"[2].

وعند النظر إلى الواقع وتطبيقات ذلك نجد أن إجهاض المشروع الإسلامي في مصر كان من أسباب ذلك الرئيسة هو أن الإخوان أرادوا الاستفراد بالأمر حتى أصبح غيرهم يطلق عليه حكم الإخوان، وهذا ما أفشل المشروع الإسلامي، وليس معنى ذلك أن إسقاط حكم الإخوان كان بسبب الاتجاه الحزبي فقط، أو أن الأمر مؤامرة، بل الأمران مع بعض فالتحزب، وجعل المشروع مشروعا إخوانيا سهل للمتآمرين تمرير تآمرهم إذ محاولة كل جماعة الهيمنة المطلقة من منطلق التعصب وإقصاء الآخرين هو عامل أساس في فشل إقامة المشروع الإسلامي إن لم يكن المدمر الوحيد وهذا دافعة التعصب.

يقول الدقي: "محاولة كل جماعة الاستفراد بقيادة المشروع الإسلامي والدفع باتجاه الإنجازات الكبرى دون استصحاب الآخرين، أو الشعور بالحاجة إليهم

(1) الفتاوى 20/ 164.

(2) حكم الانتماء (120).

والإصرار –بلسان الحال إذا لم يكن بلسان المقال– على أن النصر لابد وأن يتنزل على الجماعة لاستحقاقها النصر أصلا، ولا يتخيل أحد من المنافسين أن يتقدم عليه آخر من الجماعات الأخرى وهذا يبطن خطر كبير آخر هو سعي الإسلاميين لتأسيس دولة تابعة لهم بالضرورة منها دولة سلفية وهناك دولة إخوان مسلمين، وهناك دولة سرورية، وهكذا وقد كان لهذه الخلفية دور حقيقي في فشل التجارب الإسلامية المعاصرة في أفغانستان والصومال والجزائر ومصر[1].

وما سقوط الأندلس إلا شاهد ظاهر عندما كانت دويلات الطوائف هي المتحكمة وكل دولة تستجدي أعداء الإسلام للاستقواء على غيرها والتاريخ فيه عبر لمن اعتبر.

4-32: الشخصية المتشنجة

عندما ننظر إلى آثار التربية على الولاء والبراء، والحب والبغض، والعصبية بمفهوم وطريقة الجماعات والأحزاب، فلاشك أن لها الأثر الكبير على الأفراد وصياغة وبناء شخصياتهم وعقولهم ومفاهيمهم، وتصوراتهم للحياة، والدين، والمسلمين، والكافرين وكل أحوال الحياة على نحو يكون من مخرجات تلك التربية الحزبية، وهذا ما نشاهده في أفراد الجماعات وإن كانت هذه الآثار تختلف من حزب إلى حزب، فالمنغلقون في تربيتهم، الموغلون في شحن الأتباع بالعصبية والولاء المطلق للجماعة والحب لأفرادها والبغض لبقية الأحزاب، وعدم فتح قنوات التواصل ومعرفة جوانب الخلاف والاتفاق، والانطلاق من نقاط الاتفاق وردم هوة الخلاف، والبناء بناءاً موحدا لنكون معتصمين بحبل الله المتين. تتعامل هذه الأحزاب مع بعض من نقاط الخلاف وتهويل الخلاف وتفخيم ذلك حتى لا يكون هناك إفادة من الطرف الآخر، وألا تخسر الجماعة بعض الأتباع فلابد من بناء الجدر الوهمية التي يعيش بينها الأتباع فكراً وولاءً وحباً وتلقياً، مما يوهم هؤلاء الأتباع أن الاتصال بالآخرين ناقض من نواقض الإسلام وهدم دعامة من

(1) ملامح المشروع الإسلامي (251، 252).

دعامات الدين ومعول هدم لطريق إقامة خلافة الإسلام، وكل ذلك مخالف لفهم السلف لهذا الدين.

إن فهم السلف –رحمه الله– لهذا الدين عند الخلاف فهم تعال وترفع عن التشنج، والمحافظة على الوئام والحب وأخوة الدين .

يقول يونس الصدفي: "ما رأيت أعقل من الشافعي، ناظرته يوماً في مسألة، ثم افترقنا ولقيني، فأخذ بيدي، ثم قال: يا أبا موسى لا يستقيم أن نكون إخواناً وإن لم نتفق في مسألة"[1].

وهذا الفهم من هؤلاء العلماء خلاف فهم الجماعات لحقيقة الخلاف وأدبه وحقوق الأخوة.

يقول محمد العبده: "ولذلك تجدهم حين يلتقون مع أناس من خارج الجماعة يلتقون بنوع من التشنج والحذر لا يلتقون مع الآخرين بنوع من الراحة وسعة الصدر"[2].

فيعيش المنتمي للجماعة بشخصية متشنجة في تعاملها وتصوراتها وهذا ما أفرز لنا من ينقم على المجتمع وعلماء الأمة وعمد إلى الانتقام تعبيرا عما ينقمه على المجتمع وعلماء الأمة، إما بإصدار الأحكام المتشنجة، أو الأفعال اللامسئولة، والساحة طافحة بذلك .

إن الجماعات قد أوغلت في هذا البناء وبناء الجدر الوهمية في أذهان الشباب الذين أصبحوا ضحية لهذه التربية المتأزمة مع ذاتها ومع غيرها وكل ذلك كان سلبيا على الأمة، وعندما يفيق أحد أفراد هذه الجماعات ويراجع نفسه يجد أنه كان ضحية لتربية خاطئة ساد منعطفاتها الجنوح وعم أحوالها عدم الوضوح.

(1) سير أعلام النبلاء 10/ 16.

(2) نوافذ فكرية (الجماعات الإسلامية انفصلت عن جسد الأمة).

إن التناحر والتراشق بأسوأ العبارات وقذف كل جماعة لغيرها أنها خطر على الإسلام وتصف كل منها الأخرى بما تتصف به هي بالحزبية، والسطحية، وتفتيت الأمة، وتشطير المجتمع وتحقيق مخططات الأعداء، وزرع الفتن بين المسلمين إلى غير ذلك من أنواع التهم وكل يحمل ذلك تحت ردائه أن التشنج، والصفيح الساخن الذي تُعيش الجماعات أفرادها عليه، أوجد لنا جماعات مكهربة من يقرب منها يصقعه ماسها الكهربائي، ولقد وجدت احتكاكات وصلت في بعض الأحيان إلى التراشق اللفظي والتلاحم اليدوي في كل مكان يجتمع السلفيون مع الأخوان حتى في المعتقلات، ويبدو هذا العامل عسيرا في تجاوزه نحو تحقيق التقارب المنشود"[1].

وهذا يُغذاه المنتمي من أول خطوة يخطوها في الدعوة "فقد حرصت أغلب الجماعات على تلقين القادمين الجدد إليها فنون الخصام والجدل، وإظهار نقائض وعيوب الآخرين من أول يوم لهم فيها، فتنغلق الآفاق على هؤلاء الملتحقين فلا يسعهم إلا أن يتحركوا وفق ما تم تلقينهم، فمتى تحصل المؤاخاة بين المسلمين إذا كان هذا حالهم"[2].

يقول سعد الحصين: "بل لقد وصل الأمر بالمسلمين نتيجة لتعدد الجماعات والأحزاب والفرق والطوائف إلى أن تعدى بعضهم على بعض بالتهم والشائعات الكاذبة، والسباب حتى قتل رفقاء الجهاد والدعوة بعضهم بعضا"[3].

(1) الأمة في مواجهة مشاريع التفتيت (207، 208).

(2) ملامح المشروع الإسلامي، حسين الدقي (120).

(3) حقيقة الدعوة إلى الله (72).

ويقول القرضاوي: "وهذا ما نراه في نابتة من الناس في هذا العصر، لا أظن لهم سلفا فيمن مضى من علماء الإسلام، إلا ما كان من عنف ابن حزم وطول لسانه الذي شهره بسيف الحجاج، وهو ما عابه عليه كل منصف بعده ومع هذا فاقه هؤلاء"[1].

إن هذه الشخصيات المتأزمة أفرزت لنا في المجتمع مجموعتين على طرفي نقيض مجموعة حقدت على كل شيء . المجتمع، والدول، والجماعات . فكفرت، وفجرت، وهذه المجموعة ردة فعل للشحذ المتواصل لأفراد الجماعة بتصورات سلبية عن الجماعات والمجتمع مما نتج عن ذلك هذه الروح التي قد تصورت أنه لا حياة إلا بتغيير المجتمع اسما ورسما، إن قاعدة: الداعية مهمته في الحياة مهمة تغييرية انقلابية، قد أرست هذا التصور، ونشأ عنها هذه الأزمات الفكرية، والحركية، والاجتماعية، والسياسية، وما نسمعه من تكفير وتفجير على غير حق إلا من نتاج هذه التربية المتأزمة المتشنجة مما جعل هذه السمات الشخصية سمات ذات طابع عدواني انتقامي، يجتهد في النوازل بما يمليه عليه تصوره وطبيعة شخصيته المكهربة، وارتجاليات المواقف في الأحداث دون النظر إلى عواقب ذلك ومدى المصلحة والمفسدة، وشرعيته من عدم الشرعية .

وهذا كله من آثار تلك التربية للجماعات وبالذات المنغلقة ذات الطابع المعتمد على الرمزية والسرية والخلايا العنقودية والنظام الهرمي، الذي تشم فيه رائحة التكتيك من النظام للحركات الباطنية في سريتها وعدم ظهور رموزها ظهورا واضحا، بل لا يعرف المنتمي لبعض الجماعات أفراد تلك الجماعة في حيه ومدينته لما تعتمده هذه الجماعة من سرية مقيتة، وسوف نتناول ذلك في جانب السرية.

(1) الصحوة الإسلامية (210).

ثم إن هذه الشخصية المتأزمة سريعة في اتخاذ القرار متهورة في تنفيذه، وعندما ننظر إلى المناطق الساخنة من العالم نجد هذا هو السائد في حياة ما أفرزته لنا تلك الجماعات من شخصيات متأزمة.

إن الطرف الآخر وهو الذي عاملته تلك الجماعات إما بالتهميش، أو الإقصاء، أو الإسقاط وقدم خلال سيره مع الجماعة مصالح ذاتية، أو راعى منافع شخصية، أو استغلته الحركة استغلالاً سيئاً، أو أدارته الحركة إدارة فاسدة، وكل ذلك يوجد في أعمال البشر، ولكن هذا مما أخرج لنا شخصيات متطرفة، أوجدت لها قاعدة اجتماعية لها صفات الحركة والجماعة، بل يصح لنا أن نطلق عليها جماعة كذا وكذا وقد اتخذت هذه الجماعة خط التعلق المطلق بالأفراد والتقوي بالحكومات، بل إنها أصبحت أداة طيعة في يد تلك الحكومات، بل إنها تقوم بخدمات استثنائية من تقديم التقارير وتشويه رموز تلك الجماعات، وأصبحت الغيبة والنميمة ديدنها .

إن هذا الاتجاه لم يكن ظهوره إلى الساحة من فراغ، بل لقد تضافرت عدد من العوامل منها الجماعات وأسلوبها الإقصائي الانتقامي وشخصيات أتباعها المتأزمة المتشنجة، والتعصب وإسقاط الآخرين مما أوغر صدور هؤلاء القوم، ثم لوجود عوامل خارجية استغلت مثل هذه النتوءات وتلك الدمامل والخراجات في هذه الجماعات، ثم أقنعت من حولها بأفكارها ورموزها حتى أصبحت الرموز جزءا من التقرب إلى الله، فإذا ذهبت إلى الحج والعمرة ولم تر فلانا فإنك ... إلخ . قل لي بربك أليس هذا من أخطاء الجماعات ؟ والتي تعاملت مع أفراد المجتمع بشيء من الفوقية والتمايز والاصطفاء وبخس الناس حقوقهم في الدعوة إلى الله.

ولقد عاتب الله رسوله ﷺ عندما انشغل بالأغنياء عن الفقراء فأنزل الله قوله –تعالى–: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ

ٱلذِّكۡرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ﴾ (عبس: 1-10).

إذا أساءت تلك الجماعات في تعاملها مع أفراد المجتمع اللامنتمي لهم أوجد شيئاً من ردات الفعل يتولى وزرها تلك الأحزاب والطوائف، فإذا وجد في مدرسة يديرها أحد أفراد تلك الجماعات مارس على من حوله حق الوصاية والشمولية الفكرية وتحديد المسار، وإذا حاول ذلك المدرس الاستقلال، أو ممارسة صلاحياته قوبل بكل عداء، بل يصل الأمر إلى أن الأمور العامة وممارسة الأنشطة والحفلات والاجتماعات داخل تلك المدرسة يكون هو آخر من يعلم بها في المجتمع لا في المدرسة وذلك لإقصائه، بل إن هذه المدرسة يحسُّ الذي ليس له انتماء أنها تديرها أصابع من خارج المدرسة، إن هذه التصرفات ليست خاصة بالمدارس العامة، بل ذلك عام لكل المؤسسات التعليمية العليا من جامعات وكليات، بل إنه قد يكون الأقل من ذلك، عندما يكون هناك نشاط لحي من الأحياء فإنه يدار ذلك الحي بعيدا عن أنظار المستقلين وإن أشرك فيه بعض العامة، فإنما هو من باب ذر الرماد في العيون، أو من باب التدرع بأولئك الأشخاص لمكانة اجتماعية، أو مالية، أو لإظهار النشاط بأنه نشاط لكل أهل الحي، وكذلك الجمعيات الخيرية، وأذكر أنه كان يشغل بعض الجمعيات رجل خير فقرب إليه بعض هؤلاء المنغلقين ظنا منه أنهم على ظاهرهم، ثم تآمروا عليه بعد أن تمكنوا، بل أذاقوه أشد الإهانة مع أنه رجل خير جدا، وآخر كان مسئول فرع وزارة الشئون الإسلامية للدعوة، وفرح بوجود عناصر ذات هيئات متدينة ووثق فيهم ولكنهم لم يكونوا أرحم به من صاحب الجمعية السابقة.

قل لي بربك هل هذا عمل للإسلام أو للجماعة ؟ على كل منتمي أن يفكر بعقله المستقل لا بعقل الجماعة والمقام في ذلك يطول، بل لا يترددون عن سرقة الأفكار ويجيرونها لهم وإلغاء الآخر تماما .

أذكر أن أحد الدعاة المتحمسين أراد إقامة دورة تأهيلية علمية يستقطب لها بعض هيئة كبار العلماء وأعد البرنامج وأخذ يرتب له جداول وخطة سيره العملية التعليمية وانتهى منه، ثم أراد أن يستشير بعض من وثق فيهم فطلبوا منه صورة من البرنامج ولم يمض إلا وقت يسير، وإذا بالبرنامج يقام باسم إحدى الكليات دون علمه . أي دين هذا وأي جماعة هذه إنه القفز على الحواجز ومصادرة الآخر وسلب الآخر حقه ومصادرة عقليات المجتمع ووضعها تحت الوصاية، بل تحت الطحن وذرها في مياه البحار والمحيطات وقارات الدنيا حتى لا يعلم لها مكان.

32-5: السرية

إن السرية تعد من الأمور التي تتخذ منها الجماعات طوق نجاة حتى لا ينكشف أمرها وإن تفاوتت الجماعات في أعمال السرية فهي درجات بين موغلة منغلقة ومنفتحة في جوانب وجوانب أخرى تتعامل فيها من خلال سرية ترى أنها تحفظ لها وضعها الدعوي، إلا أن الإيغال ماضي الحركات الباطنية على مر العصور وكيف نشأت وكيف كان جانب السرية أساس تحركاتها والغموض هو حياتها، ولهذا فإنه قد يتعامل الفرد مع هذا النوع من التنظيمات فترة طويلة مهما كان استقامته وحصافته وغيرته على الإسلام إلا أنه لا يستطيع أن يكشف جوانب ذلك التنظيم، أو يؤكد على انتماء أفراده له، وقد يكون للقيادة لهذه التنظيمات أثر في الانغلاق، أو درجاته.

يقول الشيخ طارق عبد الحليم: "فإن السرورية إن صح أن هناك مذهب متكامل يمكن أن يطلق عليه هذا الوصف، هي صنيعة هذا الرجل منذ الستينات والرجل محمد سرور إخواني أصلا وتصورا، وعقيدة ومنهجا، ثم إنه بطبيعته يحب الخفاء والتدسس لسابقته كضابط استخباراتي في سوريا، وقد قضيت معه ما يقرب

ثلاث سنوات لم أعرف على وجه اليقين أن لهم تنظيما إلا بعد عرض الرجل عليه بيعتهم"[1].

بل إني أعرف من بقي عقودا مع هذه الجماعة ولم يستطع أن يعرف كثيرا من جوانبها، فهي جماعة منغلقة أغلقت تنظيمها وعقول أتباعها كما سيأتي معنا، وهذا أمر ليس له وجه شرعي أن تكون في جماعة لها طابع ماسوني أرضي، إن الجماعة السائرة إلى الله تستمد منهجها من الكتاب والسنة وتظهر جوانب الإتباع فيها مع وجوب أن يكون الاتباع في كل شيء، أما أن تعيش مع جماعة لها طلاسم ورمزية تسخر كل من حولها وكثير من أتباعها لخدمتها وهم يعيشون على أنهم يخدمون جماعة المسلمين، ولاشك أن أجرهم عند الله والله أعلم بنياتهم .

وأذكر أحد قادة هذه الجماعة الكبار جدا تجاذبت معه حديثا عن هذه الجماعة، وكيف تسير وهو ممن يعرف حقيقتها فقال لي: "إن عمل هذه الجماعة كشاحنة كبيرة جدا ولها سائق ومعه مرافق في كابينة القيادة وبقية الأتباع في صندوق تلك الشاحنة وهما يختصمان في مقر القيادة، والشاحنة تضرب بهؤلاء الأتباع يمنة ويسرة وهم لا يعلمون ما يصير في محل قيادة هذه الشاحنة من التشاحن والتطاحن وحب الاستيلاء على تسيير الأمور في الجماعة، هذه هي السرية المطلقة والانغلاق القاتل للجماعة.

إن السرية لهذه الجماعات وما يعالج في زواياها المظلمة، ووراء جدرانها التنظيمية لا يتعلق بقضايا الجماعة فقط، بل يناقش فيه قضايا الأمة من منظور هذه الجماعات، وتحاول أن تعالج قضايا الأمة وتحل مشكلاتها بمفردها بعيدا عن أهل الشأن من العلماء والولاة وأهل الحل والعقد والاختصاص.

(1) موقع الشيخ طارق عبد الحليم.

يقول حسن الدقي: "إن الأداء المنغلق لكل جماعة قد جعل تلك الجماعات تنفرد بمعالجة أخطر شئون الأمة دون استصحاب الآخرين سواء كانت تلك القرارات في المجال السياسي، أو الجهادي، أو الدعوي .. إن الأداء المنغلق للمدارس المعاصرة قد جعل الأعداء يتخذون قرارات ضربها دون أن يوحد الضرب فيما بينها"[1].

فالانغلاق في هذا الاتجاه الدعوي قد ألقى بظلاله على مسار الدعوة كاملا، مما كان له أثر سلبي كبير على إثراء الساحة الإسلامية بالطاقات والكفاءات الإسلامية مما أدى إلى إفقارها وإحباط ذوي النزعة العلمية، والكفاءة المعرفية فكانت مشتتة، ومبعثرة لطاقات الأمة.

"إن الدعوة السرية لم تقتصر على مواجهة أعداء الدعوة، ولم تتوقف عند عتبة الدعوة الإسلامية، وإنما تسللت تحت المصلحة إلى أجوائها، فأصبحت ممرا لتقديم الولاءات، وإبعاد الكفاءات عن موطن الحل والعقد، وكأن أول ضحايا الدعوة السرية مقومات العمل الإسلامي وليس أعداءه ويجب أن لا يغرب عن بالنا ما ألحقت الدعوات السرية والباطنية بالإسلام من كيد وما لحق فكرها من انحراف، وعقيدتها من زيغ، لأنها مشت في الأنفاق المظلمة، ولم يكن هناك سبيل للتصويب والحوار، ورصد نتائجه باسم الحفاظ على الكيان، والسرية، والأمن"[2].

علما أن بعض الجماعات المنغلقة تزداد سريتها مع مرور الأيام، والسرية في صدر الدعوة لم تكن إلا في وقت ضيق جدا على خلاف فيه، بينما الجماعة المنغلقة طال أمد السرية فيها، وأصبح هو الأصل ولا فرع له، وهذا مفسدة للعمل الدعوي ولعقول الأتباع، يقول محمد العبده وهو من أقطاب هذه الجماعة قبل الترك: "العمل السري إذا طالت مدته يفسد الأفراد بحيث تصبح شخصيتهم غير

(1) ملامح المشروع الإسلامي (121).

(2) عن الدعوة إلى الله (69، 70) .

سوية وغير مكتملة"[1]، وقد طُلِبنا بالعلانية، لأنها طريق المحجة البيضاء ونُهِينا عن السر .

عن عبد الله بن عمر –رضي الله عنهما-: "قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله: أوصني . قال: اعبد الله ولا تشرك به شيئا، وأقم الصلاة .... وعليك بالعلانية، وإياك والسر"[2].

وعن عمر بن عبد العزيز قال: "إذا رأيت قوما يتناجون في دينهم بشيء دون العامة فاعلم أنهم على تأسيس ضلالة"[3].

والنجوى المحمودة فقط ما كان منه صدقة، أو معروف، أو إصلاح بين الناس، قال الله تعالى: ﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ (النساء: 114، 115).

والحقيقة أن النجوى لا خير فيها وأنها تدل على أن الدعوة السرية شرعت في أول الإسلام كما ذكر ذلك أهل السير وقد مكثت ثلاث سنوات، كما ذكروا وإن كان هذا التحديد الزمني لا يثبت بسند صحيح[4]. وقد حددها البلاذري بأربع سنوات.

---

(1) الإسلام اليوم.

(2) رواه ابن أبي عاصم في السنة 2/ 558 رقم 1070، والطحاوي، شرح شكل الآثار 7/ 83 رقم 2658، وقال الألباني: إسناده جيد السنة لابن أبي عاصم .

(3) الدارمي 1/ 78 رقم 313.

(4) سيرة ابن هشام 1/ 262 بدون إسناد، والواقدي وعن طريقه ابن سعد 1/ 199، والواقدي متروك وشيخه مجهول.

والأصل في إرسال الرسول ﷺ ليكون نذيرا بما أوحي إليه، قال الله تعالى: ﴿ الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ (الأعراف 1، 2).

إلا أن النذارة نذارة خاصة كما في قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُعَذَّبِينَ ۝٢١٣ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾ (الشعراء: 213، 214).

عن ابن عباس –رضي الله عنهما– قال: لما نزلت "وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ"، صعد النبي ﷺ على الصفا فجعل ينادي، يا بني فهر، يا بني عدي –لبطون قريش– حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع ان يخرج أرسل رسولا لينظر ما هو، فجاء أبو لهب، وقريش . فقال: أرأيتكم لو أخبرتك أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟ قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقا، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، فقال أبو لهب: تبا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا ؟ فنزلت ﴿ تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴾[1].

والإنذار هنا عام فيمن آمن من قومه، ومن لم يؤمن، فالمراد بالأقربين أي رهطك الأدنين.

عن أبي هريرة قال: قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾، قال يا معشر قريش –أو كلمة نحوها– اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئا .. الحديث"[2].

وهذه النذارة كانت في أول سيرته ولاشك أن في هذه المرحلة كما يفهم من إيراد أهل السير أن الرسول ﷺ قد آثر الاستسرار بالدعوة والاستخفاء بالتبليغ في مطلع سير الرسالة بعض الوقت، ليعد لها أرضا صلبة تقف عليها في الوسط

(1) البخاري 2/ 501 رقم 4770 .

(2) البخاري 2/ 501 رقم 4771 .

الجاهلي الكافر، إلا أن هذه المرحلة سرعان ما انتهت وجاء الأمر بالجهر فكان الجهر بالنذارة الخاصة، ثم تبع ذلك النذارة العامة.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ (المدثر: 1، 2).

وقوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ (الفرقان: 1).

ولاشك أن سورة المدثر من أوائل السور نزولا.

فالدعوة لم تستحكم عليها السرية فترة طويلة، بل إنها كانت مرحلة قصيرة جدا في عمر دعوته ﷺ وهذا يعد من مقتضيات المرحلة أن يكون هناك سرية حتى يبنى للدعوة قاعدة، ولا يكون ذلك إلا في الوسط الجاهلي ولفترة محدودة، أما أن تتحول حياة الدعوة وعمرها كله سرية في وسط يختلف عن الوسط الذي أقام الرسول ﷺ فيه السرية فهذا يعد من المفارقات العجيبة، ومما لا يستساغ عقلا ولا شرعا أن استسر بالدعوة في وسط من أتفق أنا وإياه، بل إن همومنا واحدة وتطلعاتنا واحدة، ومسجدنا واحد، وقبلتنا واحدة . إذا ما هي الجوانب التي يجوز لي أن أستسر بها عمن كان حالي وحاله واحداً إن هذا أمر يستدعي الغرابة والتأمل ويثير كثيرا من التساؤلات.

تلجأ بعض الجماعات الإسلامية إلى السرية في أول مراحل عملها اقتداء بالنبي ﷺ الذي عاشت الدعوة في أول أمرها في زمانه سنوات من السرية في مكة يراها بعضهم ثلاثاً .. وتتبلور فكرة دار الأرقم بن أبي الأرقم في شكل نظرية جامعة منضبطة .. وترى هذه الجماعات أن البداية السرية لأي مشروع إسلامي أمراً يتطلب الواقع فقط، بل واتباع خطوات النبي ﷺ في الدعوة أيضاً.

وهذا الطرح خاطئ رغم النية الحسنة التي قد تكتنفه، ويأتي خطؤه الفادح من كونه يلغي أربعة عشر قرناً من الانتشار للدعوة فيما بعد مرحلتها السرية الأولى .. والدعوة الإسلامية هي دعوة أمة كاملة، لا دعوة جماعة ..... وهنا يجب مصارحة هذه الجماعات بالحقيقة، وهي أن الحديث عن الدعوة بدل الفكرة أمر فيه خلط كبير وتجن مشين، إن عمليات الشطب المتواصل في الأمة، والتي تعاد فيها

الأمور في كل مرة إلى الصفر وإلى دار الأرقم كانت سبباً بارزاً في جزء كبير من الأزمة التي تعانيها الأمة[1].

ولا يمنع أن يكون هناك بعض الجوانب التي قد تأخذ جانب الكتمان ليس على مستوى الأمة ولكن على مستوى ضيق جدا لخدمة عمل معين لفترة محدودة جدا أما أن يكون عمر الدعوة كلها، أو بعبارة أوضح عمر الجماعة سريا فهذا لا يقبل، فإنها عقود مستمرة من السرية، وهي لا تزال مبهمة ومنغلقة عن المجتمع المسلم، إن هذا يذكرنا بانغلاق الطوائف المبتدعة والتي مر عليها قرون ولازالت كثير من قضاياها سرية .

إن دين الله ظاهر والدعوة إليه جهرية وقد يستدل على ذلك بعدة أدلة منها المرحلة السرية على نظر للمحدثين في ذلك ولكن هذه المرحلة انتهت ولا تعود إلا إذا كان حال الدعوة مماثلا تماما لهذه الحالة، وكان الإسرار وسط مجتمع كافر تسوده الجاهلية ويعم فيه عدم فهم ما تدعو إليه، وتأخذهم العزة بالإثم لحربه، أما في الوسط المسلم فإن هذه المرحلة قد ذهبت وولت والعودة إليها تجهيل للمجتمع وحكم عليه بالعداوة لهذا الدين.

أما قصة العقبة وإسرار الرسول ﷺ فيها، فإن ذلك الموقف يحتاج إلى الإسرار، لأن الوسط كان كافرا كما كان حالة المرحلة السرية تماماً، ومن تأمل قصة العقبة الأولى والثانية علم ذلك.

أما قول نوح –عليه السلام-: ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾ (نوح، 7-9)، فهذا في دعوته لقومه الكفار ولم يكونوا آمنوا به .

(1) محاكمة الجماعات الإسلامية على ضوء السيرة النبوية 42، 43، 44.

وأما حديث "استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان فإن كل ذي نعمة محسود"[1] والحديث قد أعله كثير من العلماء ولم يذكر أنه جيد إلا الألباني[2] –رحمه الله– وعلى فرض صحة ما ذهب إليه الألباني، فإن المراد من الحديث أمور الدنيا لا أمور الدعوة، حيث ورد أن كل ذي نعمة محسود وهذا متعلق بكتم النعمة وعدم التحدث بها خشية الحاسد، وهو من باب قول يعقوب –عليه السلام– لأبنائه ﴿ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴾ (يوسف: 67).

أما استدلالهم كذلك بكتمان مؤمن آل فرعون إيمانه، لأنه يعيش في وسط كافر، واستدلالهم بفعل إبراهيم –عليه السلام– في كتمانه تحطيم الأصنام، فإن هذا ليس فيه أي وجه على الاستدلال على جواز السرية بالدعوة بين من يهمه أمرها.

أما ما رواه حذيفة بن اليمان – رضي الله عنه– . قال: كنا مع رسول الله ﷺ فقال: احصوا لي كم يلفظ الإسلام . قال فقلنا: يا رسول الله أتخاف علينا ونحن بين الستمائة إلى السبعمائة . قال: إنكم لا تدرون لعلكم أن تبتلوا . قال: فا ابتلينا حتى جعل الرجل منا لا يصلي إلا سرا"[3].

ولفظ البخاري: "اكتبوا من تلفظ بالإسلام من الناس فكتبنا ألفا وخمسمائة رجل فقلنا تخاف ونحن ألف وخمسمائة؟ فلقد رأيتنا ابتلينا حتى إن الرجل ليصلي وحده وهو خائف"[4].

وقد بوب النووي فقال باب الاستسرار بالإيمان للخائف. وقد حمل ذلك على زمن الفتن .

---

(1) ابن عدي في الكامل 1/ 182، وأبو نعيم في الحلية 5/ 215 .

(2) سلسلة الأحاديث الصحيحة 3/ 436 رقم 1453.

(3) مسلم 1/ 131 رقم 235/ 149.

(4) البخاري 6/ 177 رقم 3060.

يقول ابن حجر: "خشية أن يكون أشار ذلك إلى ما وقع في أواخر خلافة عثمان من ولاية بعض أمراء الكوفة كالوليد بن عقبة حيث كان يؤخر الصلاة، أو لا يقيمها على وجهها، وكان بعض الورعين يصلي وحده سرا، ثم يصلي معه خشية من وقوع الفتنة، وقيل كان ذلك حين أتم عثمان الصلاة في السفر وكان بعضهم يقصر سرا وحده خشية الإنكار عليه"[1].

وهذا ليس فيه دليل على الإسرار بالدعوة إجمالا واقتصار ذلك الأمر على فئة من الناس فقط مع تساوي غيرهم معهم في أحقية الدعوة، هذا أمر ولكن الإسرار هنا ليس إسرارا لدعوة، بل إسرارا بأمر الجماعة وهذا خرج عما قد يؤول به كلام حذيفة رضي الله عنه . ثم ورد قوله ﷺ رأيت أحدنا ولم يقل رأيت جماعة منا، وإنما ذلك كان للآحاد دون الجماعات، ثم كان التعلق مخافة الفتنة كما ذكر النووي ليس الإسرار كما يحدث عند الجماعات للفتنة لما يؤدي إليه الإسرار من الالتباس والتشبه بالفرق المبتدعة ان تجاوزنا عدم بدعتها، أو القوى المتآمرة والتي تنخر في كيان الأمم التي يوجد فيها من يعمل سرا لأهداف ذاتية وهو ما يُحارب به الأحرار ومن يريد للأمة العلو والظهور.

يقول جون كنيدي الرئيس الخامس والثلاثون للولايات المتحدة الأمريكية: ما جاء الأمريكيون لهذه الكلمة "سيداتي سادتي: نحن شعب بطبيعته وبتاريخه نعارض السرية والأنظمة السرية وبرغم ذلك نتعرض إلى مؤامرة محكمة وقاسية من هذه المنظمات، وهذه المؤامرات تعتمد على طرق سرية لتوسيع دائرة نفوذها معتمدة على التسلل والتلاعب بالانتخابات واستخدام التخويف، هذه الأنظمة قامت بتجنيد موارد بشرية ومادية كبيرة لديها القدرة على عمل عمليات عسكرية ودبلوماسية واستخباراتية واقتصادية وعلمية وسياسية. أعمال هذه المنظمات سرية

(1) فتح الباري 6/ 178.

وإذا أخطأت فإنها سرعان ما تدفن، وإذا فر منهم أحد فإنه يتم تصفيته، قليل هم الذين يعلمون عن طرق التمويل وعن بقية الأسرار.

ثم قال في آخر كلمته "إنني أطلب عونكم في المهمة الكبرى وهي إعلام الشعب الأمريكي وتحذيره منهم، وبعد هذه الكلمة والتحذير وإظهار حقيقة الجماعات السرية اغتيل جون كندي، ثم قتل المتهم بقتله "هارمي أوزوالد" في نفس اليوم.

إن المتأمل لهذا الخطاب يجد أن هناك قواسم مشتركة بين تلك المنظمات ذات الطابع السري من حيث تجنيد الموارد البشرية والمادية والتربية على السرية وعدم معرفة كثير من قضايا تلك المنظمات، أو الجماعات، والخارج عن هذه المنظمات والجماعات التصفية الجسدية عند هذه المنظمات ومعنويا وحسيا عند الجماعات عن طريق إسقاطه ومحاصرته، وإنكاره، والفتنة أشد من القتل، وللمتأمل هل هذا من هدي المصطفى ﷺ وهدي أصحابه –رضوان الله عليهم– وهدي من سار على هديه وهدي أتباعه.

إن من الأمور التي تسترعي الانتباه كم حققت هذه الأساليب على مدار ما يقرب من نصف قرن وبعضها أكثر إلا الادعاء بأنها هي التي حافظت على الدين، والحقيقة أن الله هو الحافظ فالانبعاث لفهم قضايا الدين أكبر من الجماعات ولا أدل على ذلك من عدد الدعاة والعلماء المستقلين والذين كثيراً ما تتخذ منهم الجماعات واجهة تصطاد الأتباع عن طريق تلك الواجهة .

32-6: مصادرة العقول وشل التفكير

الله –تعالى– جعل للإنسان عقلا يفكر به ويجتهد به لتحديد مسالك الأمور ومعرفة أنجح الحلول، وأسلم الطرق، ولهذا كان يخاطب أولي الألباب بألبابهم لا يخاطبهم بعقول غيرهم، إلا أن الجماعات حجمت هذه الخاصية إن لم تقتلها وتلغها، أو تشلها عند كثير من أفرادها حتى يذعن لتوجه الجماعة فقتلت الإبداع، والاجتهاد، وتحديد مسار عقل الفرد وقدراته وميولاته وهذا من آفات الانتماء

للجماعات بمفهومها الحزبي والتقييد بمعلوماتها ومحاكمة جميع الأفراد من خلال نظرات الجماعة والحكم عليها بناء على تقارير المسئول والذي يبني ذلك على ولاء الأتباع له وكهنوتية الولاء، فإذا كان أحد الأتباع له آراء واقتراحات واجتهادات وإبداعات حكم عليه بالفوضى وعدم معرفة مصلحة المرحلة، وأهمية الانضباط، والإذعان إلى تلقي الأوامر وأنه بهذه الاجتهادات والآراء يؤدي إلى شق عصا الطاعة للجماعة وبذلك عليه أن يستسلم ولا يمارس ضده الإرهاب الفكري والضغط النفسي والإقصاء الجزئي حتى ينضبط ويعلن ولاءه بمصادرة أفكاره وقبول أفكار الجماعة، وإلا كان يغرد خارج السرب في نظر الجماعة، وما تجربة القرود المتقدمة ببعيدة في مفاهيمها ونتائجها عن تربية الجماعات لأفرادها.

يقول محمد أحمد الراشد: "إن الحجر على الأفكار لا يمكن، وإذا أمكن فلا يجوز، فإنه يقتل الهمم، وينتج عقليات مقلدة لا تجيد الاجتهاد والابتكار واستنباط الأحكام المناسبة لكل ظرف ومرحلة"[1].

وهذا الحجر على الأفكار ومنع تعدد مصادر تلقي العلم يسلك مع الأفراد من أول خطوة يخطوها مع الجماعة، فيربى على العزلة التربوية.

يقول محمد العبده: "ومن هذه التربية أن يحال بين الفرد في أول عهده بالدعوة وتلقي العلم، وبين الجلوس إلى العلماء، أو من عندهم علم وخبرة، فعندئذ يتخرج من تحت عباءته شباب متحزبون مشوهون ولا ينجو من هذا الداء إلا من تنبه له من البداية .. حتى لا يقع في هذا الداء الذي تطاير شرره وعم بلاؤه"[2]، إنها تجربة القرود تماماً.

إن دور الداعية التذكير لا إقامة الوصاية واعتقال العقول ومصادرة التفكير وأن يكون مسيطراً.

---

(1) المسار (151).

(2) خواطر الدعوة (125).

قال الله –تعالى–: ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ (ق: 45).

وقال تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ (الغاشية: 21، 22).

وقال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾ (يونس: 108).

إن صهر الأفكار، واعتقال العقول، وإذابة الشخصية المتحررة في التنظيم لا يمكن إلا بمصادرة مصدر التفكير وهو العقل وهذا ما تهدف إليه التنظيمات.

يقول محمد الراشد: "إن ذوبان اتجاهات التفكير الفردية وانصهارها تدريجيا وتلقائيا في التيار الجماعي العام يعتبر النتيجة الإيجابية المهمة الثانية لوجود التنظيم بعد دوره المسبق واستغلال الطاقات"[1].

ويقول بكر أبو زيد: "البدن الإسلامي مثخن بمحنة الأحزاب حيث لا يهضمها ولا يرضاها لبوسا فهو بها يعايش علة انتحار داخلي في الأمة، يشطب حرية الرأي فيها والإبداع، وتسريح النظرة الشمولية في الإسلام، ومن هنا تساقطت الكثرة من الفرق في الماضي، والمقتفون لأثرهم على الجادة سيضربون بأيديهم في الهواء، ولو بعد حين، لأن شطب هذه المقومات قضاء على قيامها"[2].

وهذا في الحقيقة منشؤه قلة العلم، وإن وجد علم فاتباع الهوى.

يقول عادل الكلباني: "إن الانغلاق الفكري والشعور بالاستئثار بالحق إنما ينشأ عن قلة العلم وينبثق منه احتقار الآخرين وسلبهم حقهم في مخالفة المستأثر فيما يسوغ فيه الاختلاف وسلبهم حقهم في التفكير والتعبير عن آرائهم حتى يظل

(1) المسار (152).

(2) حكم الانتماء (143).

الباحث المتطلع يفكر بعقولهم التي صدأت وينظر بعيونهم العمشاء التي لا تفرق بين البياض والسواد.

وليس هذا من آداب الإسلام، ولا من اخلاق السلف الذين يتشدقون بحبهم واتباعهم، فإن واقع السلف في تقبلهم للرأي المخالف بعيد جدا عن واقعنا ومخالف لحالنا، فقد ابتعد الكثيرون عن هذا المنهج وسلكوا مسلكا غريبا لا يتفق مع الروح المسامحة التي كان يتحلى بها أعيان الأمة عند الاختلاف وتعدد وجهات النظر"[1].

ويقول بكر أبو زيد: "الحزبية ترصد في أفئدة شباب الأمة الربط الشديد بين الفكر الحزبي والعمل الإسلامي: الدعوة إلى الله، أي لا عمل إلا بحزب"[2].

ويقول: خلفية الاعتقال الفكري بالحجر على العقلية الإسلامية والتفكير الإسلامي إذ العيش في قالب الأحزاب همه الدفاع عنها وتعميمها في النفوس، فاعتقلت بهذه الإنتاج الفكري في حدود الحزب، فلله كم في هذا صد وصدود عن العيش مع الشريعة في شمولها ورحابتها.

وهذا الاعتقال الفكري أفرز في مقابلة الإرهاب الفكري بمعرفة ما لدى الآخرين للاستفادة من التجارب وتصحيح المسار"[3].

وإذا كان للمنتمي أن يجتهد في أمر ويرى ذلك وهو يخالف رأي المسئول عنه، فإنه كما أسلفنا يعاقبه بوضعه ووصفه بعيب قد لا يكون فيه، أو فهم عنه خطأ، وفي هذا المنعطف تبدأ الجماعة بإظهار عيوبه والشماتة به، والسعي إلى العمل على إسقاطه، بينما لو بقي في الجماعة مذعنا لأفكارها تحولت سلبياته إلى إيجابيات، وكان المبدع القادر على إدارة الأمور على أحسن وجه، فماذا غير هذا الإنسان في شخصه إلا أنه استقل برأيه، وهو مسئول أمام الله عن رأيه لا عن رأي الجماعة وعن نفسه لا عن غيره، ولكن الجماعات كما أسلفنا لها قوالب معينة، تقولب

(1) جريدة الرياض عدد (15690) الخميس 7 رجب عام 1432، اللحى المستأجرة.

(2) حكم الانتماء (139).

(3) المصدر السابق (144، 145).

الفرد فيها فكريا وتصوريا، ولاءً وتعاملاً، وبذلك تخالف المنهج النبوي في تعامله مع الأفراد فبين ﷺ "أن من اجتهد فأصاب فله أجران ومن اجتهد فأخطأ فله أجر" وهذا فيه سعة للمسلم، ولكن عند الجماعات المجتهد المصيب من اتبع رأي لجماعة ومن خالفها فهو مخطئ ومأزور ليس له من الأجر شيء وعندئذ يبدأ العتب والتعنيف والعقاب لمن كان له رأي، أو اجتهاد سواء كان مصيبا، أو مخطئا .

وهذا المسلك فيه تحجير وتضيق ومصادرة لقدرات العقول على فهم الدين وعبادة الله من خلال خطابه لنا، وفهمنا لذلك الخطاب، لأنه إذا قال الله –تعالى– "ياأيها الذين آمنوا" كان السلف يتعاملون مع هذا الخطاب كأنه لم ينزل إلا للقارئ بمفرده دون غيره، ومن هنا كان الاتباع والعمل بمقتضى الدليل لا بمقتضى اجتهادات وأفكار الحزب، أو الجماعة، ولاشك أن اجتهادات العلماء الراسخين في العلم لها مكانتها في الاستفادة والفهم ولكن هؤلاء العلماء هم علماء الأمة لا رؤساء ومسئولو الجلسات عند الجماعات، بل علماء الأمة على مر العصور.

ثم إن المدارك والعقول تختلف باختلاف الأشخاص، ولهذا قال ﷺ: "رب حامل فقه إلى من هو أفقه منه"[1] والمقام في ذلك يطول.

أذكر أنني كنت مع بعض الأخوة المتدينين غير المنتمين وكنت أجد عندهم القلوب المخمومة بعكس قلوب المنتمين، وكان هناك منكر من المنكرات فعمدنا إلى إصلاح ذلك المنكر، لأن الحال لا يتحمل الاستئذان فرد أحدهم –كأنه هو مصدر التشريع– قال: أنت أتيت مستأذنا أو مخبرا ؟ وهذه هي المصادرة لكل طاقة المجتمع حتى إماطة الأذى من الطريق لابد فيها من الاستئذان وأنا في وقتها قد حصلت على البكالوريوس ولي ما يقارب عشر سنوات، أو تزيد في العمل، لست جاهلا/ أو إنساناً يجب عليه الوصاية، فالوصاية عند الجماعات أمر من

(1) أحمد 1/ 437، والترمذي 5/ 34 رقم 2658 وغيرهما وهو صحيح وقد رواه عدد من الصحابة –رضي الله عنهم–.

ضروريات التنظيم، ولا يعلم حقيقة هذه الأمور إلا من مر بهذه المراحل، وهؤلاء كثر، تمارس أفرادهم الوصاية الحزبية.

إذا مصادرة العقول والتفكير من سمات الأحزاب وعلامة من علاماتها، والويل كل الويل لمن خالف ذلك وخاصة عند الجماعات المنغلقة.

وعندما عبر الشيخ الدكتور سلمان العودة عما يراه من أفكار واجتهادات - وله ذلك- فهو ذو قامة علمية رائعة، وعقل ثاقب، وفكر ناضج، وأنا معجب به وإن اختلفت معه، لأن الخلاف لا يفسد للود قضية، بل هو طريق الصواب ومعرفة الحق يضرب الآراء بعضها ببعض، فالشيخ العودة عندما شق طريق الاجتهاد والتعبير بما يدين الله به، تحول إلى مرتد عن مفاهيم الجماعة وأصبح ينقض عرى الإسلام وأصبح في نظر الجماعة في مقام فرعون، وأبي لهب، وأخذ من تزبب قبل الحصرمة من أفراد الجماعة المنغلقة، يصدر أحكام الضلال والزيغ والمروق والخروج، والتمييع وهدم عرى الدين على الشيخ سلمان العودة، ولو سألته ماذا قرأت لهذا الرجل ؟ لقال لك: لا شيء لكن المشايخ –مشايخ الطريقة- يقولون فيه كذا وكذا . وفي الحقيقة أن ما يطرحه الشيخ سلمان طرح في عامته أفضل مما تطرحه هذه الجماعة، بل هو المناسب للمرحلة كما هو تمرحل الدعوة إلى مراحل.

إن الجماعات تحول الفرد إلى مبتدع وضال، وتبدأ نبذ أقواله عندما يخالفها، وتصطاد في الماء العكر، أو تقول ذلك الشخص ما لم يقل، أو ما لم يكن من ديدنه وهذا ما حصل مع أفراد كثر، والمراد من ذلك المحافظة على الأتباع من تحرير عقولهم وأن يتولد عندهم معرفة بأخطاء الجماعة ومن أجل ذلك عمدوا إلى الحجر على عقول هؤلاء الأتباع، ومنع القراءة لغيرهم وهذا يتجلى في مناهج الجلسات المغلقة والتي تأخذ قراءات حزبية ومفاهيم تأطيرية للجماعة فقط.

يقول الشيخ طارق عبد الحليم: "والرجل –أي محمد سرور- يعمل بطريقة مخابراتية تعتمد على التجسس، وتسجيل المكالمات حتى بين منهم في صفة، فقط

طلب مني في يوم من الأيام أن أجلس إليه لأتحدث عن الشيخ عبد المجيد الشاذلي – رحمه الله- وعما أشيع من أنه يقول بالتبين والتوقف، فكان أن جلست إليه ساعة أبين له أصل المسألة ومعناها وبراءة الشيخ منها، ثم لمحت في آخر لقائي به أن هناك جهاز تسجيل يعمل تحت الكرسي الذي كنت أجلس عليه، وأقسم بالله على صدق ما أقول، ومن هنا رماني الشيخ بعد خلافي معه بأنني من أهل التوقف والتبين[1].

إن من أسهل الأمور عند هذه الجماعات هو إلصاق التهم، وإسقاط مكانة المخالف وذلك عند الله عظيم، لأنه فيه من البهتان والظلم الشيء العظيم .

قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ (الأحزاب: 58).

ونتج عن مصادرة العقول ما تريده الجماعات من التسليم المطلق للجماعة والطاعة العمياء.

يقول صادق أمين: "وأوضح الأمثلة على ذلك هو الطاعة المطلقة للقيادة الفعلية التنظيم، والمتابع للمنهج العلمي في حركة الإخوان يجد أنه تكثر في أروقتهم ومنتدياتهم ترديد "التنظيم وسيلة ..." ولكن الواقع التنظيم لم يصبح غاية في ذاته فحسب، بل تحول إلى ما يشبه صنماً يعبد .. فالحلال ما أحل التنظيم والحرام ما حرم التنظيم وقد أشار فتحي يكن في كتابه "متغيرات دولية" وفي كتابه "نحو صحوة إسلامية" إلى هذه الصنمية الجديدة محذرا من استفحالها[2].

ونحن نعلم أن الصنمية الجديدة عند الجماعات الإسلامية هي التقيد المطلق بتوجيهات الجماعة وقداسة بيانات التنظيم أكثر من النص الشرعي، وهذه والله هي الصنمية، فإن بيانات الجماعة أحيانا يعمم في الجماعات المغلقة عن طريق

(1) موقع الشيخ طارق عبد الحليم، تجربتي مع السرورية.

(2) إلى يتجه الإخوان المسلمون في اليمن (15).

الجلسات بأن يقرأ وليس لأحد الاحتفاظ منه بصورة، وإنما يحضره مسؤول الجلسة لمرحلة المنتمين والملتزمين، وقد لا يثق في مسئول الجلسة، فيأتي أحد القيادات إلى تلك الجلسة فيقرؤه لهم، وقد لا يكون البيان له أهمية أكبر، فيؤخذ من كان في درجة ملتزم بحسب سلمه داخل هذه الدرجة، ويحضر زائر من القيادة العليا ويلقيه على شكل توجيهات، وعلى الجميع السمع والطاعة، بل هي إرشادات وتوجيهات من صنمية الجماعة.

وهذا الزيغ والصنمية المقنعة نتيجة للتسليم المطلق، والطاعة المطلقة والعمياء، وهذا في حقيقته من أصداء التنظيمات السرية على مر التاريخ، بل من فعل اليهود والنصارى الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله . قال الله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾(التوبة: 31)، كيف كانوا أربابا من دون الله ؟ لأنهم سلموا تسليماً مطلقا للمنتمين للجماعة دون سؤال، أو تفكير، أو تعقل، بل هي الطاعة المطلقة كما عند الصوفية والفرق الباطنية وهذه الطاعة بهذه الكيفية هي صنمية العصر.

في قصة عدي بن حاتم –رضي الله عنه– قال: أتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب . فقال: يا عدي اطرح عنك هذا الوثن، وسمعته يقرأ في سورة براءة "اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ" قال: إما أنهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئا استحلوه وإذا حرموا عليهم شيئا حرموه[1].

(1) الترمذي 5/ 278 رقم 3095، والطبراني 17/ 92 رقم 218، والبيهقي 10/ 116، وقال الألباني: حسن، صحيح سنن الترمذي 3/ 56 رقم 2471.

يقول الشيخ النجمي "يلزم من الحزبية اتخاذ أئمة يحتذي قولهم ويكون قولهم وتقعيدهم، وتنظيرهم مسلما، وإن خالف الحق، وتلك هي قاصمة الظهر"[1].

32-7: مصلحة الدعوة (دعوة المصلحة)

من القواعد المطردة في العمل الحزبي قاعدة مصلحة الدعوة والتي رُسِخَت تربويا حتى أصبحت من المسلمات لدى الأتباع بمفهوم الجماعات حتى صارت دعوة المصلحة، إن الجماعات الممثلة في رموزها، وقادة الجلسات والتوجيه التربوي يغالطون الأتباع بهذه القاعدة التبريرية، وتنفذ من خلالها لإحكام تسيير أمور الدعوة من منطلقات الحزب، والتحكم في تفكير وآراء وتصورات الأتباع من خلال منظور الجماعة، إن المخالفات الشرعية التي ألبست لباس مصلحة الدعوة لتحقق دعوة المصلحة، وإن المصلحة العظمى كما تصورها من خلال أسلوب تربوي ذي فلسفة مصلحية، مقدمة على المصلحة الصغرى، وتصور أن هذه المصلحة الكبرى لا تتحقق إلا بذلك، وتتبع في ذلك لحن القول، وبهرجات التنظير، ولي أعناق النصوص، والاستدلالات العقلية الملتوية حتى يقنع الأتباع بفلسفة لحن القول، وقد استحلت عبر مصلحة الدعوة المحذورات، وضياع الحقوق، فانتهكت أعراض المسلمين، وتجسس عليهم، وتأولوا أكل أموال الصدقات وغيرها من الأموال، وصودرت كثيرا من الحقوق العامة والخاصة التي لا تخدم الجماعات، باسم مصلحة الدعوة، وكل ذلك باسم الدين ومن أجل الدين والدعوة إلى الله، وهذا يخالف مقاصد الشريعة ومبناها الذي أسس على جلب المصالح للعباد، ودفع المفاسد عنهم مع المحافظة على مقاصد الشرع.

(1) المورد (112).

يقول الغزالي –رحمه الله-: "أما المصلحة فهي عبارة في الأصل عن جلب منفعة، أو دفع مضرة ولسنا نعني بها ذلك، فإن جلب المنفعة، أو دفع المضرة مقاصد الخلق، وصلاح الخلق في تحصيل مقاصدهم، لكنا نعني بالمصلحة المحافظة على مقصود الشرع"[1].

ويقول ابن تيمية –رحمه الله-: "والقول الجامع: أن الشريعة لا تهمل مصلحة قط، بل الله –تعالى- قد أكمل لنا الدين وأتم النعمة" [2].

وقال الشاطبي –رحمه الله-: "المعلوم من الشريعة أنها شرعت لمصالح العباد فالتكليف كله إما لدرء مفسدة، وإما لجلب مصلحة، أو لهما معا"[3].

ويقول ابن قيم الجوزيه –رحمه الله-: "إن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها ورحمة كلها، ومصالح كلها، وحكمة كلها، فكل مسألة خرجت من العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث فليست من الشريعة، وإن أدخلن فيها بالأقاويل، فالشريعة عدل الله بين العباد ورحمته بين خلقه وظله في أرضه وحكمته الدالة عليه وعلى صدق رسوله ﷺ"[4].

هذه هي حقيقة المصلحة في الشريعة، لكن مفهومها تغير في واقع الجماعات حتى أصبحت مصلحة الدعوة رحى يطحن بها حقوق من كان غير منتميا، أو فوضويا في داخل الجماعة كما يحلو أن تسمي من كان عنده شيء من التفكير المطلق وأن لا يفكر بعقل غيره، أو يفكر له في كل الأمور.

(1) المستصفي 1/ 217.

(2) الفتاوى 11/ 344.

(3) الموافقات 1/ 199.

(4) إعلام الموقعين 2/ 111.

إن مصلحة الدعوة تستخدم للتلبيس على المسلمين، فيلبس الحق بالباطل، فيظهر أنه حق وهو ليس من الإسلام في شيء.

يقول ابن قيم الجوزيه: "إن الحق إذا لبس بالباطل يكون فاعله قد أظهر الباطل في صورة الحق، وتكلم بلفظ له معنيان، معنى صحيح، ومعنى باطل، فيتوهم السامع أنه أراد المعنى الصحيح مراده في الحقيقة هو المعنى الباطل"[1].

لقد استرسلت الجماعات في قضية مصلحة الدعوة حتى أصبحت صنماً يعبد ومطية كل مُربٍّ في منظومة الأحزاب، وأسهل مخرج من تبعات الأعمال، وما تراه من التنابز بالألقاب، واستحلال للأعراض، أو ضياع لحقوق العباد والبلاد، لم يكن إلا عندما استرسلت تلك الجماعات في مصلحة الدعوة، وحولتها إلى دعوة المصلحة فإنه قد علم بالتجارب والعادات أن المصالح الدينية والدنيوية لا تحصل مع الاسترسال في اتباع الهوى، والمشي مع الأغراض لما يلزم ذلك من التهارج، والتقاتل، والهلاك الذي هو مضاد لتلك المصالح[2].

إن كثيرا من مصلحة الدعوة عند الجماعات تُقوِّل على الله بغير علم، لأنها تخدم القيادات الدعوية وتحافظ على منطلقات الدعوة وكيانها كما يرونه، ونحن نعلم يقينا أنه ليس من مصلحة الدعوة استخدام وسائل إسقاط الآخرين بالكذب وتتبع عوراتهم وتبرير أخطاء الأتباع والمواقف ذات التزلف، أو المداهنة، أو الظهور بإن عنده أفضل مما عند غيره، وكل ذلك من باب إيثار مصلحة الجماعة والأفراد، أو إلحاق النكاية بعدو الدعوة -كما يتصورون- الذي يسقط الخلافة الإسلامية من أذهان تلك الجماعات، ولم يعلموا أن الأمة قاطبة هي أمة الخلافة لا جماعة التي تريد أن تكون ذات الوصاية العامة، بل حتى على الرجل وزوجته

(1) الصواعق المرسلة 3/ 926.

(2) الموافقات 2/ 170.

في أمـــورهم الخاصـــة. إنهـــا المـــصالح الـــضيقة ذات الطـــابع الحزبـــي وروح الانتقام والإقصاء.

فمن المعلوم الظاهر أن كل من آثر الدنيا من أهل العلم واستحبها فـلا بـد أن يقول على الله بغير الحق في فتـواه وحكمـه، في خـبره وإلزامـه، لأن أحكـام الـرب سبحانه كثيرا ما تأتي على خلاف أغراض الناس، ولاسيما أهـل الرياسـة، والـذين يتبعون الشبهات، فإنهم لا تتم لهم أغراضهم إلا بمخالفة الحق ودفعه كثيرا[1].

إن الجماعات ممثلة في رموزها تريد أن تكون لها الريادة والرياسـة دون غيرهـا لتحكم الوصاية وهذا ما يدفعها إلى انتقاص الآخرين، إنها روح الحزبية التي يتـنفس من خلالها هؤلاء الأتباع.

يقول سفيان الثوري: "ما أحب أحد الرياسة إلا أحب ذكر النـاس بالنقـائص، والعيوب ليتميز هو بالكمال، ويكره أن يذكر الناس عنده بخير"[2].

ويقول الفضيل بن عياض: "ما من أحد أحب الرياسة إلا حسد وبغـى، وتتبـع عيوب الناس وكره أن يذكر أحد بخير"[3].

إن مصلحة الـدعوة الـذي تنطلـق منـه الحزبيـة حـسب مفاهيمهـا ومـصالح الأحزاب قد أفرزت لنا نوعـا مـن الـصنمية تعبـد مـن غـير الله، فـإذا أرادوا تمريـر قضية، وتبرير أمر من المخالفات الشرعية اتجه القـوم إلى صـنمية مـصلحة الـدعوة، لقد كُرس هذا المفهوم في قاموس الحزبية، وأصبح مصطلحاً بغيضاً عند المخالف لمـا يترتب على هذا المفهوم من إهدار للحقوق، وإدخال ما لـيس لـه مـصلحة شـرعية لا للعباد، ولا للبلاد باسم مصلحة الدعوة .

(1) الفوائد (145).

(2) حرمة أهل العلم (359).

(3) المصدر السابق (359).

يقول سيد قطب –رحمه الله–: "إن كلمة مصلحة الدعوة، يجب أن ترتفع من قاموس أصحاب الدعوات، لأنها مزلة، ومدخل للشيطان يأتيهم منه حين يعز عليه أن يأتيهم من ناحية مصلحة الأشخاص، لقد تحول مصلحة الدعوة إلى صنم يتعبده أصحاب الدعوة، وينسون معه منهج الدعوة الأصيل ! ..إن على أصحاب الدعوة أن يستقيموا على نهجها ويتحروا هذا النهج دون التفات إلى ما يعقبه هذا التحرى من نتائج قد يلوح لهم أن فيها خطرا على الدعوة وأصحابها، فالخطر الوحيد الذي يجب أن يتقوه هو خطر الانحراف عن النهج، لسبب من الأسباب، سواء كان الانحراف كثيرا، أو قليلا، والله أعرف[1] منهم بالمصلحة وهم ليسوا بها مكلفين، إنما هم مكلفون بأمر واحد، ألا ينحرفوا عن النهج، ولا يحيدوا عن الطريق"[2].

إن الانحراف عن النهج تحت اسم مصلحة الدعوة أظهر في أوساط الجماعات البغي والتعدي على حقوق خلق الله، أن ذلك لمزلة عظيمة، ونكسة في طريق الدعوة شنيعة، ونزعة جاهلية في هذه الطريق وحمية حزبية.

يقول ابن تيمية –رحمه الله–: "إن الإنسان عليه أولا أن يكون أمره لله، وقصده طاعة الله فيما أمر به، وهو يحب صلاح المأمور، أو إقامة الحجة عليه، فإن فعل ذلك لطلب الرياسة لنفسه ولطائفته وتنقص غيره كان ذلك حمية لا يقبله الله، وكذلك إذا فعل ذلك لطلب السمعة والرياء كان عمله حابطا، ثم إذا رد عليه ذلك وأوذي، أو نسب إلى أنه مخطئ وغرضه فاسد طلبت نفسه الانتصار لنفسه، وأتاه الشيطان فكان مبدأ عمله لله، ثم صار له هوى يطلب به أن ينتصر على من آذاه وربما اعتدى على ذلك المؤذي.

(1) كان حرياً بسيد –رحمه الله– هنا أن يستخدم كلمة العلم بدلا من كلمة المعرفة فتكون (والله أعلم منهم بالمصلحة) لأن المعرفة يسبقها جهل بخلاف العلم، والله يوصف بالعلم لا بالمعرفة وعلمه أزلي، والله أعلم.

(2) ظلال القرآن 4/ 2435 .

وهكذا يصيب أصحاب المقالات المختلفة، إذ كان كل منهم يعتقد الحق معه وأنه على السنة، فإن أكثرهم قد صار لهم في ذلك هوى أن ينتصر جاههم، أو رياستهم، وما نسب إليهم لا يقصدون أن تكون كلمة الله هي العليا، وأن يكون الدين كله لله، بل يغضبون على من خالفهم، وإن كان مجتهدا معذورا لا يغضب الله عليه، ويرضون عمن وافقهم وإن كان جاهلا سيء القصد، ليس له علم ولا حسن قصد، فيفضي إلى أن يحمدوا من لم يحمده الله ورسوله، ويذمون من لم يذمه الله ورسوله، وتصير موالاتهم ومعاداتهم على أهواء أنفسهم لا على دين الله ورسوله"[1].

وهذا ما جعل ظاهرة البغض والتعدي وهضم حقوق الآخرين يحول الدعوة من دعوة لله إلى دعوة للجماعة، وجعل مصلحة الجماعة فوق كل اعتبار وتجيير هذه المصلحة باسم مصلحة الدعوة، وهي دعوة المصلحة فَحَوَّل القلوب والمشاعر والأحاسيس من مشاعر مرهفة للمسلمين، أو المخالفين إلى مشاعر عدوانية، فتحولت المحبة وروابط الأخوة، إلى عداوة وشخصيات ذات نفسيات متشنجة تبحث عن العثرات، وتؤول للأتباع، وتبرر المخالفات بمعيار مصلحة الدعوة .

وهذا هو البغي بعينه بغي الحزبية والرؤى الضيقة من خلال زاوية الحزب، أو الجماعة وجر الأتباع إلى أضيق الطرق، والبعد عن رحابة الإسلام وسعته لكل المسلمين، والذي بين أن من قال لا إله إلا الله دخل حينا من الدهر الجنة، أما الجماعات فإن ذلك أمر فيه نظر . إن هذا من اللعب بالدين، بل هو منهج السفلة من الناس عندما تتحول إلى تقديس الرموز باسم مصلحة الدعوة.

يقول مالك –رحمه الله-: "يا عبد الله لا تحملن الناس على ظهرك، وما كنت لاعبا به من شيء فلا تلعبن بدينك"[2].

(1) منهاج السنة 5/ 254، 255 .

(2) الحجة في بيان الحجة 1/ 207.

وقال ربيعة الرأي لمالك: يا مالك من السفلة . قال: قلت: من أكل بدينه، فقال لي: ومن أسفل السفلة: قال من أصلح دين غيره بفساد دينه"[1] وهذا يلبس على المساكين سبيل المتقين، ويدفع هذا التلبيس بالتعرف على سبل الضلال والغواية.

"فمن لم يعرف سبيل المجرمين، ولم تستبن له، أوشك أن يظن في بعض سبيلهم أنها سبيل المؤمنين"[2] وهذا ما يظن بالحزبية عند بعض الناس.

يقول محمد إسماعيل المقدم: "وقد بلغت الحزبية الجاهلية في بعض الجماعات المعاصرة أوجها، وأثمرت من مظاهر البغي ما تقف له الشعور، وإن تعجب فعجب زعمهم أن مصلحة الدعوة تبيح لهم مسالك البغي والافتراء، والتجني على الأبرياء جريا منهم على القاعدة الميكافيلية المشؤمة الغاية تبرر الوسيلة"[3].

إن مصلحة الدعوة بالمفهوم الحزبي له أبعاد ذات آثار بالغة الخطورة على الجماعات الإسلامية ومن يغذيها بهذا الشحن الطائفي تحت مسميات ذات دلالات حزبية وتصورات ضيقة للإسلام وحقيقة دعوته، ومصالح ظاهرية، أو آنية، أو فئوية إنها تفتت الأمة وتضعف كيانها، وتجعل الدين سهلاً أن يتجرأ عليه باسم مصلحة الدعوة، فتفقده قداسته ومكانته التشريعية .

نعم إن مصلحة الدعوة بمفهوم الجماعات باب من أبواب الشر ولج معه أصل المصالح، وتنفذ من خلاله الأقزام، ويتربع على عرش الدعوة النفعيون باسم مصلحة الدعوة، ويحدث لنا فرقة واختلافاً، ولا يزال في القوم أهل دين إلا أن انتكاس المفاهيم لبس عليهم الدين وكم من مريد للخير لا يبلغه.

(1) الآداب الشرعية لابن مصلح 1/ 329.

(2) الفوائد 1/ 109.

(3) حرمة أهل العلم (358).

يقول الشيخ عبد الكريم زيدان –رحمه الله-: "والاختلاف كما يضعف الأمة ويهلكها يضعف الجماعة المسلمة التي تنهض بواجب الدعوة إلى الله، ثم يهلكها، ولهذا كان شر ما تبتلى به الجماعة المسلمة وقوع الاختلاف المذموم فيما بينها بحيث يجعلها فرقا شتى، بحيث ترى كل فرقة أنها على حق وصواب، وان غيرها على خطأ وضلال، وتعتقد كل فرقة أنها هي التي تعمل لمصلحة الدعوة.

وهيهات أن تكون الفرقة والتشتت والاختلاف المذموم في مصلحة الدعوة، أو أن مصلحة الدعوة تأتي عن طريق التفرق، لكن الشيطان هو الذي يزين الفرقة والتفرق في أعين المتفرقين المختلفين، فيجعلهم يعتقدون أن اختلافهم وتفرقهم في مصلحة الدعوة"[1].

إن مصلحة الدعوة هي أسهل مطية يمتطيها أهل الأحزاب والجماعات، فقد أصبح في العرف الحزبي أن من حق المتابع أن يكذب ولا يعرض بالمعاريض، وذلك باسم مصلحة الدعوة، فقد أصبح التحايل لأكل أموال الناس بالباطل تحت اسم (مصلحة الدعوة) وذلك من خلال استجداء الناس للتبرع للمشاريع الخيرية وهذا أمر محمود لكن يؤكل كثير من هذا الأمر باسم مصلحة الدعوة .

وخير شاهد على ذلك الولوج إلى ذلك بمصرف (والعاملين عليها)، أو صرف شيء من مال المتبرع في غير مراده فيما يخدم الجماعة، أو الحزب تحت ذريعة مصلحة الدعوة، وقد يصرف للعاملين عليها مبالغ عالية كرواتب، ثم القيام بتزوير الفواتير لهذه المبالغ تحت مصلحة الدعوة.

إن مصلحة الدعوة تدفع رموز الحزبية وقادتها وأفرادها إلى استحلال الغيبة وأكل لحوم المسلمين، وهي له متبلة مبهرة جاهزة للشوي، أما إذا عُرض لأفراد جماعته، أو حزبه فلحوم العلماء مسمومة، إنها الاصطفائية باسم مصلحة الدعوة،

(1) السنن الإلهية (140، 141).

وإهدار حقوق الآخرين تحت هذا الصنم الذي أُهْدرت قيم ومبادئ باسمه، إنها جاهلية وصنمية مصلحة الدعوة.

ويجب علينا أن نعلم أن مصلحة الدعوة الحقة لا ترتبط برؤى الجماعة، أو الحزب، وإنما ترتبط بمنهج إسلامي متكامل في كل تصوراته وقواعد أحكامه، وإن هذه المصالح لابد أن ينظر فيها من خلال روح الشرع ومصالح العباد والبلاد، أما أن ينظر فيها من خلال الجماعة، أو الحزب، فإن ذلك مصادرة للمفهوم الحقيقي لها، لأنه قدم مصلحة فئة، أو مجموعة من الناس على مصلحة عامة يدخل فيها الحزبي وغير الحزبي، إن مصلحة الدعوة لابد أن تكون مصلحة ذات ثوابت وقواعد شرعية، وأن يراعى في هذه المصالح أولوياتها وشروطها، فإذا نص الشارع على حكم في واقعة ودل على المصلحة التي قصدها بهذا الحكم فإن كل واقعة غير واقعة النص تتحقق فيها العلة، يحكم فيها الشرع في واقعة النص وهذا حكم بالقياس كقوله –تعالى-: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (الحجرات: 10).

والإصلاح بين الناس مصلحة إسلامية وتفريقهم تحت أسماء الجماعات والأحزاب مفسدة شرعية، دل على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (آل عمران: 103).

فكانت الوحدة والاعتصام بحبل الله نعمة، والتحزب والتفرق نقمة وعذاباً وفشلاً، وعذاب ذلك يعرفه من وقع تحت ظلم مصلحة الدعوة، أو دعوة المصلحة من الأحزاب المنغلقة، التي لا تراعي في حقوق الآخرين إلا ولا ذمة وعند الله تجتمع الخصوم.

وتثبت مصلحة الدعوة بطريقتين معتبرتين :

الطريقة الأولى: باعتبار هذا النوع من المصالح بالنص والإجماع على علة الأوصاف المناسبة للحكم وما يعقلها إلا العالمون.

الطريقة الثانية: باعتبار ورود الحكم على وفق المناسب المعتبر، أي أن تقع على الوصف المناسب الذي اعتبره الشرع فتكون هناك ملاءمة بين الوصف والحكم، ولو لم يوجد نص، أو إجماع على علة الوصف لذلك[1].

إن المصلحة لا تبنى على الاجتهادات الشخصية الصرفة التي لا ينظر فيها إلى مقاصد الشريعة ويراعى فيها ما ذكر آنفا، وما سنذكره.

أفتى يحي بن يحي المالكي لبعض ملوك الأندلس لما جامع في نهار رمضان أن عليه صوم شهرين متتابعين، فلما أنكر عليه، حيث لم يأمره باعتاق رقبة من اتساع ماله، قال: لو أمرته بذلك سهل عليه واستحقر عتق رقبة في جنب قضاء شهوته، فكانت المصلحة في إيجاب الصوم لينزجر . وقد بنى هذه الفتوى على مصلحة رآها هو –رحمه الله– فكانت فتوى باطلة، لأن خصال الكفارة على الترتيب كما ذهب إليه الجمهور، أو التخيير كما ذهب إليه مالك.

يقول الشاطبي –رحمه الله–: "فهذا المعنى مناسب، لأن الكفارة مقصود الشرع منها الزجر، والمَلِك لا يزجره الإعتاق ويزجره الصيام" . وهذه الفتوى باطلة، لأن العلماء بين قائلين: قائل بالتخيير وقائل بالترتيب، فيقدم العتق على الصيام، فتقديم الصيام بالنسبة إلى المفتى لا قائل به[2].

(1) ضوابط المصلحة (221، 232) بتصرف يسير للبوطي.

(2) الاعتصام 2/ 113.

وقال الغزالي –رحمه الله-: "فهذا قول باطل، ومخالف لنص الكتاب بالمصلحة، وفتح هذا الباب يؤدي إلى تغيير جميع حدود الشرائع ونصوصها بسبب تغير الأحوال، ثم إذا كان هذا من صنع العلماء، لم تحصل الثقة للملوك بفتواهم وظنوا أن كل ما يفتون به فهو تحريف من جهتهم بالرأي"[1].

ونخلص من هذا أن مصلحة الدعوة لا تقررها الأحزاب والجماعات ولا العقل المطلق، بل من يقرر المصلحة هو الشرع عن طريق الفاهمين الراسخين علماء الأمة، الذين يستنبطونه وقواعد تحقيق المصالح للأمة، بحسب ما تقتضيه المصلحة وما تودي إليه من خدمة للدين، وحفظ لحقوق الآخرين لا كما هو في قاموس دعوة المصلحة، أو تدين المصلحة والتي قد تطاير شررها في أوساط كثير من أتباع الجماعات إلا من رحم الله .

إن مفهوم مصلحة الدعوة كما نلاحظ من تعاملنا، والذي يظهر الواقع التعاملي للجماعات أن مصلحة الدعوة هي لخدمة الجماعة، أو الحزب، فما قلب الحقائق وتزييفها باسم مصلحة الدعوة، إلا من مداخل الشيطان على الجماعات، فهي تتترس بمصلحة الدعوة وهي من الوسائل غير النبيلة التي لا يمكن أن تتصور من مسلم لأخيه المسلم .

يقول سيد قطب: "من الصعب علي أن أتصور كيف يمكن أن نصل إلى غاية نبيلة باستخدام وسيلة خسيسة ؟! إن الغاية النبيلة لا تحيا إلا في قلب نبيل، فكيف يمكن لذلك القلب أن يطبق استخدام وسيلة خسيسة، بل كيف يهتدي إلى استخدام هذه الوسيلة؟!

حين نخوض إلى الشط للمرور على بركة من الوحل لابد أن نصل إلى الشط ملوثين، إن أوحال الطريق ستترك آثارها على أقدامنا وعلى مواقع الأقدام كذلك

(1) المستصفى 1/ 285.

الحال حين تستخدم وسيلة خسيسة، إن الدنس سيعلق بأرواحنا وسيترك آثاره في هذه الأرواح وفي الغاية التي وصلنا إليها"[1].

32-8: تقزيم الأمة وتحجيم الإسلام

إن من مفاخر المسلمين في الحياة كثرة أفراد الأمة وهي مما يفخر به ﷺ يوم القيامة . عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: "تزوجوا الودود الولود إني مكاثر الأنبياء يوم القيامة"[2].

ولذلك نهى الرسول ﷺ عن زواج التي لا تلد.

عن معقل بن يسار أن رجلاً جاء رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله: إن أحببت امرأة ذات حسب وجمال ولكنها لا تلد أفأتزوجها ؟ فنهاه .... "[3].

فالأمة عندما نتعامل معها خارج فكر الجماعات والأحزاب فإنا نتعامل مع مليارات من البشر، ولكن عندما تتعامل من خلال أفكار الأحزاب فإننا نقزمها في بضعة آلاف ونصادر السواد الأعظم، بل الأمة كاملة، لأن أفراد الجماعات إذا قارنتها بأعداد الأمة الحقيقي فإنك لا تراها شيئاً، وعليه فإن الأحزاب تقزم الأمة في تعاملاتها فكل ما يجب لهذه الأمة من حقوق تحجم في الجماعة، دون مراعاة لذلك، ولهذا فإن النصح والتشاور والابتسامة، والولاء والبراء، والحب ليس إلا لأفراد الجماعة، وكأن هذه الجماعة هي أمة الإسلام كلها .

---

(1) أفراح الروح (26) رسالة سيد إلى أخته أمينة رحمهما الله جميعا، لقد دمعت عيناي مع هذا الكلام الرائع، أين الدعاة من هذه الروح والتعلق بالمصلحة الحقيقة لهذا الدين حتى لا تعلق أوحال دعوة المصلحة بأرواحنا وحياتنا وتدينا.

(2) أحمد 3/ 158، والطبراني في الأوسط رقم (5059)، وابن حبان 9/ 338 رقم 4028 . قال المحقق لمسند أحمد: صحيح لغيره 20/ 63 رقم 12613 .

(3) أبو داود 2/ 542 رقم 2050 والنسائي 6/ 65، وابن حبان 9/ 363 رقم 4056. قال الألباني: حسن صحيح: صحيح سنن أبي داود 2/ 386 رقم 1805.

وقل لي بربك متى شاورت صالحا من الصالحين في أمر من أمور الإسلام، فضلا عن أمر من امور الجماعة المحرم عليه عندهم مما تختص به مشاورة مسئولك في الجماعة ؟ بل إن الجماعة تنفرد بالدروس والتوجيهات والنصح لأفراد الجماعة فقط، فلو كان هناك جلسة علمية مغلقة وحضر أحد أفراد المجتمع هذه الجلسة، إنهم سيحولون الجلسة إلى زيارة عادية، ثم اسمع كم يضيع هذا المسكين والذين كانت زيارته أصلا لله لا للجماعة في إدخاله في الوهم حتى لا يكتشف تلك الجلسة، وأنا أقول إن ما يدار في هذه الجلسة من حق هذا على هؤلاء أن يستفيد من سماعه آية، أو شرح حديث إن وجد، أو معرفة جهود العاملين في الدعوة والحقل الإسلامي إن كانوا صادقين إن ذلك هو للإسلام لا للجماعة، ثم انظر للأخ الذي أقيمت عنده الجلسة كم سيأتيه من العتب والتأنيب كأنه ارتكب كبيرة من الكبائر، بل كأنه وقع في الخيانة العظمى .

إن العمل على توعية المجتمع على حد سواء من حق الأمة، أما الاكتفاء بمجموعة معينة من أفرادها يعدون على الأصابع، وقد يكون هؤلاء ليس لديهم من المؤهلات ما عند غيرهم، لكن الإذعان والانقياد والطاعة العمياء كانت ديدنهم في الحياة، إن تقزيم الأمة في هؤلاء ظلم عظيم وتهميش للأمة وتحجيم للإسلام.

ومصدر التلقي في التوجيهات والعمل للإسلام وقف في أتباع الجماعة فهي مصدر التلقي فقط إنها أي "الحزبية تحجيم للإسلام، فلا ينظر إليه إلا من خلالها فهو تجميع حول شخص، وقيادة معينة، في أطر مخصوصة"[1]، وعلماء الأمة، وحكماؤها، وعقلاؤها لا وجود لهم في قاموس التوجيهات، أو الإرشادات الحزبية، فقد يكون مصدر التلقي لا يملك من المؤهلات العلمية شيئاً، وإنما استطاع الوصول إلى مكانه في الجماعة بالانضباط وتنفيذ الأوامر وعلاقاته بالقيادات علاقة حميمة.

(1) حكم الانتماء (141).

إن تقزيم الأمة في جماعة معينة ترمي من خلاله الجماعات أنه لا يمكن أن يقود المرحلة ويحقق النصر إلا هذه الجماعة، وإهدار مليارات المسلمين وإمكاناتهم وقدراتهم وتحجيم تلك القدرات في بضع مئات.

يقول الشعبي: "نعم الشيء الغوغاء يسدون السيل ويطفئون الحريق، ويشغبون على ولاة السوء" هذا حال الغوغاء فكيف بحال الامة وفيها العقلاء، والنبلاء، والعلماء. فإن الخير في الأمة أعظم منه فالغوغاء.

32-9: التدرع بالآخرين

إن من أسوأ صفات التحزب والجماعات التدرع بالآخرين وأخذهم وقاية، على نحو ما اتصف به المنافقون في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ (النساء: 141).

إن الجماعات تتخذ من الواجهات الإسلامية والعلمية واجهة أمام الناس وتتدرع بهم ليقبل ما عندهم وبالذات الجماعات المنغلقة والتي لا تريد أن تظهر على الساحة قيادات علمية واضحة حتى لا ينفر منها الناس، وكان ذلك منذ النشأة، فقد ذهب بعض الجماعات المنغلقة إلى الشيخ مقبل الوادعي وحاول ابن سرور أن يجنده حتى يكون واجهة للجماعة وكذلك ما حصل مع الشيخ طارق عبد الحليم، بل محمد قطب جلست الحركة السرورية تتدرع به –رحمه الله– وقتا طويلا وتظهر لناس أن له علاقة بهم والحقيقة غير ذلك. فقد كان رحمه الله أكبر من أن يكون عضوا في جماعة، لكن كانت تتدرع به بعض الجماعات وغيرهم.

ومن هذه التدرعات كذلك فعل السرورية مع الشيخ عبد الرحمن عبد الخالق في الكويت، وكيف تتخذ منه واجهة فهو شباك صيد الجماعة في وسط المجتمع، أحيانا تتخذ من بعض أجنحة بعض الجماعات واجهة تتدرع بها كما هو الحال مع

سلفية الإسكندرية محمد أحمد إسماعيل المقدم ودائرته السلفية والسعودية تتخذ من بعض الدعاة والواجهات الاجتماعية واجهة كالشيخ البراك وغيره كثر، بل ومحاولة تسخير العلماء لأفكارهم وتجييرها لنهجهم.

لقد نجح هؤلاء –السرورية- في سحب كبار علماء الدين والمجموعات التقليدية إلى الصراع أيضا، استعملت السرورية للشباب طريقة بسيطة لجعل هؤلاء يخدمون أجندتهم، كانوا يوجهون أسئلة ذات جواب بديهي، أو محرج فيجيب الشيخ عنها ظنا بأنه يدافع عن حياض الدين، أو خشية أن يتهم بالمساومة والسكوت عن الحق، وكان الجواب يستعمل على نطاق واسع كدليل على تأييد الرجل لدعوة، أو برنامج محدد، وفي بعض الحالات كان رجال الدين يرغبون في التقرب من مجموعات الشباب هذه، ظنا أنها يمكن أن تتحول إلى تابع لهم، ولهذا لم يبخلوا بالآراء والتصريحات والبيانات التي تلبي رغبتهم وفي كثير من الحالات هذه الآراء والفتاوى تستعمل في دعاوى سياسية ضد الحكومة، أو ضد رجال دين منافسين[1].

ومن صور هذا التدرع أن بعض الجماعات تتبنى صدور بيان معين لمنكر من المنكرات وهذا في حد ذاته رائع، لكن الجماعة تسلك مسلك المكر والخداع وهذا ما لا يجوز، فتكتب البيان، ثم تحاول أن تقنع بعض الواجهات الدعوية المستقلة به، فتوقع تلك الواجهات وأسأل الله أن لا يحرمهم الأجر، وقد تجعل ضمن من وقع بعض أفراد الجماعة والمنسوبين إليها لكنهم خاملون حركيا لهم لقب علمي، وحضور اجتماعي، بحيث يكون انكشافه غير مضر بالجماعة ويستغل الأمر حتى يبقى المشروع مشروعا لتلك الجماعة وتهدف الجماعة منه لعدة أشياء من ذلك تغيير المنكر، وهذا محمود في ذاته، وتهدف للتجييش الجماهيري، فإذا كان هدفه التوعية فرائع وإن كان هدفه إظهار الجماعة بأنها تستطيع عمل شيء معين،

(1) تحولات الإسلام السياسي في السعودية ومستقبله، ندوة مستقبل الإسلام السياسي في الوطن العربي، بيروت 30 نوفمبر 2013.

وتتقوى بذلك أمام الجماعات الأخرى، وكذلك أمام الدولة ـ حتى يقال إنها تملك من القدرة والتأثير ما يؤخذ في الحسبان فهذا من المتاجرة بالدين.

يقول عبد الله التميمي: "ومن مكرهم أنهم حيث يرون شخصا برز في أي مجال فإنهم يحاولون احتواءه والاستفادة من مواهبه وتجييرها إلى مصالحهم ولا يدخلونه في خصوصياتهم البتة، ويحاولون توجيهه لخدمة منهجهم ويحاولون الإيحاء إلى الناس أنه معهم وهذا فعلوه معي شخصيا[1].

فالضرب من وراء الصف سمة من سمات الجماعات وخاصة المنغلقة، فإن كان هذا الإنكار آتى ثماره كانت هي المتبنية له وأظهرت قدرتها على التغيير، وإن كان في ذلك ضحايا كانوا من غير أفراد الجماعة، أو من أفرادها الخاملين حركيا، وبهذا تسلم الجماعة في أفرادها ويكون التضحية بالمخلصين المساكين الذين لا يريدون إلا الإصلاح فهل هذا من خلق المسلمين ؟ علما أن بعض الجماعات المنغلقة حاولت أن تظهر لها قيادات اجتماعية وقد ناقشت ذلك على مستوى الجماعة بكل فروعها، ورأت أنه لابد من ذلك ليقودوا من خلال هذه القيادات الدعاة والمصلحين الذين ليس لهم انتماء وتجيير جهود هؤلاء الإصلاحية للجماعة، فأنشأوا لقاءات الدعاة والتي تعقد بصفه دورية في كثير من مناطق المملكة، ويديرونها في الخفاء، ويظهرون للمجتمعين أنهم هم الذين يديرونها، ولهذا تجد أن هناك أناس ينظر أنهم من السرورية، وحقيقة الأمر أنه لا يعلم عن هذه الجماعة ولا يعرف حقيقتها وإن سمع عنها، لأن الناظر من الجماعات الأخرى تنظر إلى هذا الشخص، أو الداعية بهذه النظرة، لأنه يقوم للجماعة بتنفيذ كثير من خططها وما تريد من خلاله يكون ذلك الداعية يوما من الأيام ضحية لهذه الخطط، لأنه هو في الواجهة وهؤلاء يدعمونه من الوراء.

(1) تنبيه الخلان بخطر السرورية والأخوان للشيخ عبد الله التميمي.

يقول طارق عبد الحليم: "اتصل بي أحد المقربين من الشيخ محمد سرور، بل أقرب الناس إليه، وطلب مني أن أحضر إلى لندن لحاجتهم إلى تعاون في إنشاء مجلة البيان، وكان أن أجبت إذ كان الهدف هو الاستمرار في العمل الدعوي بدلا من العمل للدنيا، ومضت سنوات أعنت فيها على إنشاء مجلة البيان، وكتبت في أعدادها الأولى بشكل مستمر، وأعنت في صياغتها فنيا، كما أعنت في تقييم مبنى المنتدى الإسلامي من الناحية الإنشائية قبل شرائه، وأقمت فيه دروسا بعد إنشائه"[1].

بل لقد ظهر الشيخ الفاضل طارق عبد الحليم أنه من أفراد الجماعة حتى أصبح من ينظر إليه ينظر أنه من منظري الجماعة من خلال كتاباته في مجلة البيان وإصدار بعض الكتب المشتركة مع بعض السرورين ككتاب مقدمة في أسباب اختلاف المسلمين وتفرقهم.

وعندما كان منه الموقف الذي رفض فيه البيعة لمحمد سرور اتهم بما ليس فيه.

وهذا من إفرازات الحزبية أنها تتدرع بالغير، الذي به تسقط حق الإسلام وتقدم حق الجماعة.

ومن أخطر مزالق الجماعات أنها تجير الإسلام لخدمة الجماعة وليست الجماعة لخدمة الإسلام "تقدم أغلب الجماعات إذا لم تكن كلها صفة الانتماء لها على صفة الإسلام"[2]، وهذا يظهر واضحا جليا في الولاء والبراء من أجل الجماعة، والحب من أجل الجماعة، والحمية من أجل الجماعة، والبذل من أجل الجماعة، وعندما يصاب أحد من الجماعة بأمر تقوم الجماعة ولا تقعد وإذا أصيب غيرهم من المسلمين كأن الأمر لا يعني مسلما، وهذا والله قاصمة الظهر في حياة الأمة.

(1) موقع الشيخ.

(2) ملامح المشروع الإسلامي (252).

هل تجد التواد والتحاب والابتسامات العريضة والرحمة والعطف الذي يكون بين أفراد الجماعة يكون خارج تلك الجماعة ؟ الجواب: لا يكون، والواقع يشهد بذلك قد يقال إن هذا غير موجود لكن هذا النفي نظرياً لكن التطبيقات العملية عكس ذلك تماما .

32-10: التصنيف

تسعى الجماعات في ثوبها الحزبي إلى إقناع الآخرين بأنها حامية لحياض الإسلام، وأن غيرها مرتزق، أو دخيل على العمل الدعوي، أو صاحب مصالح، أو جاهل لا يعتد به في الحياة، فعمدوا إلى تصنيف المجتمع إلى تصنيفات تخدم عملية فقد الثقة في غير الجماعة بما يكرس في الذهن والعقل الولاء لهذه الجماعة والانطراح الكامل بين يديها وفي ذلك نفثة صوفية للاستيلاء على الأتباع.

ولم يكن التصنيف خاصاً بمن هو خارج الجماعة، بل ينال أفراد الجماعة لهم تصنيف خاص، وخاصة الجماعات المنغلقة ذات الطابع الباطني في تنظيمها وتسيير أمور دعوتها، وأما التصنيف للمجتمع فهو يخضع لتصورات ومآلات يخدمها هذا التصنيف، فالمجتمع ينقسم إلى عدة أقسام فالصنف المنتمي من حاز على قصب السبق في العلم والمعرفة والقدرة على إدارة الأمور، بل هو مصطفى لهذا الأمر، وعليه فإنه قد عرف الطريق فلا يلزم بما يلزم به غيره وهؤلاء المنتمون هم درجات وأصناف.

ونحن لن نذكر تصنيف ذلك لدى جميع الجماعات، لأنه مشهور معلوم، كما عند الإخوان، والتبليغ وغيرهم، ولكننا نتعرض له عند البعض وخاصة المنغلقة، فالتصنيف داخل الجماعة يكون المبتدئ وهذا يسعى إلى اغتيال عقله تماما بمنهجية ذات طابع تحجيري في القراءة ولمن يقرأ، أو الاتصال ومن يتصل به، والعمل على استغلال عاطفته وحب التدين، لأن أصل العمل عند الجماعات لا يكون مع العاصي وإنما مع المتدين بصبغة بفكر الجماعة، ولهذا إذا سجل طالب في الجامعة، أو كان في الثانوية متديناً فإنه يتصارع حوله الجماعات وأيهم يستطيع أن يضمه

إليه، قل لي بربك ألا يقع هذا المتدين في شراك التشويش، وأحيانا يترك التدين وهم كثر ؟

إن هذه الطبقة يوضع لها مناهج خاصة، وقراءات خاصة، وأنشطة خاصة، فإذا اعتقل عقل المبتدئ وفكره، وتصوره، وأصبح لا يرى إلا بمنظار الجماعة مع عدم علمه أنه في جماعة، انتقل إلى درجة أعلى وهي درجة المنتمي، وهذا يبدأ يطالب بالعمل والمشاركة في استقطاب الشباب فهو طعم في سنارة الصياد، ويكلف ببعض المهام وفي هذه المرحلة وهي أهم مرحلة تقيمية للمنتمي، وخاصة إذا كان قد سلم بالحكم والتصرفات الكهنوتية التي تمارسها الجماعات تحت مصلحة الدعوة والحكمة في تسيير أمورها وعدم القدرة على فهم كل شيء، وأن هناك أموراً يجب أن يسلم بها ولا يسأل ومن سأل يؤثر ذلك في مكانته الدعوية، فإذا قضى الشاب مرحلة الانتماء وتكون في الغالب أربع سنوات ولها عدة مستويات، ينتقل فيها الشاب بين أكثر من مسؤول أعلى منه درجة، وقد يكون أقل منه علما وذكاءا، ويقيم بعد كل فترة ويرفع ذلك –أي مسؤول الجلسة– إلى مسئول أعلى .

فإذا اجتاز هذا المنتمي اعتبارات معينة تنظر إليها الجماعة يرتفع إلى درجة الملتزم وهذه الدرجة تعد تميزا لهذا الملتزم، وهي كذلك مستويات، ويبدأ يدخل مرحلة المشاركة في اللجان، وتطبيق بعض القرارات الصادرة من القيادات من واقع الجلسات، ويكلف إذا كان من المنقادين والجماعة راضية عنه تمام الرضا، والرضا عادة يأتي بقدر ما يتملق لمسئوليه والمباشرين له، وفي هذه المرحلة فإن تعامله لا يتعدى أشخاصاً محدودين حتى تبقى العملية في نطاق السرية، وفي هذه المرحلة يضرب على الملتزم مبلغ مالي يقدر عادة 2.5%، وقد يطلب المشرف منه أكثر من ذلك وأذكر أنه أتاني أحد الملتزمين وقال: يطلب مني مبلغ وذكره شهريا وأن عليه ديناً قلت له: دينك أحق بالقضاء، فكان هذا الأمر ناقضا من نواقض الانتماء، ثم

يتدرج في القيادة فيكون قائدا أولا، ثم نائبا حتى يصل إلى مجالس اختيار القيادات الدعوية وقيادات المناطق، ويكون بين قيادات المناطق ما يسمى بضابط الاتصال.

أما غير المنتمي فهذا مصنف إما إسلامي، أو من العامة، أو غير إسلامي، والإسلامي يصنف إلى عدة تصنيفات أن يكون تبع جماعة من الجماعات، وهذا النوع من الصنف يعد العدو الأول، لأنه المنافس في الساحة وكما يقال عدوك صاحب صنعتك، لأنه يحترف الدعوة، ومن هنا تعمد كل جماعة إلى إلصاق كل نقيصة بذلك النوع من الناس، وأنهم فرقوا الأمة، وأنهم حزبيون، وأنهم يخدمون مصالح أعداء الإسلام، وأنهم العقبة الكؤود في طريق الدعوة، ثم يستخدم كل الوسائل الممكنة شرعية، أو غير شرعية لتحجيم تلك الجماعات المنافسة حتى ولو أدى ذلك إلى التحالف مع غير الاتجاهات الإسلامية والتي من المفروض أن تكون عدواً للجميع، لكن مصلحة الجماعة مغلبة على مصلحة الإسلام ومصلحة الأمة، إنها الحزبية، والتعصب الحزبي، والولاء والبراء، والحب والبغض الذي قد صرف للجماعة دون غيرها.

وهذا النوع من التعاملات بين هذه الجماعات أنكى أنواع التعامل، وأن وضع لجان تنسيقية واجتماعات دورية أحيانا من باب مصلحة الجماعات نفسها لا مصلحة الدعوة في عمومها.

وتعتمد هذه اللجان التنسيقية في التنسيق من باب التهدئة لا من باب نزع جوانب الخلاف وإرساء جوانب الاتفاق والسير بالأمة في سفينة واحدة تمخر عباب هذه الأمواج بدلا من السير لها في قوارب تتلاطم بها الأمواج فيغرق من فيها أحيانا وما مصر ومشهدها الأخير إلا مثال ذلك.

أما العامة فلا مكان لهم في قاموس الجماعات كجانب يراعى احتياجاته وأنهم قاعدة العمل الإسلامي، فهم يصنفون في قائمة ما تهمله الجماعة ولا تنظر إليه.

يقول محمد العبده: "نعم هناك نظرة دونية للعامة من قبل الجماعات الإسلامية، وإن هؤلاء العامة لا فائدة منهم"[1].

إن التصنيف بحسب الجماعات قسم المجتمع وأرهق الأتباع لهذه الجماعات، وأهدر طاقات الأمة وسبب البغض، والحقد، والحسد، والتنابز بالألقاب، وبيع الذمة من أجل التشفي والانتصار، بل يصل الأمر أحيانا إلى الوشاية عند الحكومات، والسعي إلى خلو الساحة من الجماعة الأخرى، حتى تبيض الجماعة بمفردها وتصفر "ألا خلاك الجو فبيضي وأصفري" إن من أكبر العون لأعداء الإسلام في إحكام قبضة أعداء الملة والدين على الأمة ومقدراتها وإذلال الشعوب المسلمة واستعبادها، هو فرقة الأمة تحت شعارات وأحزاب وجماعات وكل جماعة ترمي غيرها بما هو فيها أصلا، وتعمد إلى نظرية الإسقاط واستخدامها في حياة الجماعة، وهذا والله المهلكة للأمة وهو في حق الجماعة أشد منه في حق الأفراد.

عن أبي حازم: "العلماء كانوا فيما مضى من الزمان إذا لقي العالم من هو فوقه في العلم كان ذلك يوم غنيمة، وإذا لقي من هو مثله ذاكره، وإذا لقي من دونه لم يزد عليه، حتى كان هذا الزمان، فصار الرجل يعيب من هو فوقه ابتغاء أن ينقطع منه حتى يرى الناس أنه ليس به حاجة إليه، ولا يذاكر من هو مثله، ويزهي على من هو دونه فهلك الناس"[2].

فكيف لو رأى أبو حازم زمن الجماعات والحزبيات والبلايا في عصرنا، ودافع ذلك كله الحسد والبغضاء، والسعي إلى السيطرة على ميدان العمل الدعوي دون غيره، وتجيير المجتمع له، وهذه الحالقة كما قال ﷺ .

(1) الإسلام اليوم "الجماعات الإسلامية انفصلت عن جسد الأمة وأغرفتها في الحزبية".

(2) تصنيف الناس (36).

عن الزبير بن العوام – رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: "دب إليكم داء الأمم قبلكم، الحسد، والبغضاء، هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين، والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، ألا أنبئكم بما يثبت ذلك لكم: أفشوا السلام بينكم"[1].

والسلام القولي والعملي هو المراد هنا والله أعلم.

يُحدثُ من كان يوماً تبعا لبعض الجماعات وكان قياديا يقول كان يأتي وقت النوم فأعيش ساعات أصارع أفكار الدعوة كلها كيف أتعامل مع أفراد الجماعة المعادية، وأنا في قمة البغض لهم وكيف أستطيع إلحاق النكاية بهم والأذى، يقول: أخذت أراجع نفسي، فأفراد تلك الجماعة، إذا صليت في المسجد رأيتهم، وأرى بعض أتباعها إذا تكلم أظهر غيرته، فظهر لي أني أعيش في حياة الجماعة، بين أسوار من الوهم سبب لي النفرة والعداء وأني أختلف معهم، ثم قررت أن أتخذ موقفا محايدا وأبعد عن الجماعات وزغلها، فسبحان الله ذهب ما في صدري من الغل والحسد وأصبحت أحاكم الجميع إلى الدين، وأنا قرير العين .

إن العمل الجماعي إذا لم يكن عملا من باب التنوع وتوحيد الهدف وإزالة أسوار وجدر الوهم التي يعيشها الشباب والأتباع كما زرع في أذهانهم من أن الجماعات مختلفة مما أنشأ في عقولهم اختلاف التضاد –إما أنتم وإما نحن – وهذا جعل الشباب يعيشون صراع الحزبية، وألام الضغينة والحسد الملتهبة في أحشائهم على المسلمين، إنها والله لهي الحالقة، وأتحدى أن هناك إخوانياً يحب سرورياً، أو سروري يحب إخوانياً، ودواليك كل الجماعات، إن الشواهد على أرض الواقع تدل على ذلك، بل تصل القضية إلى حد الاغتيالات بين الجماعات وما جميل الرحمن، وعبد الله عزام، وما قتل في سوريا من قيادي الجماعات على يد الجماعات

(1) تقدم.

نفسها، وليس على يد النظام السوري، بل هؤلاء القيادات والذين كانوا تبعا لجماعات إسلامية إلا شاهد حي متكرر.

إن هذا التصنيف وما يحدث في نفوس الأتباع من غل ونار تستعر وحب الانتقام لأمر فيه من الخطورة، وسحق لمقدرات الأمة في تعطيل للعقول بهذه التصنيفات ما فيه.

فاتقوا الله في الأتباع، على الجميع أن يتعاونوا لنبذ التدابر، فإن الخلاف في كثير من منعطفاته خلاف وهمي، لكن التربية الجماعية والتصنيف جعل منه خلافاً حقيقياً في الأذهان، ترجم بعد ذلك إلى عداوة على أرض الدعوة وفي الحياة التعاملية.

إن منبع ذلك كله ما زرعته تلك الجماعات من تصنيف ولد الهوى عند الأتباع فكان هوى متبعاً يجب اجتنابه في مفارقة مصادره.

قال تعالى: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ﴾ (ص: **26**).

إن هذا التصنيف في الأمة أوجد نوازع الكراهية والفشل وأمراض القلوب وأذهب ريح الأمة.

يقول ابن عباس: "ولا تجالسوا أهل الأهواء، فإن مجالستهم ممرض للقلوب"[1].

وقد بين إبراهيم النخعي هذا المرض فقال: "لا تجالسوا أهل الأهواء فإن مجالستهم تذهب بنور الإيمان من القلوب، وتسلب محاسن الوجوه، وتورث البغضاء في قلوب المؤمنين"[2].

(1) الآجري في الشريعة 1/ 453.

(2) الإبانه لابن بطة رقم (375).

إن الجهاد عندما قام في أفغانستان كان جهادا جماعيا، ثم دخلت الجماعات لتستغل الموقف وتصنع لها في الجهاد موطئ قدم من أجل إظهار المشاركة لتلك الجماعة، دب في أوساط المجاهدين حال تلك الجماعات وذلك التصنيف حتى أصبحت سبع رايات سهامها في صدور بعض، مما أفشل الجهاد، وجعل تلك الجماعات تصبح في كثير منها ذات ولاءات متعددة فمنها من ولاؤه للجماعة ولبعض الدول الإقليمية، وكذلك لبعض الدول الخارجية، والتي دخلت على الساحة في أفغانستان، ثم قيض الله طالبان وكانت بعيدة عن الحزبية فوحدت البلاد، وبذلت جهدها في تطبيق الإسلام مع ما يشاع عنها أنها صنيعة الاستخبارات الباكستانية، ولكني أستبعد ذلك تماما، وإنما ذلك من أقوال تلك الجماعات والتي تربت على تصنيف المجتمع ومن التصنيف ما يراد به من إسقاط المصنف، وسحب البساط من تحته، ويبقى أن طالبان كانت أتقى لله من تلك الجماعات كلها، والله أعلم، والظاهر هو ما نتكلم عليه وحكمنا من خلالها، وهذا ما هو مطلوب منا شرعا، أما المقاصد فليس لنا بها علم ولسنا كالجماعات التي تكيل التهم للغير ومعظمها مبني على اتهام المقاصد وهذا لا يعلمه إلا الله .

إن تصنيف المجتمع من خارج الجماعات وهذا فيه من الظلم والتجني ما فيه فكم من صالح جعلوه في مقام كوهين، وكم صالح لبس لباس التبعية والعمالة، فهم العملاء والمنتمين هم النبلاء، واتخذ هذا التصنيف جانباً من العنف وبث الشائعات والتحذيرات ومحاولة حصر هذا المظلوم وجعله في زنزانة متجولة، مما حول الناس من حوله إلى أعداء والنظر إليه أنه عدو للإسلام، وأنه ممن ينقض عرى الدين.

أذكر أنه كان هناك رجل ممن له علاقة حسنة بكثير من كبار العلماء والمشايخ وكان يركز في دروسه على الأصول الثلاثة إلا أن إحدى الجماعات بثت أنه عميل وأنه يسعى إلى ضرب الدعوة وأنه يرفع تقارير دورية، لكن شواهد الحال تدل على صلاح الرجل، سبحان الله هؤلاء الذين يسبونه ويتهمونه كان صلاح أبنائهم فيه

دخن أما ذاك الرجل فكان أولاده من الصالحين، ومن خطباء المساجد وقادة الدعوة العامة بعكس أبناء هؤلاء المنتمين الذي يقذفون الناس بجحيم البهتان والزور دون علم إنما منشأه ذلك الظن، أو أن ذلك قال عنه فلان كذا كراهة، أو سوء ظن، أو اجتهاداً خاطئاً، ويبنى عليه الولاء والبراء وهدر عرض هؤلاء المساكين الصالحين.

وهذا أفرز لنا عداوات بين الجماعات والمجتمع مما دفع بعض أفراد المجتمع من إنشاء لوبي مضاد، أو جماعة مضادة ذات طابع عدواني يستخدم أفرادها كل ما في كنانته من سهام لمحاولة الرد على سوء تعامل تلك الجماعات، وقد اتخذ هذا اللوبي إن صحت هذه العبارة وسائل ضغط متعددة منها إشهار العداوة وإصدار الأحكام، وتعنيف المجتمع كما عند الجماعات تماما، ويلحق عند هذا اللوبي في تصنيفه بهذه الجماعات من ليس منهم، حسب ثقافته وميولاته العلمية، واتخذت هذه الجماعة والتي هي ردة فعل رموزا سماتهم الغيبة والنميمة في العلن، فيما الجماعات الأخرى كان ذلك منها في السر.

وتعمد هذه الجماعة للاستقواء بالحكومات، وأخذت الحكومات تتكئ عليها حتى إنها أصبحت تكتب لها التقارير وتتشفى من تلك الجماعات أحيانا بالكذب.

وقد وافق ذلك إرادة محلية، وإقليمية، ودولية لضرب الاتجاه الإسلامي السياسي كما يطلقون، فاستغلت هذه الجماعة، والأمر في ذلك يطول ولكن من أفرز لنا في الأصل هذه الجماعة هي تلك الجماعات والتي تصنف الناس وتعادي وتوالي من أجل الجماعة، مما أوجد قوالب مضادة وهذا من سوء عمل تلك الجماعات.

فقد أوجدت إما جامياً محترقاً، أو عميلاً يريد أن يأخذ حقه ويرد تلك الإساءة، إن الجماعات بتعاملاتها الفجة والاقصائية هي التي أوجدت ذلك والله لقد شاهدت ذلك ورأيته من الجماعات المنغلقة وناصحتهم فاتخذوني عدوا، ولو أضرب الأمثلة لذلك لطال المقام، بل إن هذه الجماعات تستعين كذلك بالجهات

الرسمية إذا أرادت أن تخلي الساحة من طاقة دعوية معينة وتستغل جهودها، أو تنفرد بالدعوة، وتسير الأمور حسب ما تراه الجماعة، لا ما تمليه المصلحة العامة، وإنما تمليه ما يسمونه صنمية مصلحة الدعوة، والتي تمارس بعيدا عن مصلحة الدعوة الحقيقية.

وهذا في حق من لا تستطيع الجماعة احتواءه أمام نوع من العلماء وأهل الحماس والعطاء ينظرون إلى العمل الإسلامي من منظار القدسية لهذا العمل، فيهم خير كثير فينتظرون إلى نقاط الالتقاء وليس للتعاون وإنما كثير منهم للاحتواء لمصلحة الدعوة حتى إنهم أصبحوا يصنفون أنهم سروريون، أو إخوان وهم يفرون من ذلك فرار السليم من المجذوم، فهؤلاء الصنف من الطيبين يعمد إلى تسخيرهم قنوات اتصال ذات طابع دعوي صرف، ويدعي لها ويجتمع معه ويجير من خلالها لأن يكون واجهة دعوية معينة فإذا كان له طموحات ذات وجاهة فإنهم يحاولون تحقيق ذلك ومن ذلك مثلا إذا كان يريد أن يكون له لقب علمي فإنه يكلف بعض الشباب في مساعدته، بل البحث له في رسائله العلمية حتى يحصل على لقب دكتور وهناك شخصيات في المجتمع حصلت على شهادة الدكتوراه وبحثه بُحِثَ له عن طريق أفراد تلك الجماعة، وأصبح الداعية الكبير والدكتور القدير، والله المستعان.

أما محاضن الاحتواء فهي كما قلنا عن طريق الالتقاء، فقد يُنشأ لقاء مثلا للدعاة وتناقش فيه بعض أمور الدعوة والمنكرات، ويكلف هؤلاء بالحضور وإبداء الرأي ومحاولة تحميس هؤلاء وهذا في حد ذاته يعتبر جيدا، لكنه يراد منه أولا تكوين عامل ضغط يرهب به الجماعات المخالفة وإظهار أننا نحن الذين نمسك بزمام الأمور الدعوية في البلد، ثم إنشاء أرضية دعوية تحتمي بها الجماعة من بطش الحكام ونظرة المجتمع، وتكثير سواد الأتباع في الظاهر، وهؤلاء الذين قد احتوتهم الجماعة وقود الاحتكاكات مع الجماعات الأخرى والدول، لأنهم إذا فقدتهم الجماعة، فإنه غير مأسوف عليهم وليس له المكانة التي تكون للمنتمي، بل كما

يقال: يكون هو المضحى به إذا كان هناك من ضحايا ولا يرقبون في ذلك إلا ولا ذمة.

يقول الشاطبي –رحمه الله-: "فتردد النظر بين –أن أتبع السنة على شرط مخالفة ما اعتاد الناس فلا بد من حصول نحو مما حصل لمخالفي العوائد، لاسيما إذا ادعى أهلها أن ما هم عليه هو السنة لا سواها إلا أن في ذلك العبء الثقيل ما فيه من الأجر الجزيل- وبين أن أتبعهم على شرط مخالفة السنة والسلف الصالح، فأدخل تحت ترجمة الضلال عائذا بالله من ذلك، إلا أني أوافق المعتاد، وأعد من المؤالفين، لا من المخالفين، فرأيت أن الهلاك في اتباع السنة هو النجاة، وأن الناس لن يغنوا عني من الله شيئا، فأخذت في ذلك على حكم التدريج في بعض الأمور، فقامت علي القيامة، وتواترت علي الملامة، وفوق إلي العتاب سهامه، ونسبت إلي البدعة والضلالة، وأنزلت منزلة أهل الغباوة والجهالة، وأني لما التمست لتلك المحدثات مخرجا لوجدت غير أن ضيق العطن، والبعد عن أهل الفطن، رقى بي مرتقى صعبا، وضيق علي مجالا رحبا، وهو كلام يشير بظاهره إلى أن اتباع المتشابهات لموافقة العادات أولى من اتباع الواضحات، وإن خالفت السلف الأول.

وربما ألموا في تقبيح ما وجهت إليه وجهتي بما تشمئز منه القلوب، أو خرجوا بالنسبة إلى بعض الفرق الخارجة عن السنة شهادة ستكتب ويسألون عنها يوم القيامة.

فتارة نسبت إلى القول بأن الدعاء لا ينفع ولا فائدة فيه، كما يعزى إلى بعض الناس، بسبب أني لم ألتزم الدعاء بهيئة الاجتماع في أدبار الصلاة حال الإمامة، وسيأتي ما في ذلك من المخالفة للسنة وللسلف الصالح والعلماء.

وتارة نسبت إلي الرفض وبغض الصحابة –رضي الله عنهم- بسبب أني لم ألتزم ذكر الخلفاء الراشدين منهم في الخطبة على الخصوص، إذ لم يكن ذلك من شأن السلف في خطبهم ولا ذكره أحد من العلماء المعتبرين في أجزاء الخطب.

وقد سئل "أصبغ" عن دعاء الخطيب للخلفاء المتقدمين . فقال: هو بدعة ولا ينبغي العمل به، وأحسنه أن يدعو للمسلمين عامة . قيل له: فدعاؤه للغزاة والمرابطين؟ قال: ما أرى به بأسا عند الحاجة إليه، وأما أن يكون شيئا يصمد له في خطبته دائما فإني أكره ذلك.

ونص أيضا عز الدين بن عبد السلام: على أن الدعاء للخلفاء في الخطبة بدعة غير محبوبة.

وتارة أضفت إلي القول بجواز القيام على الأئمة وما أضافوه إلا من عدم ذكري لهم في الخطبة، وذكرهم فيها محدث لم يكن عليه من تقدم.

وتارة أحمل على التزام الحرج والتنطع في الدين، وإنما حملهم على ذلك أني التزمت في التكليف والفتيا الحمل على مشهور المذهب الملتزم لا أتعداه، وهم يتعدونه ويفتون بما يسهل على السائل ويوافق هواه، وإن كان شاذا في المذهب الملتزم، أو في غيره، وأئمة أهل العلم على خلاف ذلك وللمسألة بسط في كتاب "الموافقات".

وتارة نسبت إلي معاداة أولياء الله، وسبب ذلك أني عاديت بعض الفقراء المبتدعين المخالفين للسنة، المنتصبين –بزعمهم– لهداية الخلق، وتكلمت للجمهور على جملة من أحوال هؤلاء الذين نسبوا إلى الصوفية ولم يتشبهوا بهم.

وتارة نسبت إلى مخالفة السنة والجماعة، بناء منهم على أن الجماعة التي أمر باتباعها –وهي الناجية– ما عليه العموم، ولم يعلموا أن الجماعة ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه والتابعون لهم بإحسان . وسيأتي بيان ذلك بحول الله، وكذبوا علي في جميع ذلك، أو وهموا والحمد لله على كل حال.

فكنت على حالة تشبه حالة الإمام الشهير عبد الرحمن بن بطة الحافظ مع أهل زمانه، إذ حكى عن نفسه فقال: "عجبت من حالي في سفري وحضري مع الأقربين مني، والأبعدين، والعارفين، والمنكرين، فإني وجدت بمكة وخراسان وغيرهما من الأماكن أكثر ما لقيت بها موافقا، أو مخالفا، دعاني إلى متابعته على ما

يقوله، وتصديق قوله والشهادة له، فإن كنت صدقته فيما يقول وأوجزت له ذلك – كما يفعله أهل هذا الزمان- سماني موافقا.

وإن وقفت في حرف من قوله، أو في شيء من فعله سماني مخالفا.

وإن ذكرت في واحد منها أن الكتاب، أو السنة بخلاف ذلك وارد، سماني خارجيا.

وإن قرأت عليه حديثا في التوحيد سماني مشبها.

وإن كان في الرؤية سماني سالميا.

وإن كان في الإيمان سماني مرجئيا.

وإن كان في الأعمال سماني قدريا.

وإن كان في المعرفة سماني كراميا.

وإن كان في فضائل أبي بكر وعمر سماني ناصبيا.

وإن كان في فضائل أهل البيت سماني رافضيا.

وإن سكت عن تفسير آية، أو حديث فلم أجب فيهما إلا بهما سماني ظاهريا.

وإن أجبت بغيرهما سماني باطنيا.

وإن أجبت بتأويل سماني أشعريا.

وإن جحدتهما سماني معتزليا.

وإن كان في السنن مثل القراءة سماني شافعيا.

وإن كان في القنوت سماني حنفيا.

وإن كان في القرآن سماني حنبليا.

وإن ذكرت رجحان ما ذهب كل واحد إليه من الأخيار –إذ ليس في الحكم والحديث محاباة- قالوا: طعن في تزكيتهم.

ثم أعجب من ذلك أنهم يسمونني فيما يقرؤون علي من أحاديث رسول الله ﷺ ما يشتهون من هذه الأسامي، ومهما وافقت بعضهم عاداني غيره، وإن داهنت جماعتهم أسخطت الله -تبارك وتعالى-، ولن يغنوا عني من الله شيئا . وإني مستمسك بالكتاب والسنة، وأستغفر الله الذي لا إله إلا هو وهو الغفور الرحيم[1]. انتهى كلامه -رحمه الله- ونقلته مع طوله لأنه أساس فيما نحن بصدده.

ومما هو جدير بالذكر أن بعض الجماعات، وبالذات المنغلقة منها، لم تنشأ إلا على أطلال الجماعات الأخرى، فقد أسست عملها على الخارجين عن خط الإخوان، ثم تصيدوا بعض قادة الجهاد في مصر وبالذات في بني سويف، ثم بعض أتباع مقبل بن هادي في اليمن، وبعض من كان مع جهيمان في دعوته، وكما سبق فهم يعيشون على طاقة الغير فهم كالفطر المتسلق، والذي يتغذى على غذاء غيره، وكذلك التدرع الذي يعيشونه فهم جماعة تجعل من تنفير الناس من الجماعات وتخبيبهم على جماعاتهم قاعدة للتصيد.

11-32: الكهنوتية

إن الكهوتية والقداسة التي تُضفِيها الجماعة على القيادات الدعوية ورموز الجماعة أمر يقف معه المسلم موقف المتأمل والمستغرب، وما لها من انعكاسات تلك الكهنوتية التي أوجدتها تلك القداسة في الواقع العملي، وإعطاء تلك الشخصيات درجة ولاية الفقيه على مذهب الرافضة، فاجتهاداتها يفهم بها النص، وينقض بها الإجماع، ويصادر به اجتهاد غيرها، إنه تحول الشخص إلى إنسان يستعبد من حوله استعبادا معنويا، بل في بعض الأحيان حسيا، إنما يحس به بعض القيادات في الجماعات من قداسه وانعكاسات تلك الأحاسيس على أفراد الجماعة من سلب لشخصية ذلك المنتمي عندما يتصرف فيه ذلك المسئول، أو القائد، ويعتبر ذلك من طاعة أولي الأمر، حتى تقدم طاعته على طاعة الوالدين، وإذا سأله بعض

(1) الاعتصام 1/ 20، 22 .

الأتباع وكان عنده من الشجاعة ما يدفعه إلى السؤال، قال الله تعالى:﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ﴾ (العلق: 19). إن هذا ما يقذفه تربية هذه الجماعات في قلوب الأتباع.

يقول محمد العبده: "لقد تخلوا عن الشيخ بالمعنى الصوفي، ولكن تعلقوا بالزعيم، والقائد، والحزب، واللافتات، وأسماء حلت محل الشيخ في القداسة والعصمة، فهم يحنون إلى هذا الشيخ الجديد كما يحن الفصيل إلى أمه، فنجدهم ينتظرون الكلمة والإشارة من فمه، فكل ما ينطق به صواب، ويتناقلون كلامه وخطبه وأحاديثه"[1].

ويقول أبو الفضل ابن عبد الكريم: "الحزبية تورث عقدة الاستعلاء الثقافي والتنظيمي"[2].

إن هذه الكهنوتية تلحظها في رموز هذه الجماعات عندما يتعاملون مع غيرهم، ينطلقون من أنهم أعلى منهم وإن عرقهم الدعوي يقابل العرق النازي، فيصبح توزيع المجتمع إلى طبقات في أعين هذه الجماعات أمر حتمياً تحتمه المرحلة كما يقولون، وهذه اللوثة والتي هي أصل بعض الديانات كالهندوكية وغيرها، إنها انتقلت تماما عن طريق هذه الجماعات إلى رموز وقيادات الجماعات مع تقارب في تشرب ذلك، وهذا بسبب التربية والهالة والرمزية التي تضيفها الجماعة والقداسة المطلقة، وكل ذلك ينتج إيحاءاً نفسياً يعيشه أفراد الجماعة من خلال تقمص تلك القيادات والرمزيات تلك الأخلاق .

وأذكر أنه كان بجوارنا في الحي أحد رموز بعض الجماعات المنغلقة وكان إذا تعامل كان يظهر دائما أنه مشغول بأمور الأمة العظام، وأنه يقوم بدور خليفة المسلمين، وأنما حوله من المجتمع ليسوا إلا عالة على الإسلام، وأن المستقيم غير

(1) خواطر في الدعوة (47).

(2) منهاج الدعوة السلفية (177).

المنتمي ليس إلا نفحة من نفاحات تلك الجماعات، وأنها هي التي أوجدت انقلابا وتغييرا في المجتمع، وأنه هو وأمثاله هم الذين قاموا بذلك، ثم إنه كان دائما تراه يتعامل مع بعض أفراد المجتمع على أن عليه أن يكون في دور الخادم له فيحضر له ما يحتاج من السوق، ويرسله دائما مستغلا حياته، أو حبه للمتدينين، أو استغلال كهنوتيته والحوادث جمة وكثيرة، ثم إذا قابل بعض الأتباع كيف تكون برتوكولات الاستقبال التي لا يمكن أن يحظى بها أحد من هيئة كبار العلماء، وهو أحيانا خريج هندسة، أو كلية التقنية .

وليس التخصص انتقاصا، بل إن من أهل هذه التخصصات من يستسقى بدعائه ماء السماء، لكن المراد ما يفضى عليه أمور هيئة كبار العلماء في الجانب العلمي لا الكهنوتي.

إن الجماعات تكرس مفهوم الكهنوتية من خلال الواقع العملي داخل الجماعة والتربية بالقدوة، مما أوجد لنا طبقة ذات استعلاء وفوقية، وهذا في حقيقته شرذم المجتمع وولد الطبقية فيه، وأنا آمل من الأتباع أن يعيدوا حساباتهم مع رموزهم وأن يحاكموا ذلك إلى الواقع العملي، والعدل الإلهي والبعد عن التبعية، والتقديس المولد للكهنوتية وأن يحرر أفراد تلك الجماعات عقولهم، وأفكارهم من الأسر المعنوي الذي يعيشونه في ظل تلك الجماعات، وأن ينطلقوا في هذه الدنيا للدعوة المجردة البعيدة عن القيود الحزبية، والكهنوتية المعنوية، والاستغلال الذاتي، وأن يعيشوا للإسلام وآمال المسلمين، ولا يعيشوا للجماعة وآمالها تحت تصورات العمل لهذا الدين، وهو في حقيقته تجيير الدين لتلك الجماعات وأهدافها، فإذا تعارض مصلحة الدين ومصلحة الجماعة قدمت مصلحة الجماعة تحت مسوغات وتعليلات بشرية تصادم الحقيقة، باسم مصلحة الدعوة، فما تقتضيه المرحلة، هذا يحتمه فقه الواقع، إن ذلك من ضروريات فقه المآلات، وأنا ممن يؤمن أن فقه الواقع ومعرفة فقه المآلات والتكييف الشرعي مع المرحلة أمر مهم، بل هو من ضروريات خدمة الدين والدعوة لا من ضروريات خدمة الجماعة

والمحافظة على مكتسباتها من خلال تلك القواعد ذات البعد المصلحي لجانب الجماعة فقط، أسأل الله أن يستخدم الجميع لطاعته، وأن يبصرنا وجميع الأمة بحقيقة صراطه المستقيم، وسبيله القويم.

12-32: الغموض

إن الجماعات يكتنف حياتها الدعوية ومسارها الاصلاحي والذي تظهره الغموض وعدم الوضوح التام لأهدافها، لأن وضوح الهدف من سمات النجاح وقاعدة الثقة، فإذا اختل ذلك أدخل العقل في دهاليز التفكير، وقد يتحول ذلك إلى التشطير والعمل المضاد، وهذا ما نلحظه في عمل الجماعات، وبالذات المنغلقة والتي تظهر للأمة مشاريع دعوية معينة ولكنها في تعاملاتها مع الأفراد توحي لهم أن الجماعة لها أبعاد دعوية ذات أطر معينة، وأهداف مستقبلية، وأنها مرحلية التنفيذ، ونحن مع هذه الجماعات منذ خمسين سنة، أو يزيد ونحن في مرحلية ذات غموض وسرية، وأنا أقولها وأطلب من الأتباع أن يحاولوا إذا أرادوا أن يقفوا على الحقيقة أن يفكوا كثير مّنْ رموز وأطر الدعوة وأن يفهموها كيف تسير على الوجه الصحيح، إن الغموض من منشأ التربية العنقودية، والرسائل والقواعد التربوية التي تنطلق منها الجماعة توحي لك بأنك تسير في جماعة لا تملك لها تصوراً، أو محددات تستطيع أن تفهم كيف تسير إلى تحقيق آمال الأمة، إن الغموض في الجماعات أقصى حقيقة فيه قوله ﷺ، عن العرباض بن سارية –رضي الله عنه– قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب، قلنا يا رسول الله. إن هذه لموعظة مودع، فماذا تعهد إلينا ؟ قال: قد تركتكم على البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيع عنها بعدي إلا هالك، ومن يعش منكم فسيري اختلافا كثيرا، فعليكم بما عرفتهم من سنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين.....[1].

(1) أحمد 4/ 126، ابن ماجه 1/ 16 رقم 43، والحاكم 1/ 97، قال الألباني :صحيح، صحيح سنن أبي داود 1/ 13 رقم 41.

إن هذا الحديث يبين أن الرسول ﷺ قد ترك لنا منهجا دعوياً متكاملاً، محجته بيضاء واضحة لا لبس فيها، ولا غموض جانب الغموض إن صح ذلك، كالوضوح ليلها كنهارها، بيضاء في كل منعطفاتها وتشريعاتها وأوامرها ودعوتها، قل لي إن الجماعات في هذا الوضوح في محجته ﷺ .

إن غموض الجماعات أوجد لبسا في عقول الناس، بل في أذهان كثير من الأتباع، ولكن ما أوجدت الجماعات في أذهان الأتباع وحياتهم من سياجات فكرية وتصورية تمنع هؤلاء الأتباع من الانفصال، وقد ربطت هذه السياجات والموانع بأمر الدين، وأنها منه وهذا حال الفرق المبتدعة على مر التاريخ، وذات المناهج التشطيرية للأمة.

يزرعون في ذهن وحياة التابع أنه لا عمل في الإسلام إلا من خلال جماعة تؤطر له وتبرمج له الحياة الدعوية، فإذا أخل بذلك كان خنجرا في خاصرة الأمة، وهذا من قلب الحقائق على الأتباع، أن الطريق الوحيد الموصل إلى الله والدعوة إليه هي الجماعة.

يقول بكر أبو زيد: "الحزبية ترصد في أفئدة شباب الأمة الربط الشديد بين (الفكر الحزبي) والعمل الإسلامي (الدعوة إلى الله) أي: لا عمل إلا بحزب ... الذي يريده الله من عباده، الدعوة إلى دينه، بنقلة المسلم من ظلام الوثنية إلى أنوار التوحيد، ومن مغارة المعصية إلى عز الطاعة .. لا ينقل المسلم من أفق الإسلام الواسع الذي تستوعب رحمته جميع المسلمين على منازلهم إلى ضيق الشعار الحزبي"[1].

(1) حكم الانتماء (138، 139).

ويقول الدقى: "الغموض الكبير الذي يلف هذه الجماعة (السرورية) وعدم وضوح أهدافها النهائية ووسائل عملها ... ويبدأ الغموض من اسم الجماعة فقد تم نسبتها إلى مؤسسها"[1].

ويقول محمد العبده عنها: "وبسبب الاضطراب وعدم الوضوح في المنهج دخل البعض في معارك سياسية قبل أوانها، وكانت النتيجة وخيمة وكانت ردة الفعل إما الابتعاد كليا عن الشئون العامة، أو الدخول بفكر وعقل ذرائعي ليس له حدود ولا ضوابط"[2] وهو يقصد الجماعة التي ينتمي لها مع اختلافه معها أخيرا.

ويقول أحمد فهمي: "ظهور جماعات سلفية صغيرة نسبية تتسم بالنخبوية وهي تجمع الأتباع بصورة هلامية دون أطر واضحة، مع علاقة غامضة شبه منعزلة"[3].

إن الغموض الذي تعيشه الجماعات أمر مربك للصف الإسلامي، ويفقد الثقة بين المسلمين ويظهر النفرة وعدم الألفة، إن الجماعات تعمد إلى الغموض، ومن ذلك أنه لو كان هناك رجل من أتباع جماعة معينة وأنت تعلم ذلك يقينا، ثم تسأله عن نفسه ينتمي لأي جماعة لرأيت ما يذهلك من التنكر والغموض في الإيجابات، والتمويه في تضييع السائل، بل إن مسئول الإخوان على ضرب المثال في المملكة وكل الدنيا تعلم أنه إخواني، ولو دخلت على أي موقع أو سألت عن انتمائه لملص وعرض وأنكر، وهذه الجماعة أوضح من غيرها فكيف بالأشد انتماء وغموضا، والتي من قواعدها عندما يسأل أحد الأتباع أنت معنا على الطريق، قال: لا تسأل . كان يُسأل ﷺ فيقول: معنا حر وعبد[4]، كان الرسول ﷺ يقول ذلك في المرحلة السرية، وفي أول الدعوة وفي الوسط الكافر، أما هذا الاستدلال ففيه

(1) ملامح المشروع (137).

(2) صيد الفوائد (ما بعد الجماعات).

(3) مستقبل السلفيين في مصر (58).

(4) مسلم 1/ 569 رقم 832/ 294 أثناء حديث طويل.

مخالفة فأنت في وسط مسلم، بل في الوسط المنتمي أي غموض أشد من ذلك، إن الغموض في الجماعات من السلبيات العظام .

إن المريد عندما يسير في طريق الجماعة وهو محاط بجدران من الغموض والتي يجب عليه التسليم المطلق بها وعدم الالتفات إلى وبيص أي نور يظهر له في جانب من تلك الجوانب التي يكتنفها الغموض، إنه ينفك بذلك من الحياة العامة للأمة ويعيش تحت مظلة تلك الجماعة، مما أدى إلى انفصال الجماعة عن جسد الأمة، والتنفس برئتها والغرق في الحزبية، إنها استطاعت أن تقنعه بشرعية ذلك الغموض وتسكبه في ذهن ذلك السائر، بل إن الأمر يتعدى ذلك إلى أن القادة والمنظرين الذين يمتلك الأمر فكرهم وحياتهم ويصبح جزءا من تفكيرهم وحياتهم حتى حياتهم الأسرية، ويلقي ذلك بظلاله على الأتباع، إن الغموض الذي تعيشه الكوادر الدعوية وتنقله إلى الأتباع عبر التربية العنقودية (الجلسات المغلفة) يوجد في نفس هذه الكوادر شيئ من الاستعلاء والنظر أنها تعيش في درجة من درجات الدعوة تفوق بها غيرها من الأتباع ومن باب أولى العامة كما يصنفون المجتمع، وهذا لو نظرت إليه تجده وافدا إلى الجماعات من مذهب الاثني عشرية (الرافضة) لأن المسلمين أهل السنة عندهم هم العامة، وفي مصطلحاتهم العامة هم أهل السنة، وعند الجماعات العامة ما كان من غير الجماعة، أو لا ينتمي إلى جماعة وهو من عموم الأمة.

إن السائر في منظومة جماعة من الجماعات عندما يتعامل مع غيره من منطلق الغموض يوحي هذا الغموض أن عنده ما ليس عند غيره وهذا السراب وهولامية التفكير الذي يسير عليه يحقق من خلاله شخصية فيها جوانب الاستعلاء والغرور والتميز بما لا تميز فيه ويتدرج الغموض في سلم الجماعة، ومن هذا الغموض داخل الجماعة أن الأتباع لا يكادون يعرفون أسماء بعض، وإذا سئل أحد الأتباع عن فلان من الناس توه في الإجابة، بل أحيانا يؤنب ويعنف عليه، ويقول: أنت ما أنت مقتنع فيه، مما يجعل المنتمي يعيش في دائرة الغموض حتى يصبح ذلك

الغموض ركنا من أركان الدعوة وطريقا من طرقها وسببا من أسباب نجاحها في نظره.

إن كل ذلك يخالف حقيقة الدعوة إلى الله، فالرسول ﷺ وأبو بكر –رضي الله عنه– وغيره من الصحابة كانوا واضحين، بل عندما أسلم عمر ذهب مباشرة إلى دار الأرقم بن أبي الأرقم . ومن يحيط بهذه الفئة المؤمنة ؟ أنهم الكفار ومع ذلك كان هذا الوضوح، وهو ما يجب على هذه الجماعات والتي تعيش في وسط مسلم، بل أحيانا في وسط دعاة لا انتماء لهم، ومع ذلك يشعرون بالغموض وعدم الوضوح مع هذه الجماعات.

إن الغموض في حياة الجماعات تجعل منه أنه من باب توزيع المسؤوليات وليس لأحد أن يعرف ما عند غيره من مسئولية، ولو كان ذلك في أي مسجد سيصلي الجمعة؟

13-32: الوصاية

الوصاية في مفهوم الجماعات أمر خطير جدا لما يترتب عليه من إقصاء، وفوقية، والتحكم في الدين والمجتمع كما يريدون باسم الوصاية، والعالم الإسلامي يرزح تحت وصايتين، وصاية خارجية يمثلها النظام الدولي، أو العالمي متمثلا في مؤسساته الدولية، كالبنك الدولي والصندوق الدولي، وهيئة الأمم، وغيرها من المنظمات الدولية التي تقوم هي بمباشرة تلك الوصاية، أو ما تكرسه قوى الكفر من استعباد وهيمنة فكر مباشرة، أو من خلال رموزها الحكام التابعين لها في بعض البلاد الإسلامية، ولست معنيا بالحديث هنا عن هذه الوصاية في شيء، ووصاية داخلية تمارسها الجماعات الإسلامية على المجتمع أفرادا ومؤسسات، هذا في الوسط الاجتماعي الذي تعيش فيه وتكرس جهودها لتكون فيه قطب الرحى، أما داخل الجماعة فحدث ولا حرج .

إن الحجب الفكري على أفراد الجماعة وخاصة المنغلقة أمر أساس في وضعها التربوي والمراد بهذا الحجب الفكري هو التحكم في مصدر التلقي للأتباع، ثم التحكم في البناء الثقافي والتصوري، والعلمي لهؤلاء الأتباع، ومن هنا يتكون لدينا عقول مقفلة مصادرة التفكير والبحث عن الحقيقة، وتتصور أن هذا المصدر المتلقي منه قد حاز على كمال المعرفة والعطاء الفكري وصحة المنهج، ولهذا تكون الوصاية قد نجحت في صناعة العقل الانتمائي للفرد وأصبح يعيش في دائرة التفكير المغلق .

وعلى هذا المنهج يكون التفكير بعقل الجماعة، وهذا يكون صاحب الالتزام عند الجماعات المغلقة، ويفكر عنه في درجة الانتماء، لأن المنتمي لم يهضم الفكر التربوي لدى الجماعة، ولم يصل إلى درجة أن يفكر بعقلية الجماعة، وإنما لازال في درجة البناء الفكري، فهم يفكرون عنه وفي كلا الحالتين فإن ذلك يعد من الوصاية الفكرية والوصاية على العقل البشري، والذي يصادر من كينونة التفاعل إلى كينونة الجماعة الانغلاقية، ولهذا فإنك تجد المنتمين لهذه الجماعات لا يستطيع يفكر بعقلية مستقلة، ومن هنا كانت الجماعات هي من أحكمت سياج المنع في التخلي عن الجماعة، مع تصور الأتباع من خلال هذه الوصاية أنهم قد أصابوا كبد الحقيقة، وأن ما عداهم يعيشون على هامش الحياة، أو أن من كان مثلهم، ثم تحرر من الوصاية قد شاق الله ورسوله، إنها العقلية التي فرضت عليها الوصاية فأصبحت لا تفكر وإنما يفكر عنها، وإن فكرت فإنها تفكر كما تريد الجماعة . إذا الوصاية الفكرية أنا أفكر عنك، أو أن تفكر كما أريد.

ومن هنا كان الشحن الفكري بأفكار الجماعة وبقواعد التفكير فيها عن طريق جلسات علمية يكون الجانب الفكري هو الأساس فيها، وإما عن طريق مسؤول الجلسة، أو زائر قد تشرب أفكار الجماعة ولديه القدرة على الغسيل والإقناع وهذا له التأثير الكبير على المبتدئ، لأنه يلحظ هذه العناية، وهذا الطرح الفكري من قبل المسؤول مما يجعله يحس أن الإصغاء والاهتمام به ميزة عن غيره،

وأنه ما يلقاها إلا ذو حظ عظيم، ومن هنا تبدأ وضع قواعد قبول الوصاية الفكرية وتبعاتها كما سيأتي أن من أسس تأسيس هذه القواعد تصور الجماعة أنها هي الوحيدة والنادرة وذات التمام والكمال في فكرها وتنظيمها، وأن الله قد فتح لك بالانضمام إلى هذه الحلقات التربوية كل أبواب الخير، ومن هنا تبني في ذات الشخص أن هذه الجماعة هي له حياة وموت، وإنه يجب عليه الإذعان والتفاني في التطبيق وتنفيذ الأوامر عن طريق الطاعة العمياء .

إن البناء الفكري والذي يتدرج فيه الشباب عن طريق مناهج معدة تخدم البناء الفكري للجماعة، ومن ذلك مطالعة الشاب وقراءاته، فيوجه ألا يقرأ إلا لفلان، ولا يستمع إلا لفلان، وإذا كان هناك معرض للكتاب فإن الغالب أن كل مجموعة من الشباب يكلف من يذهب معهم ويبدأ يدلهم على الكتب التي يقتنيها الشاب، وقد عمدت أن يكون لها دار نشر مستقل لا ينشر فيه إلا ما يخدم فكرها، بل من خلال إصداراتها تحاول تجذير فكرها وتسهل على الأتباع الوصول إلى الكتاب المراد، فيكون الشاب مكتبة علمية بالوصاية تخدم تلك الوصاية، وهذه الوصاية بهذه الطريقة وممارسة الجماعات لها عن طريق أفرادها المتقدمين (الملتزمين) فيها نوع من الإرهاب الفكري للشباب مما يفرز لنا شباباً يعادي أي فكر يخالف فكر الجماعة، بل يتحول إلى إنسان يلبس الأحزمة الناسفة من الأفكار والتي مستعد أن يفجرها تحت سمع وبصر الجماعة عن طريق الوصاية الفكرية، إن هذا الإرهاب الفكري أنشأ لنا شخصيات متشنجة تعادي كل أطياف المجتمع سواء من الجماعة المنافسة، أو من البعيدين عن الانتماءات، ولديه استقلالية في الفكر ويعبر بكل حرية، فإن العداوة والبغضاء قد حلت عليه بسبب الوصاية التي ولدت تلك الشخصية المتشنجة ذات الطابع العدائي.

يقول الشيخ بكر أبو زيد: "خلفية الاعتقاد الفكري بالحجر على العقلية الإسلامية والتفكير الإسلامي، إذ العيش في قالب الأحزاب همه الدفاع عنها، وتعميقها في النفوس، فاعتقلت بهذا الإنتاج الفكري في حدود الحزب، فلله كم في هذا من صد وصدود عن العيش مع الشريعة في شمولها ورحابتها"[1].

فالشيخ سلمان العودة نموذجاً عندما استقل بفكره ورفع الوصاية عنه وعن فكره ماذا حدث ؟ لم يبق وصف إلا رمي به إلا الردة عن الإسلام، إن هذا نوع من الإرهاب الفكري.

وهذا الإرهاب الفكري الذي يخضع للوصاية الجماعية، صادر من حياة الشباب كل أنواع الإبداع فقتل الإبداع ومزق قميص الريادة وحول الفرد إلى شخص يستجر فقط أفكار الجماعة .

وهذا ما تكرسه السرورية في تنظيرها وتطبيقاتها العملية وتسعى أن تكون لها الهيمنة على عقول الأتباع لتبقى الجماعة كما تقول كتلة خرسانية مغلقة، فهذا منظرها أحمد فهمي يقرر هذه الحقيقة ويجعلها قاعدة تماسك الجماعة فيقول: "في صناعة نماذج مشابهة من الأعضاء في الآراء والمواقف والقررات، وعادة ما يدفع لإيجاد هذا التشابه وترشيحه دافعان رئيسان .

أولهما: رغبة العضو نفسه في ألا يكون مختلفا عن الآخرين داخل الكيان.

والثاني: رغبة الأعضاء بصفة جماعية في التحكم في توجهات الفرد داخل الكيان ليكون نسخة متكررة . وهذا التشابه بين الأعضاء يكون الهدف من إيجاده هو مساعدة الكيان في تحقيق أهدافه على اعتبار أن توحد التوجيهات والآراء يُقوي التماسك، ويجعل الكيان كوحدة موحدة، كذلك فإن هذا التشابه يساهم بقوة في الحفاظ على وجود الكيان وبقائه في حالة نشاطه"[2].

(1) حكم الانتماء (144).

(2) مستقبل السلفيين في مصر (42).

وهذا من قولبة الأشخاص الفكرية التي ألحقت بالأمة الانتكاسات تلو الانتكاسات الفكرية وانعدام الإبداع وحرية التصور، فسيد قطب عندما خرج عن فكر جماعة الإخوان والوصاية الإخوانية، وخلع ثوب الوصاية، وتحمل تبعات ذلك والتي لازالت إلى وقتنا الحاضر أبدع أيما إبداع في فكره وتصوراته وإعطاء قواعد دعوية تجديدية، مع ما عليه من ملاحظات، ولكن كما يقال لا يتعثر إلا الماشي .

إن هذا الانعتاق من عباءة الوصاية أظهر لنا تلك القواعد الدعوية والإلهامات التربوية التي من أراد في عصرنا أن يبرز على الساحة ويشاد به تتلمذ عليها، ولهذا كثر خصومه والمعجبون به، وكما كان من ابن تيمية –رحمه الله– قبله فإنه عندما انعتق من الوصاية المذهبية وردكالية التمذهب كان من المجددين لهذا الدين، فالانعتاق من الوصاية الانتمائية يحدث ثورة إبداعية عند المنعتق، وهذا واضح على صعيد الواقع، فكم أبدع من شخص بعد أن ترك التحزب، لأنه ترك الوصاية الفكرية والحياتية وعدد مصادر تلقيه ونوع مدارس التعلم، مما أذكى فكره، وأوقد جذوة الإبداع.

إن ابن سعدي –رحمه الله– عندما رفع وصاية الحياة الاجتماعية المغلقة حوله كان منه هذه الإبداعات، وإن كان هناك من خالفه وأغلظ القول فيه في فترة من الفترات، لكن كان برفع تلك الوصاية، فوسع مداركه وقدرته على استيعاب الواقع حوله وفهم الحياة بشمولية واسعة الأفق.

إن هذا الإبداع كان وليد الانفكاك الفكري والحياتي، إن الوصاية الحياتية الشمولية لدى الجماعات تفسد على المرء حياته وهو لا يدري، ولا يحس ولا يعلم ذلك إلا إذا عمد إلى الانفكاك والانعتاق المطلق من ربقة الجماعة، وكون له خطا فكريا مستقلا يقبل كل فكر إيجابي حتى ولو كان من إنتاج تلك الجماعات، لكن عند الفلترة الخاصة به المبنية على الفهم لمراد الله في كتابه وما جاء في سنة نبيه ﷺ والقدرة على ذلك، وإلا استفاد من العلماء الربانيين على اختلاف مشاربهم دون تقوقع، أو تحزب، أو وصاية فكرية.

إن انعكاسات الوصاية الحياتية على الأتباع تظهر جليا من بداية اختيار خريج الثانوي والجامعة التي تريد والمكان الذي يتعين فيه بعد التحرج، ولو أدى ذلك إلى خلاف رغبة والديه تحت فهم قوله تعالى:﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ﴾ (العلق: 19).

ومفهوم مصلحة الدعوة وأبواب الجهاد، وأذكر أن رمزا من رموز بعض الجماعات المنغلقة احتاجت الجماعة إليه وقد بلغ من العمر عتيا طلب منه أن يتعين في مكان ما لخدمة آراء وأفكار الجماعة فتعين، ثم أصدرت له الجماعة فتوى أنه على ثغر، وأن ذلك من الرباط في سبيل الله وهذا يذكرني بجواز السفر عند الشيعة إلى الجنة.

وهذا الرباط له دون غيره مع أن الموظفين والدعاة والهيئات الشرعية هناك فيها بالعشرات، بل بالمئات، إنها الوصاية حتى على الأجور ومن يستحقها، نسأل الله السلامة.

وهذا الحجر والوصاية عند هذه الجماعات في حقيقتها مخالفة لما ثبت في الشرع، لأن الحجر في الشرع لا يكون إلا لحالات بعينها، وليس لكل أفراد الأمة، إن هذه الوصاية (أو الحجر) لا يكون في الشريعة إلا للصغير، أو المجنون، أو المعتوه، أو من به سفه، أو غفلة، أو المدين المفلس، أو الفاسق، وهل الأمة توزعوا بين هذه الأصناف إلا الجماعات سلمت من ذلك، فكان لها حق الوصاية الفكرية والحياتية.

علما أن هناك نوع من الحجر للمصلحة العامة لا لمصلحة الدعوة، كما ذهب بعض المذاهب الفقهية إلى الحجر على المفتي الماجن، والطبيب الجاهل والمكاري المفلس.

فأي نوع من الوصاية تمارسه تلك الجماعات، إنها تمارس الوصاية على العقلاء، والعلماء، والعارفين، والمثقفين، وعلى من لا يجوز عليه وصاية قبل من يجوز عليه، وهذه الوصاية الأخيرة مع مشروعيتها إلا أنه ليس من حق الجماعات.

إن الجماعات تنظر إلى المجتمع أنه لم يبلغ رشده، ولهذا فإنه يجب الحجر عليه وقيام الوصاية للجماعات، لأنها هي التي تملك العقل الرشيد، وهذا تسفيه لأحلام الأمة، واستعلاء وغرور قارونية المشرب.

أما الوصاية على المجتمع فإن الجماعات تلقي شباك صيدها في وسط المجتمع صباح مساء للوصول إلى الوصاية الاجتماعية، ومحاولة أن المجتمع لا يتنفس إلا من خلال رئة الجماعة، فتعمد إلى السيطرة على الأنشطة والجمعيات الخيرية ووسائل الدعوة، ومصادرة الآخرين من أفراد المجتمع عن طريق تنادي أفراد الجماعات للاستحواذ الكلي ما أمكن على الجمعيات الخيرية، ومدارس التحفيظ، والمخيمات الدعوية، وجمعيات التنمية الأسرية، وجمعيات الأيتام، وجميعات البر، ونشاطات الأحياء، فإن أمكن ذلك وإلا المشاركة في تسييرها، وهذه الجماعات تعرض الوصاية المجتمعية من خلال تلك القنوات، فتجد مثلا بعض الجمعيات والمؤسسات الخيرية العملاقة كمؤسسة الراجحي، والسبيعي فإن هاتين الجمعيتين يسيطر عليها مثل غيرها الجماعات وتتنفذ من خلالها وتحكم سيطرتها على فروع تلك المؤسسات الخيرية.

فالسرورية تتحكم تحكما كاملاً في مؤسسة السبيعي ولقد فرغت لها بعض الكوادر العاملة التي تسيرها .

ومؤسسة الراجحي تتحكم فيها جماعة الإخوان في كثير من فروعها وعندما تتابع تبرعات المؤسستين تجد أن كل واحدة لا تمون إلا ما يقوم عليه تلك الجماعة بالإشراف المباشر، أو الإشراف المقنع، ثم إن هذه المشاريع الخيرية تقوم بها تلك المؤسستان سواء كانت مساجد أو مدارس خيرية، أو غير ذلك، فإنها لا تسلم إدارتها إلا للجماعة نفسها، وهذا نوع من الوصاية على المجتمع والذي تسعى الجماعات من خلاله إلى السيطرة على مفاصل المجتمع الخيرية لفرض الوصاية للجماعة عليه، وتنفس المجتمع من خلال رئة الجماعة فقط.

14-32: الجماعة أولا (الجماعة قبل المبادئ)

إن الجماعة أولا مبدأ راسخ لدى الجماعات الإسلامية، فهي تخاطر بكل شيء من أجل سلامة الجماعة، قل أن تراعي في ذلك أي قيم، أو مثل، أو دين، ويكفي في ذلك أنه إذا تعارض امر للجماعة، أو أمر ديني قدم أمر الجماعة، بل إن الجماعات تجعل من الدين خادما للجماعة، فهي تجير الدين ليخدم المصالح الحزبية، أو الجماعة، وقد تقدم معنى في قضية الولاء والبراء، والحب كيف يعرف عند الجماعات ولو بقي الأمر أن يصرف الولاء والبراء والحب للجماعة لكان أمره أخف من قضية أن يتخذ من الدين وسيلة لخدمة الجماعة وإن كان الأمران أحلاهما مر، فعندما يتولى شخص مؤسسة شرعية ذات صبغة دينية فإن هذا المنتمي يسخر هذه المؤسسة لصالح الجماعة مع أنها في أصلها وضعت لتخدم الدين، وتكون مركز إشعاع واقتباس هداية، ولكنها تحولت إلى محضن من محاضن الجماعة، واستغل تلك الواجهة الدينية لصالح الجماعة، فانظر كيف حورت لمصلحة الجماعة، بل يتعدى الأمر على أنه يحرم على غير المنتمين الاستفادة منها، مع أنها حق مشاع للمسلمين، فإذا كانت كلية حرم غير المنتمين للجماعة المسيطرة التعيينات في الإعادة وغيرها غالباً.

وأذكر ونحن في جامعة الرياض، ثم حولت إلى جامعة الملك سعود فيما بعد، وكان لنا زملاء في جامعة الإمام وكان الطحن على أشده بين السرورية على أول نشأتها والإخوان الذين كان لهم الأقدمية، فكان لا يعين معيد في الجماعة إلا إذا زكاه طرف إخواني، وهذه التزكية هي دمغة، أو بصمة الحمض النووى، فيقبل، وهذا ما جعل السرورية يتجهون إلى التعليم العام، وهو ما جعلهم يؤسسون الكوادر السرورية من مرحلة الثانوية، وتفاجأ الإخوان بعشرات اللامنتمين للإخوان في مدرجات الدراسة، ومن عين معيدا استهلك وقته للدارسة والبحث وهذا ما جعل السرورية يصبح لها مد كبير في الساحة الدعوية أذهل في وقته الإخوان، ولم يفطن الإخوان لذلك إلا متأخرين، ولكن الشاهد أن الجماعة أولاً

قبل أي اعتبار آخر من الاعتبارات والتي يجب أن تقدم على الجماعة، ولكن مصلحة الجماعة والتمدد الحزبي لا يمكن ان يحصل إلا بالتضحية، ولو كانت هذه التضحية هي المبدأ الأساس للحياة، وهذا من الانغلاق الحزبي ومن تسويلات الشيطان، وتزيين ذلك بأنه من مصلحة الدعوة .

قال الله تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ ﴾ (محمد: 14).

وقال تعالى: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴾ (فاطر: 8).

ونحن نعلم أن الأخوة في الدين هي مقدمة على أي أخوة فمهما كانت هذه الأخوة، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾ (الحجرات: 10).

هذا الإخاء ينتفي مع وجود الجماعة، فيكون إنما المنتمون إخوة فيصبح في أذهان الأحزاب والجماعات الإسلاميةإنما الإخوان المسلمون أخوةٌ، وإنما السروريون أخوة .... وهكذا دواليك .... وأكبر دليل على ذلك انظر إلى روابط الإخاء بين السرورية والإخوان أنها تصرمت روابطها، وقطعت حبالها، وبيعت في سوق الحزبية . أليس هذا الأمر الديني قدمت أخوة الجماعة عليه ؟ إنها الجماعة أولا، قاتل الله الحزبية كم أفسدت النفوس، وهذه الأمراض يتعامل معها في الوسط الحزبي على أنها ظاهرة صحية، ومرضها أخفى على الحزبي من دبيب النملة السوداء، على الصخرة السوداء، في الليلة الظلماء، لكن من ينظر بنور ربه، أو يفارق جماعته يرى كم ينعم ويسعد من سلم من ذلك وسلم له قلبه وفكره.

يقول بكر أبو زيد: "الحزبيات تنتج شركة مبيدة للإخاء الإسلامي بمنظوره العام، إذ تبنى حجابا كثيفا دون ذلك، فلقاء مسلمين من حزبيين قلب كل منهما معمق وفق تخطيط ومنهج لا يتلقى مع الآخر في الشعار، أو في كل، أو في بعض ما

وراء الرمز والشعار، من الضرورة بمكان أن يكون شيء من التناكر في القلوب وتبادل الطرف الحسير فيكون لقاء مجاملة، أو أشد مجاذبة، أما اللقاء تحت شعار الإسلام، وأخوة الإيمان ومحبة الإحسان والحاكم السنة والقرآن[1]، بهذا والله تمام الإخاء وتآلف الأجناد.

وفي الحزبية تبديد للإخاء، فهي تخرق سياج الأخوة الإيمانية العامة التي تنتظم أهل القبلة من كل من جاء بالشهادتين حسب منازلهم منها، فالحزبية تنشئ أخوة دون أخوة وهي تخصيص بعد تعميم تأسيسا على مبادئ الحزب وشعاره، وهل هذا إلا تفتيت للأخوة في الإسلام، وسل لسخائم العداء والصراع؟! وأخيرا تنتهي إلى تصفية الإخوان للإخوان، كما تصنعه الأحزاب السياسية في تصفية الرفاق للرفاق[2].

وعندما تكون الجماعة أولا يكون الباعث على العمل والدافع له هو الجماعة، الاتفاق من أجل الجماعة، تبليغ الناس هذا الدين من أجل الجماعة، يتمعر وجهه من أجل الجماعة، بل يصل الأمر إلى ترك الفرد الجهاد والقتال في سبيل الله، ويقاتل من أجل الجماعة وساحات القتال في سوريا وقبلها أفغانستان وفي العراق خير شاهد إنها الجماعة أولاً.

عن أبي هريرة –رضي الله عنه– قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن أول الناس يقضى فيه يوم القيامة ثلاثة: رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمة فعرفها . فقال: فما عملت فيها ؟ قال: قاتلت فيك حتى قتلت . قال: كذبت، ولكنك قاتلت ليقال: هو جريء . فقد قيل . ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها . فقال: ما عملت فيها ؟ قال: تعلمت فيك العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن، فقال:

(1) الأولى من شيخنا رحمه الله أن يقول والحاكم القرآن والسنة لكنه رحمه الله راعى سجع القول.

(2) حكم الانتماء (147، 148).

كذبت، ولكنك تعلمت ليقال: هو عالم، فقد قيل: وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ، فقد قيل: ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها . فقال: ما عملت فيها ؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك . قال: كذبت ولكن فعلت ليقال: هو جواد، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار"[1].

ورد عند ابن خزيمة وغيره عند تحديثه بهذا الحديث: "نشغ أبو هريرة نشغة فمكث قليلا ثم أفاق . فقال: لأحدثنك حديثا حدثنيه رسول الله ﷺ في هذا البيت ما معنا أحد غيري، ثم نشغ أبو هريرة نشغة أخرى فمكث بذلك، ثم أفاق ومسح وجهه، قال: افعل، لأحدثنك بحديث حدثنيه رسول الله ﷺ وأنا وهو في هذا البيت ما معنا أحد غيري، ثم نشغ أبو هريرة نشغة شديدة، ثم مال خارا على وجهه أسندته طويلاً"[2].

إن أخشى ما يخشاه أن يقع أتباع هذه الجماعات فيما وقع فيه هؤلاء من ظاهر العمل لله، وهو للجماعة، أو لدعوة المصلحة، أو لإسقاط أحد، فكل عمل ليس لله بداية وغاية، قصدا وعملا، فهذا مصيره.

يقول ابن قيم الجوزيه –رحمه الله-: "كل عمل لابد له من مبدأ وغاية، فلا يكون العمل طاعة وقربة حتى يكون مصدره الإيمان، فيكون الباعث عليه هو الإيمان المحض لا العادة، ولا الهوى، ولا طلب المحمدة، والجاه وغير ذلك، بل لابد أن يكون مبدؤه محض الإيمان، وغايته ثواب الله وابتغاء مرضاته"[3].

(1) مسلم 3/ 1513 رقم 1905، أحمد 2/ 223، والترمذي 4/ 591 رقم 2382، وابن خزيمه 4/ 115 رقم 2482، وابن حبان 2/ 135 رقم 408، والحاكم 1/ 418.

(2) صحيح ابن خزيمة 4/ 115، 116.

(3) الرسالة الثبوكية (12).

إن سعي الجماعات في وسط المجتمع والدعوة واستقطاب الأتباع كل بحسب نوعية الاستقطاب ليس لتكثير سواد المسلمين، لأنه وسط إسلامي، ولكن لتكثير سواد الجماعة.

إني سأعمم تعميما .... الحزب يحرم تحريما
يا ويل مصائب أمتنا .... إسلام يخدم تنظيما

ولاشك أن نزعة الجماعة أولا، والمصالح قبل المبادئ من أخطر ما يفجر الأمة إلى شظايا، ويجعلها أحزابا وجماعات، ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ (الروم: 32)، ومنبع ذلك ومنشؤة الحزبية الضيقة ذات الأهداف الحزبية التي قاعدتها الجماعة اولا، إن النظرة الحزبية الضيقة التي تسيطر على معظم الجماعات الإسلامية، والتعصب المقيت للأسماء والأشخاص واعتقاد كل طائفة أنها تملك الحق وحدها وأن غيرها ليس له شيء وتقديم المزاج الشخصي والهوى النفسي على الحكم الشرعي والانضباط الفقهي، وتغليب مصلحة الجماعة على المصالح الشرعية للمسلمين ككل، ومصادرة حق الغير في التفكير، والاجتهاد المخالف داخل إطار أهل السنة والجماعة، أضف إلى ذلك غياب القدوة العلمية والسلوكية والأخلاقية، التي كان يمثلها أئمة أهل السنة الأعلام في كل عصر وجيل، وكل ذلك كان محصلته هو ما نراه الآن من واقع ممزق[1].

وهذا قاعدته الهوى وغذاؤه التعصب وثمرته التحزب، ونتائجه الضياع والتمزق والتشرذم والتناحر والتباغض.

يقول ابن مسعود-رضي الله عنه-: "أنتم في زمان يقود الحق الهوى، وسيأتي زمان يقود الهوى الحق، فنعوذ بالله من ذلك الزمان"[2].

(1) معالم الانطلاقة الكبرى (191).

(2) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 19/ 208 .

15-32: الإسقاط

إن الإسقاط، أو الإزاحة، أو الاجتثاث، أو التبرير، وغيرها من الميكانيزمات الأخرى تشغل حيزا كبيرا من فكر الجماعات وتطبيقاتها العملية، ودافع ذلك التعصب كما يقول فرويد في نظريته، إن التعصب يدل على الميول إلى الإسقاط، وإسقاط التشابه على وجه . فالجماعات منطلقها للعمل في الوسط، أو الحاضن الدعوى لها عن طريق إسقاط الآخر سواء كان ذلك على مستوى الأفراد، أو الجماعات، ودافع ذلك الاستحواذ والسيطرة المطلقة للجماعة، ومن أجل الجماعة، أن الدافع لذلك هو الهوى وتحقيق معنى الأنا، بل النظر إلى ما هو أبعد من ذلك وهو الوصول إلى الأنا الأعلى، إن الجماعات لا تنطلق في دعوتها من منطلق التكامل، واختلاف التنوع وإقالة العثرات، إنها تنطلق من واقع الأنا، واختلاف التضاد والبحث المستميت عن العيوب والسقطات، واستخدام ذلك كلها لإسقاط الغير سواء على مستوى الأفراد، أو الجماعات، إن مّنْ يعمل في أطر منظمة لجماعة من الجماعات يبتلى بذلك، والكارثة أنه يرى ذلك من أبواب الخير، لأن في ذلك تحقيق الولاء والبراء، والحب في الله، والبغض في الله، ولا كرامة -كما يرى- وهذا من خلال النظرة التي رسمتها الجماعة في المنهج التربوي لهذا المسكين، ولم يعلم أن حق المسلم لا يرتبط بالانتماء للجماعة، إنما يرتبط لارتباطه بهذا الدين وتحقق ذلك في حق المسلم على المسلم، لا في حق المنتمي على المنتمي .

وهذا قاعدة البناء الفكري التكاملي لا البناء الفكري الإسقاطي، وهذا ما تعمده الجماعة من الإسقاط والإقصاء عن ميدان العمل الدعوي، والمشروع الإسلامي حتى هذا الإسقاط والإقصاء والاجتثاث يأخذ حيزا كبيرا من واقع عمل الجماعة.

يقول محمد أبو هلال: "إن حجم الإقصاء الذي يتلبس به الفكر الصحوي على غاية من الاتساع والامتداد، إذ يقع على دائرة ممتدة من المذاهب والتيارات، والاتجاهات، والسلوكات، والأشخاص ..... وإذا كان تقرير المنحى الإقصائي

والتلبس بالرفض والنفي للآخر في الفكر الصحوي هو من البروز بمكان لا يحتاج معه إلى البرهنة والتدليل، فإن العوامل الدافعة إلى اتخاذ هذا الموقف الحدي توجب البحث والتدقيق، فما الذي يدعو الصحوي إلى اتخاذ تلك المسافة الهائلة بينه وبين سائر المخالفين له، والمفترقين عنه في التصور والاتجاه الفكري، والمناحي السلوكية، والأنماط المعيشية"[1].

إن عملية الإسقاط في قاموس الجماعات وإزالة الآخر وكنسه من طريق الجماعة واجتثاثه أمر يتعمد عندما يتعذر إدراج ذلك الشخص في الاتجاه أن يصب عطاءه في مصلحة الجماعة، لا مصلحة الدين، وعندئذ تعمد الجماعة في البحث عن العيوب والسقطات والعمل على نشرها منتهكة حق الأخوة ووجوب الستر على المسلم، والذي نحن مأمورون به شرعاً، فهو من الآداب والأخلاق وسلوكيات المسلم.

عن أبي هريرة –رضي الله عنه– قال: قال رسول الله ﷺ: "من نفس عن مسلم كربة من كرب الدنيا، نفس الله عنه كربة من كرب الآخرة يوم القيامة، ومن ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة .."[2].

وعن ابن عباس –رضي الله عنهما– عن النبي ﷺ قال: "من ستر عورة أخيه المسلم، ستر الله عورته يوم القيامة، ومن كشف عورة أخيه المسلم، كشف الله عورته حتى يفضحه الله بها في بيته"[3].

بل تعدى الحديث في الستر من الحي إلى الميت لما لذلك من أهمية وخصوصية يجب أن تحترم وإفشاؤها من انتهاك تلك الخصوصية ومن التعدي على حقوقه.

---

(1) خطاب الصحوة السعودية (168).

(2) مسلم 4/ 2074 رقم 2699 .

(3) ابن ماجه 2/ 850 قم 2546، قال الألباني: صحيح، صحيح ابن ماجه 2/ 79 رقم 2063، والصحيحة رقم 2341، وإرواء الغليل 3/ 176.

عن ابن رافع قال: قال رسول الله ﷺ: "من غسل ميتا فكتم عليه غفر له أربعين مرة .."[1].

وقد جاء من حديث أبي إمامة بلفظ "من غسل ميتاً وكتم عليه طهره الله- تعالى- من ذنوبه"[2].

ومن حديث عائشة بلفظ "من غسل ميتاً، فأدى فيه الأمانة ولم يفش عليه ما يكون منه عند ذلك خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه"[3].

وقد ورد عن عدد من الصحابة –رضوان الله عليهم-[4].

إن قاعدة الستر، أو البحث عن مخرج لهذا الخطأ تنتفي من حياة الجماعة ويحل محلها قاعدة "أفضح" حتى تسقط، بل الأمر أعلى من ذلك هو السعي إلى الإسقاط بالتقول عليه، وتلبيسه ما لم يكن منه –أي أن تبهته-قال الشاعر:

إن يسمعوا الخير يخفوه وإن سمعوا

شرا أذاعوا، وإن لم يبسمعوا أفكوا

حتى يصغر في عين الأتباع، ومن يراد استقطابه، وتكبر الجماعة في أعين هؤلاء، إنه من النفخ في البالون، إنه مرض الجماعات وضياع حقوق المسلم، في سبيل إقامة الجماعة وإشادة صرح لها بني على قواعد هشة، بل قواعد مزيفة فيها من هضم وضياع حق المسلمين وإسقاط كياناتهم الحظ الأوفر، إن الجماعات ذات الطابع الانغلاقي أشرس وأنكى وأبلغ في الطعن من خلال استخدام الجانب الإسقاطي للمخالف، وإلصاق العيوب به وبأفكاره، إن شيطنة المسلم للمسلم

(1) الحاكم 1/ 354، البيهقي 3/ 395، قال الحاكم: هذا صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي . وقال في المهذب: إسناده جيد 3/ 373، وقال ابن حجر: إسناده قوي، الدراية في تخريج أحاديث الهداية (140).

(2) الطبراني 8/ 337 رقم 8077، 8078.

(3) أحمد 6/ 119.

(4) المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية 5/ 249 رقم 796.

والجماعات بعضها لبعض لهو من أشد وأفتك الأمراض بالمجتمع المسلم، لما يترتب عليه من تشرذم الأمة وتشتيت طاقاتها وإضعاف كيانها، وتسهيل أمر الأعداء في الإجهاض على مشاريع الأمة، وهذه الجماعات المتناحرة هي من أسقطت بعضها بعض، ولم يكن هذا إسقاطا فقط، بل إن ذلك كان سببا لإسقاط المشروع الإسلامي في حياة الأمة، لأن هذه الجماعات رسمت في العقلية الإسلامية غير المنتمية، أو بعبارة أدق في الحاضن الاجتماعي للإسلام، إن الإسلام لا يستطيع أن يساير العصر، بل هو يولد التناحر والتنافر وتخلف الأمة، والإسلام حاشاه من كل ذلك، لكن هذا ما طبعته هذه الجماعات في العقلية والذهن المسلم، واستغله أعداء الإسلام لتحقيق أهدافهم، إن الجماعات ونظرية الإسقاط والعمل ليل نهار على ذلك في الوسط الدعوى قد أزكم أنوفنا وأقض مضاجعنا، وأوغر صدورنا.

إنني أذكر أنني كنت أعمل في مشروع كبير وقد استدعيت للعمل في هذا المشروع وكانت جماعة منغلقة قد جمعت فيه من الكوادر الحزبية بعض الأشخاص، واستطاعوا أن يهيمنوا على مسار هذا المشروع لكنهم لم يكن لديهم القدرة التامة لوضع نظام متكامل لهذه المؤسسة الحكومية، فاستعانوا بي وكنت أنتمي أصلا لهذا الاتجاه، لكنهم يعتبرون عدم تفاعلي مع الجماعة نوعاً من الفتور، الأمر الثاني أنهم يريدون احتوائي وتنشيطي حركياً، الأمر الثالث أنهم يتسلقون على قدراتي عند انعدام الأولى والثانية، وقد مكثوا وقتا طويلا لم يستطيعوا إنجاز المشروع، وفي إعداد متطلبات تلك الخطة وعمل نظام لهذه المؤسسة.

وعندما بدأت مشاركتي، بل عملي وكان مستقلا تماما، أنهيت قسما كبيرا من المشروع في بضعة أشهر، وأشادوا به وبقي القسم الثاني وكان لا يقل أهمية على القسم الأول، وبدأت فيه وطلبوا مني بعض الطلبات والتي أعلم أنها حزبية، وأخذت تتكشف لهم أني لم أعد أنتمي مطلقا، فلزموا الصمت حتى انتهى القسم الثاني، ثم أدرج في أدراج المسؤول ما يقارب السنة، وأخذ هذا المسؤول الحزبي يبين للمسئولين أن الخلل من عندي، ويستعمل كل ما في كنانته من سهام الحقد

والإسقاط، ثم ألحت الجهات العليا على هذا القسم ليعتمد واجتمع هؤلاء فأخرجت الحزبيون على محاولة طمس صورتي من الإعداد وإظهار أنهم هم من عملوه لكنهم فشلوا فاستدعوني وأنا أعمل في هذا المشروع متجردا إن شاء الله، لأنه يخدم المسلمين، ويحقق مصالح لهم، وأخذوا يسألونني على شكل اجتماع عن بعض القضايا ومفاتيحها فكنت لا أبخل بأي معلومة، فعمدوا من الاستفادة من ذلك، لكنهم فشلوا فشلا ذريعا في تطبيقها، وعملوا اجتماعا للنظر في إنجازاتهم وهو تحريف لبعض الأشياء في ما أعددت، وعند عرضه قلت إنه يخالف الأنظمة في كذا ويسبب الفشل في كذا وستكون المآخذ من الجهات الرقابية والتخطيطية كذاك وكذا فتجاهلوا الأمر ورفعوه، فكان كل ما قلته صحيحا بفضل الله وتوفيقه لا بجهدي وحنكتي، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله، فعادوا إلى ما أعددت وعينوا له ممثلا يتبناه على أنه من إنجازه أمام الجهات العليا في تلك الوزارة، وكان بعض من في الجهات العليا يعرف أن هذا الإعداد والإنجاز لي، لأنني بقيت معه بعض الوقت، لأن الإعداد كان يستدعي ذلك، فصدم من ذلك وسألني لماذا لم تمثل جهتك وتأتي مع ما أعددت والذي أظهر فلان أنه من إعداده، نحن نعمل من أجل الله وغيرنا يريد أن يحقق مكاسب لذاته على حساب الآخرين وطال النقاش مع ذلك المسؤول والشواهد كثيرة.

إن الإسقاط عند الجماعات منهج راسخ سواء على مستوى إسقاط الأفراد المستقلين، أو الذين يراجعون وضعهم في العمل الجماعي بنظام الجماعات فتراجعوا عنه وهم كثر، وبالذات في وسط الكوادر العلمية المرموقة، أو المنتمين لتيار مخالف، أو إسقاط التيار المخالف بجذافيره.

يقول الشيخ الوادعي –رحمه الله–: "ومن أكبر الأدلة على ذوبان هذه الجماعات أن جماعة الإخوان المسلمين التي كانت تعتبر أكبر جماعة في اليمن قد

أوشكت على التدهور، فهذا رئيسها الأخ الفاضل عبد الملك بن منصور[1] قد تبرأ منهم وهو يعتبر رأسا من أهل السنة، ولا تسأل عن مفترياتهم عليه حتى لا تصدقهم، إذا قالوا فلان شيوعي، أو بعثي، أو تكفيري لما صبوا عليه من الأكاذيب بسبب تركه للجماعة[2].

إن نظرية الإسقاط ومحاولة سلب مقومات الغير عن طريق التشويه، أو كيل التهم، أو تتبع السقطات، أو إعادة تاريخه إذا كان له محطات في حياته، وجعل أسوأ محطات عمره هي واجهته الحقيقية، والويل كل الويل لمن قد كان منتميا ثم تخلى عن انتمائه، إن الجماعة تجند كل قدراتها وإمكاناتها لإسقاطه، وأذكر أن الدكتور الأحمري عندما تخلى عن الانتماء لبعض الجماعات المغلقة كالت له كل التهم ولبسته ثوب كل نقيصة، ثم كونت لجنة متابعة تتابع كل ما يكتب وجمعها، وأذكر أن أحد أفراد هذه اللجنة أهدى إليه ملفاً كاملاً للعملية، ثم صاغوا بعض الردود التي يريدون من خلالها إسقاطه، فكتب بندر الشويقي ردوداً تحت إشراف الجماعة، والدافع للأحمري وعشرات العقليات الأكاديمية في ترك ذلك لما يمارس من مصادرة لشخصية المنتمي، وسلب الإرادة الحرة من حياته، ولما يفرض من كابوس ظلامي على الأتباع مما دفع بالأحمري وغيره إما الانقلاب المطلق، والبحث عن تنوير الأمة وإخراجها من وصاية الجماعات، وإن كنا لا نؤيد هؤلاء في بعض من أطروحاتهم، لكننا نحمل ذلك الجماعات المغلقة التي مارست شيئاً من الضغط والإرهاب النفسي والفكري على الأتباع والذين عندهم شمولية في التفكير وتحرر في الرؤى وحب في ممارسة حرية التفكير وأن يفكر بعقله لا بعقل غيره، ولا يفكر عنه غيره.

(1) عبد الملك منصور ترك الجماعة ونشر وفضح أمرها وأسرارها لا لشيء إلا حبا في الزعامة، إلا أن الجماعات سواء السرورية، أو الإخوان أبرز ما يتهم به المخالف بأنه من الأمن، وأنه عميل.

(2) وقفات مع كتاب للدعاة فقط (93).

إن محاولة إسقاط الآخر على مستوى الجماعات حَدِّث عنه ولا حرج، فكل جماعة تكيل التهم وأنواع المخالفات الشرعية والتبديع لغيرها، وتنتقل وتقرأ ما في فكر الجماعة الأخرى، فإذا بها تكيل بنفس الميكال وتكيل نفس التهم وتظهر كل واحدة أنها الفرقة الناجية والجماعة الأم، وغيرها من الفرق الهالكة، والشباب مساكين يبحثون عن النجاة، إن هذا ديدن الجماعات، فالإخوان يتهمون غيرهم بالحزبية، وشق عصا المسلمين، والسرورية تتهم الإخوان بالحزبية والبعد عن منهج النبوة في الدعوة وهكذا، وكلا الجماعتين وغيرهما تتبنى هذه التهم واستخدام نظرية الإسقاط لبناء جدر من الوهم، فالأخطاء كالحزبية، والبيعة، والتعصب، والولاء والبراء، والجماعة أولا وغيرها موجودة عند الجميع.

إن الهوى إذا تشربته القلوب وأسس في الأذهان في رؤية الآخرين بالمخطئين، وجماعته هم أهل الحق المبين وقع الزيغ والغواية في حق المسلمين.

وهذا خلاف منهج من سلك مسلك الهدي النبوي، في تلمس الأعذار والبحث عن مخارج، والبعد عن إسقاط الآخرين، لأن العيوب لا تخص، بل هي عامة سواء على مستوى العلماء، أو العامة.

عن عائشة –رضي الله عنها– أن رسول الله ﷺ قال: "أقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم، إلا الحدود"[1].

ومن حديث ابن مسعود –رضي الله عنه– بلفظ: "أقيلوا ذوي الهيئات زلاتهم"[2].

(1) أحمد 6/ 181، أبو داود 4/ 540 رقم 4375 وغيرهما.

(2) الطبراني في الأوسط رقم 7558، تاريخ أصبهان 2/ 334، قال الألباني: صحيح، سلسلة الأحاديث الصحيحة 2/ 234 رقم 638.

يقول سعيد بن المسيب –رحمه الله-: "إنه ليس من شريف، ولا عالم، ولا ذي فضل إلا فيه عيب، ولكن من الناس من لا ينبغي أن نذكر عيوبه، ومن كان فضله أكثر من نقصه، وهب نقصه لفضله"[1].

ليس معنى ذلك أن يوهب نقصه لانتمائه، وينشر كل عيب وإن دق إذا خالف، أو لم يكن منتميا وكان بمصطلح الجماعات في العامة، وإنما تقال عثرات من كان له مكانة ودرجة في العلم الشرعي لا الجماعة.

يقول ابن قيم الجوزية –رحمه الله-: "ومن له علم بالشرع والواقع يعلم قطعا أن الرجل الجليل له في الإسلام قدم صدق –لا في الجماعة- وآثار حسنة، وهو من الإسلام وأهله بمكان، قد تكون منه الهفوة والزلة هو فيها معذور، بل مأجور لاجتهاده، فلا يجوز أن يتبع فيها، ولا يجوز أن تهدر مكانته وإمامته ومنزلته من قلوب المسلمين"[2] وقرره قبله الإمام النووي في رياض الصالحين.

ما أعظم فقهكما أيهما الإمامان الجهبذان الربانيان النووي وابن القيم والعلماء الربانيون، أين من صادر الحقوق وجعلها حصرية للجماعة، أين من جعل أمر الاجتهاد واحدا، وهو ما وافق رأي الجماعة وما خالفه فإن المخالف مأزور لا مأجور، أين البعد عن تشويه الحقائق لإسقاط الآخرين، فما بالك بالأخطاء جعلها أمنية لإسقاط الآخر.

إن قوله ﷺ فيما يرويه أبو هريرة: "المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، التقوى هاهنا، ويشير إلى صدره ثلاث مرات، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه"[3].

(1) صفة الصفوة 1/ 191.

(2) إعلام الموقعين 4/ 51.

(3) تقدم.

ما أكثر حقر واحتقارات الجماعات وبالذات المنغلقة منها، وعند الله تجتمع الخصوم .

وعن أبي موسى الأشعري –رضي الله عنه– قال: قالوا: يا رسول الله . أي الإسلام أفضل؟ قال ﷺ: من سلم المسلمون من لسانه ويده"[1].

إن الجماعات لها لجان متابعة لمثالب المستقلين، وقد اطلعت على بعضها ونشرها من الأتباع لإسقاطهم من حياتهم.

إن الباعث على الإسقاط ما تشربته القلوب من الحقد والكراهية وتحقيق مكاسب للجماعة على حساب غيرها من الجماعات، أو على حساب الأفراد المستقلين من الدعاة .

فكم عمدت تلك الجماعات إلى اتهام كثير من الدعاة بالعمالة وأنه يكتب تقارير دورية وأن حركاته مشبوهه وتحذر الأتباع منه وهو أنقى وأزكى مما يقولون إنها نظرية الإسقاط .

إن قاعدة من لم يكن معنا فهو ضدنا هي قاعدة تعامل الجماعات مع أفراد المجتمع المساكين الذي ألحقت الجماعات بهم الويلات وألصقت بهم التهم، وزاحمتهم في حياتهم، وأوشت بهم إلى الجهات ذات العلاقات الأمنية، كل الجماعات بدون استثناء، وتحت مسمى "مصلحة الدعوة" كيف يكون هذا الإسقاط لمصلحة الدعوة، بل والله إنه لمصلحة الجماعة وضد مصلحة الدعوة.

إن الجماعات ذات ذاكرة رائعة في تذكر المثالب، وتذكر الأخطاء وذات ذاكرة منعدمة عند محاولة تذكر المناقب والإيجابيات.

يقول الشعبي: "لو أصبت تسعا وتسعين مرة وأخطأت مرة واحدة لأعدوا علي تلك الواحدة"[2].

---

(1) البخاري 1/ 21 رقم 11.

(2) سير أعلام النبلاء 4/ 308، حلية الأولياء 4/ 320، 321 وقد وردت هذه المقولة عن عدد من السلف.

يقول الشاعر :

إن يسمعوا سيئة طاروا بها فرحا

مني وما يسمعوا من صالح دفنوا

وحري بنا أن نقف مع هذا الموقف الرائع من معاوية –رضي الله عنه– وأن تأخذ منه القيادات المربية، ورموز الجماعات نبراسا ومثالا يحتذى به.

يقول الزهري: حدثني عروة، أن المسور بن مخرمة أخبره أنه وفد على معاوية فقضى حاجته، ثم خلا به، فقال: يا مسور، ما فعل طعنك على الأئمة؟ قال: دعنا من هذا وأحسن، قال: لا والله لتكلمني بذات نفسك تعيب علي، قال مسور: فلم أترك شيئا أعيبه إلا بينته له، فقال: لا أبرأ من الذنب فهل تعد لنا يا مسور ؟ نلي من الإصلاح في أمر العامة، فإن الحسنة بعشر أمثالها، أم تعد الذنوب وتترك الحسنات؟ قال: ما نذكر إلا الذنوب . قال معاوية: فإنا نعترف لله بكل ذنب أذنبناه، فهل لك يا مسور ذنوب في خاصتك تخشى أن تهلكك إن لم تغفر . قال: نعم. قال: فما يجعلك لله برجاء المغفرة أحق مني، فوالله ما لي من الإصلاح أكثر ما نلي، ولكن والله لا أخير بين أمرين بين الله وغيره إلا اخترت الله على ما سواه. وإني لعلى دين يقبل فيه العمل، ويجزى فيه بالحسنات، ويجزى فيه بالذنوب إلا أن يعفو الله عنها . قال: فخصمني، قال عروة: فلم أسمع المسور ذكر معاوية إلا صلى عليه[1].

ونلاحظ أن الذين ابتلوا بداء الحزبية عندما ينتقصون من خالفهم إنما يغفلون ذلك بغلاف براق هو وجوب النصيحة والتوجيه لمن أخطأ، وهم في حقيقة الأمر إنما يقومون بالتشهير ومحاولة الإسقاط بحجة تبيين الحق، وهي غيبة أريد منها الانتقاص وإسقاط ذلك الشخص، أو الجماعة، أو الهيئة.

(1) سير أعلام النبلاء 3/ 150، 151 .

وما تقوم به الجماعات من تسجيل كما فعل مع الشيخ طارق عبد الحليم، وغيره كثير وتتبع أقوال الخارجين عن الجماعة كمحمد الأحمري، وحاتم الشريف وغيرهما، وتسخير من يرد لا للرد ذاته وإنما إسقاط رمز معين سواء اتفقنا معه، أو اختلفنا، ولي من بعض ما يطرح موقف، وقد أشرت إلى ذلك، وكذلك الشيخ سلمان العودة وغيرهم، وليس المقام ذكر ذلك، وسوف يكون في مكانه المناسب إذا أمكن، وهذه الطريقة والمنهج السروري منهج مخالف لتوجيهات الرسول ﷺ حيث قال: "يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من اتبع عوراتهم يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته"[1].

إن التنبيه على الأخطاء والمخالفات بالطرق الشرعية وان يكون ذلك بتجرد وبعيد عن التشفي ومحاولة الإسقاط مطلوب.

وما أجمل ما ذكره ابن قيم الجوزيه في هذا الباب حيث يقول: "والفرق بين النصيحة والغيبة، أن النصيحة يكون القصد منها تحذير المسلم من مبتدع، أو فتان، أو غاش، أو مفسد فتذكر ما فيه إذا استشارك في صحبته، ومعاملته والتعلق به ... فإذا وقعت الغيبة على وجه النصيحة لله ولرسوله وعباده المسلمين فهي قربة لله من جملة الحسنات، وإذا وقعت على وجه ذم أخيك، وتمزيق عرضه والتفكه بلحمه، والغض منه لتضع منزلته من قلوب الناس –أي إسقاطه– فهي الداء العضال ونار الحسنات التي تأكلها، كما تأكل النار الحطب"[2].

ويقول: "والفرق بين النصيحة والتأنيب أن النصيحة إحسان إلى من تنصحه بصورة الرحمة له، والشفقة عليه، والغيرة له وعليه، فهو إحسان محض يصدر عن رحمة ورقة"[3].

(1) أبو داود 5/ 194 رقم 4880، وقال الألباني صحيح.

(2) الروح (240).

(3) الروح (258).

16-32: البيعة

إن عقد الولاء والبراء للجماعة المتمثل في البيعة للجماعة والسمع لها في المنشط والمكره، والعسر واليسر، والرضا والغضب، من مقتضيات الانتماء للجماعة، وهذه البيعة للجماعة لا تتم صفقة الأكف إلا بعد أن يكون المنتمي إليها قد بلغ درجة الوعي الحركي للجماعة، وأن هذه البيعة عقد لا يجوز النكوث فيه، وخاصة عند الجماعة المنغلقة، وهي من الأمور الأشد خفية في نظام الجماعة خوفا من إطلاع الناس عليها (والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس)، وقد كان أمر البيعة أخف في التستر والخفاء حتى أصبحت من معالم البدعة عند من يتهم الجماعات ذات البيعة ويتهجم عليها كجماعة الإخوان مثلا، فكان لذلك صداه واهتزازاته الارتدادية عند غيرها من الجماعات وبالذات المنغلقة، والبيعة تختلف من بلد إلى بلد، فإذا كان البلد تكثر فيه الوهابية، والجماعة ممن تدرع بهذا المنهج، فإن درجة البيعة قد تصل إلى درجة الانعدام السائد، والسبب في ذلك هو حساسية هذا الأمر عند الوهابية الخلص، كما يسميهم الجماعات والأحزاب والفرق والطوائف بالذات ذات الطابع التنظيمي والصوفية الطرقية ومثلهم الرافضة.

وهذه البيعة الخاصة والتي تعقد للجماعة ومبناها الولاء والبراء، فإنها بيعة باطلة في نظر جمع من العلماء، لأنها طريق الفرقة والفشل، فهي غير مشروعة لا دليل عليها من الكتاب والسنة.

سئل الشيخ ابن عثيمين –رحمه الله– هل يجوز أن يكون في عنق الشخص بيعتان بيعة للوالي وبيعة لزعيم حزب، فأجاب: لا يجوز للإنسان أن يكون في عنقه بيعتان بيعة لولي الأمر العام في البلد وبيعة لرئيس الحزب الذي ينتمي إليه، وقول النبي ﷺ في المسافرين "إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم لا يعني ذلك أنهم يعطونه بيعة، ولكن ذلك يعني أنه لابد للجماعة من شخص تكون له الكلمة

عليهم حتى لا يختلفوا، وهذا مما يدل على أن الاختلاف ينبغي أن يسد بابه بكل طريقة"[1].

ويقول الشيخ مقبل الوادعي –رحمه الله-: "أما كل جماعة تدعو إلى بيعتها فهذه الفرقة وهذا الفشل"[2].

ويقول د. أحمد الطحان: "أما البيعات والعهود والمواثيق التي تؤخذ من الشباب فهي غير شرعية".

قال الإمام القرطبي –رحمه الله-: "فأما إقامة إمامين، أو ثلاثة في عصر واحد وبلد واحد فلا يجوز إجماعا، فكل جماعة الآن لها إمام وما أكثر الأئمة"[3].

وبطلان هذه البيعة كما قال الشيخ مقبل أنها مؤدية للفرقة، وفشل الأمة، وهذا لا منازعة في أن البيعة الخاصة التي يعقد أصحابها الولاء والبراء على أساسها فيكفرون ماعداها، أو يبدعونه، أو يفرقون بها الأمة بيعة باطلة"[4].

هذا النوع من البيعات والتي لم تكن معهودة بالصورة التي تتبعها الجماعات لا تستند إلى دليل واضح يسند هذه البيعة، أو تركن إليه في نظر من يقرر ذلك في نظم وقواعد جماعته الحركية والتنظيمية.

يقول الشيخ بكر أبو زيد: وهذه بيعة بدعية محدثة، لا دليل عليها من كتاب ولا سنة، ولا عمل صحابي، وقد أنكرها جماعة من العلماء، وشددوا النكير على فعلتها، وأنه لا أصل لها.

ثم انتقلت بمسلاخ آخر على بعض الجماعات الإسلامية المعاصرة حتى بلغ الحال إلى وجود عدة جماعات من ورائها عدد من العهود والبيعات في بلد واحد

(1) الصحوة الإسلامية (135) سؤال (70).

(2) غارة الأشراط 2/ 23.

(3) الحركات الإسلامية بين الفتنة والجهاد (495).

(4) الثوابت والمتغيرات (234) للصاوى.

وكل واحدة منها تدعو إلى ما هي عليه دون ما عليه الأخرى فضاع من بينهم الميثاق النبوي لجماعة المسلمين "ما أنا عليه وأصحابي".

وهكذا تقطع جسم الأمة الإسلامية بين بيعات طرقية في أجواف الزوايا إلى بيعات حزبية في المواجهة، وصار الشباب في حيرة إلى أي حزب ينتمي، ولأي رئيس تنظيم يبايع، والبيعة عهد وعقد يقتضي الولاء والبراء، فهل إذا أتم بيعته يذهب إلى الجماعات الإسلامية يدعو إلى مثل ما هو عليه وحزبه، أم ماذا؟! .... وإن البيعة في الإسلام واحدة من ذوي الشوكة (أهل الحل والعقد) لولي أمر المسلمين وسلطانهم، وإن ما دون ذلك من البيعات الطرقية، والحزبية في بعض الجماعات الإسلامية المعاصرة كلها بيعات لا أصل لها في الشرع لا من كتاب الله ولا سنة رسول الله ﷺ ولا عمل صحابي ولا تابعي، فهي بيعات مبتدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل بيعة لا أصل لها في الشرع فهي غير لازمة العهد"[1].

والبيعة ليست وليدة العصر، بل هي وليدة الطرق الصوفية، والمذاهب الباطنية، والرافضية، وإن نوعا من البيعات جائز لكنها ليست بيعة ولاء وبراء كما عند هذه الجماعات وتلك المذاهب، بل هي بيعة نصرة، أو بيعة قام أمرها على التخلي عن البيعة العامة لاختلال تلك البيعة العامة.

ومن أمثلة بيعة النصرة وهي ما يسميه البعض بالبيعة الصغرى، وهي تحت البيعة الكبرى وتحت لوائها وفي العلن ولجميع المسلمين الحاضرين.

وهذه البيعة من باب الاستباق والنصرة والتعاهد، كما كان من عكرمة بن أبي جهل حين دعا الصحابة من يبايعه على الموت فبايعه الحارث بن هشام، وضرار بن الأزور في أربعمائة من المسلمين من وجوههم"[2] .

(1) حكم الانتماء (162، 163).

(2) الفصل في الملل والنحل 4/ 130.

فهذه كما ترى بيعة صغرى محددة الميثاق مكانية البيعة محدودة الزمان، معلنة المشاركة، وعلى علم لدى قيادة الجيش، لا تختزل الولاء والبراء في المشاركين، ولا تخل بالبيعة الكبرى، بل هذه من تعزيزها .

أما فعل الصحابة وأهل المدينة حين خرجوا على يزيد وخلعوا بيعته، واختاروا عبد الله بن حنظلة الغسيل أميرا عليهم، وكانوا يبايعون ابن حنظلة على الموت"[1].

وغيرها كبيعة الحسن سنة (61 هـ) وابن الأشعث، وخروج يزيد بن عبد الملك على ابن عمه الوليد بن يزيد بن عبد الملك (126هـ)، وخروج محمد النفس الزكية (145هـ)، وخروج أخيه إبراهيم بن عبد الله، وخروج أحمد بن نصر الخزاعي (231هـ)، وغير ذلك من هذا النوع من المبايعة لا تدل على ما تذهب إليه الطوائف والأحزاب من إعطاء الولاء والبراء للجماعة فقط، وإنما هذه كانت للأمر بالمعروف والمراد بها إقامة الوالي، أو تنحيته، وليس المراد تحقيق ولاء وبراء وتمكين للجماعة، وتلك لدفع الباطل وتحقيق الحق والنفع العام، والولاء والبراء فيه للمسلمين أجمعين على خلاف عمل الجماعات.

يقول ابن عثيمين –رحمه الله–: "إن كنا قادرين على إزالته فحينئذ نخرج، وإذا كنا غير قادرين فلا نخرج، لأن جميع الواجبات الشرعية مشروعة بالقدرة والاستطاعة، ثم إذا خرجنا فقد يترتب على خروجنا مفسدة أكبر وأعظم مما لو بقي هذا الرجل على ما هو عليه لأننا خرجنا ثم ظهرت العزة له صرنا أذلة أكثر، وتمادى في طغيانه وكفره أكثر"[2].

وقد نقل ابن حجر عن ابن التين قوله: "الذي عليه العلماء في أمراء الجور أنه إن قدر على خلعه بغير فتنة ولا ظلم وجب، وإلا فالواجب الصبر"[3].

(1) الكامل لابن الأثير 4/ 103.

(2) الباب المفتوح 3/ 126، لقاء (51) سؤال (1222).

(3) فتح الباري 13/ 11 .

علما أن البيعة الخاصة لا تعارض البيعة العامة من حيث حقوق الولاية العامة، ولا تؤثر في وجوب الطاعة بالمعروف للإمام، إذا اختارته الأمة بالشورى، أو كان توليه أصبح شرعيا، فحق الإمام الشرعي العام وولايته العامة لا تعارض بما يزاحم حقوقها بحقوق بيعة أخرى، بل هى تحت سمعها وبصرها.

يقول ابن تيمية –رحمه الله-: "يحسن أن يقول الشيخ لتلميذه عليك عهد الله وميثاقه أن توالي من والي الله ورسوله، وتعادي من عادى الله ورسوله، وتعاون على البر والتقوى، ولا تعاون على الإثم والعدوان، وإذا كان الحق معي نصرت الحق، وإن كنت على باطل لم تنصر الباطل، فمن التزم هذا كان من المجاهدين في سبيل الله –تعالى- الذين يريدون أن يكون الدين كله لله، وتكون كلمة الله هي العليا"[1].

بعكس تلك البيعات التي تحصل للجماعات ذات التوجه التنظيمي الصرف والخلايا العنقودية، والمناهج الدعوية والتي تتخفى تحت شعارات، وتعمل في الزوايا المظلمة بعيدا عن الأمة وعلم الولاية الإسلامية الشرعية إن وجدت، وأهل الحل والعقد عند انعدام الولاية العامة، بل إن أهل الحل والعقد غرض لسهام تلك الجماعات، وبتر لهؤلاء الأتباع من جسم الأمة، وإضعاف لكيانها، وأكبر دليل على ذلك صراعات تلك الجماعات في الخفاء، وقد يظهر للعيان بعض ذلك في المناطق الساخنة وتقوقع أفراد كل جماعة تحت راية الجماعة الحسية، أو المعنوية كما في البلاد التي لا يستطيعون إظهارها حسيا.

وتصور تلك الجماعات على أنها تحمل الجين الوراثي الذي لا يوجد عند غيرها وأن تلك الجماعة تحمل من الصفات والقداسة ما يجعلها أرفع درجة وأعلى مكانة وأحق بالإسلام من غيرها، ولهذا الميزة يجب التسليم لتلك الجماعة والانقياد لها، والذي قد يتمثل في البيعة بشروطها كما في بيعة العقبة الأولى والثانية، والتي

(1) مجموع الفتاوى 21/ 28.

تدرس في الجلسات التربوية وتعاد، ويطلب تحضيرها من الجميع وهذا للمبتدئين، وهو خال الوفاض من شيء اسمه بيعة وعندما تناقش وتشرح ويربط الشاب بمفاهيم البيعة حسب تصور الجماعة فإنه يصبح من القضايا المسلم بها لبيعة الجماعة دون شعور، فإن هذه الدروس تولد عند الشاب قبول الأوامر كاملة، لأنه يريد أن يتبع ما كان عليه الصحابة –رضوان الله عليهم– مع رسول الله، وهذه التربية تجعله يدور في فلك البيعة، وإن لم يعرف بها تنظيمياً إلا أنه يطبقها عملياً، وهذا من البعد التربوي عند الجماعات، واستراتيجيات إحكام الوصاية، وغموض الجماعات، وتكريس صرف الولاء والبراء للجماعة، والسمع والطاعة في المنشط والمكره وليست قصة تلك القرود ببعيدة عنا.

وعندئذ فإن مبدأ البيعة للجماعة يمارس في نطاق ضيق جدا، إن لم يكن معدوما، لاستغناء الجماعات بالتربية الفكرية وتطبيقاتها العملية، وتحويل ذلك إلى واقع تنظيمي عملي، وقد يكون للبيئة أثر في إظهار البيعة، أو إخفائها.

يقول الشيخ طارق عبد الحليم: "وقد قضيت معه –أي محمد سرور– ما يقرب من ثلاث سنوات لم أعرف على وجه اليقين أن لهم تنظيماً إلا بعد أن عرض الرجل عليه بيعتهم"[1].

ودلالة أن هذه البيعة فيها ولاء وبراء أنه عندما امتنع عن بيعته قطع عنه كل اتصال سواء علمياً، أو أخوياً، بل هجره تماماً، بل إنه اتهمه في تصوره وعقيدته، هذا كبير القوم فكيف بالأتباع ويحاكي صغار القوم فعال كبارهم، وهذا يدل أن بيعة هذه الجماعات هي ولاء وبراء وكل جماعة لها بيعتها لجماعتها.

يقول ابن تيمية –رحمه الله–: "من حالف شخصا على أن يوالي من والاه ويعادي من عاداه، كان من جنس التتر المجاهدين في سبيل الشيطان، ومثل هذا ليس

(1) موقع طارق عبد الحليم (السرورية في الميزان).

من المجاهدين في سبيل الله ولا من جند المسلمين، ولا يجوز أن يكون هؤلاء من عسكر المسلمين، بل هؤلاء من عسكر الشيطان"[1].

يقول مطرف بن عبد الله الشخير: كنا نأتي زيد بن صوحان، وكان يقول: "يا عباد الله أكرموا وأجملوا، فإنما وسيلة العباد إلى الله بخصلتين: الخوف والطمع، فأتيته ذات يوم وقد كتبوا كتابا فنسقوا كلاما من هذا النحو: إن الله ربنا، ومحمدا نبينا، والقرآن إمامنا، ومن كان معنا كنا وكنا، ومن خالفنا كانت يدنا عليه وكنا وكنا . قال: فجعل يعرض الكتاب عليهم رجلا رجلا . فيقول: أقررت يا فلان، حتى انتهوا إلي . فقالوا: أقررت يا غلام ؟ قلت: لا قال: لا تعجلوا على الغلام، ما تقول يا غلام . قال: قلت: إن الله قد أخذ علي عهدا في كتاب الله، فلن أحدث عهدا سوى العهد الذي أخذه الله –عز وجل– علي . قال: فرجع القوم من عند آخرهم ما أقر به أحد منهم . قال قتادة: فكان مطرف إذا كانت فتنة نهي عنها وهرب"[2].

يقول ابن تيمية: "ليس لأحد أن يأخذ على أحد عهدا بموافقته على كل ما يريده وموالاة من يواليه، ومعاداة من يعاديه، بل من فعل هذا كان من جنس جنكيزخان وأمثاله الذين يجعلون من وافقهم صديقا مواليا، ومن خالفهم عدوا باغيا، بل عليهم وعلى أتباعهم عهد الله ورسوله بأن يطيعوا الله ورسوله، ويفعلوا ما أمر الله به ورسوله، ويحرموا ما حرم الله ورسوله ....، وإذا اجتمعوا على طاعة الله ورسوله، وتعاونوا على البر والتقوى، لم يكن أحد مع أحد في كل شيء، بل يكون كل شخص مع كل شخص في طاعة الله ورسوله، ولا يكونوا مع أحد في معصية الله ورسوله، بل يتعاونوا على الصدق، والعدل، والإحسان، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونصرة المظلوم، وكل ما يحبه الله ورسوله، ولا

(1) الفتاوى 28/ 20/ 21 .

(2) سير اعلام النبلاء 4/ 192.

يتعاونوا لا على ظلم، ولا عصبية جاهلية، ولا اتباع الهوى بدون هدى من الله، ولا تفرق ولا اختلاف ... بل تجمعهم السنة وتفرقهم البدعة يجمعهم فعل ما أمر الله به ورسوله، وتفرق بينهم معصية الله ورسوله، حتى يصير الناس أهل طاعة الله، أو أهل معصية الله، فلا تكون العبادة إلا لله –عز وجل- ولا الطاعة المطلقة إلا له سبحانه ولرسوله ﷺ"[1].

وهذا ما يجعل المسلم يقف مشدود الفكر وشريد الذهن يفكر في أمر هذه الجماعات وتعدد البيعات، فلابد أنها باطلة جميعا، لأنها لا تكون البيعة إلا لإمام المسلمين الذي توفر فيه شروط الإمامة، أو من يحل محله عند انعدامه من أهل الحل والعقد، مع تعددها إما ان يبايع الجميع، أو يترك الجميع والترك هو الأصوب.

يقول ابن حجر، عن عبد الله بن عمر –رضي الله عنهما-: "امتنع ان يبايع علياً، أو معاوية ثم بايع لمعاوية لما اصطلح مع الحسن بن علي إلى قتل ابن الزبير، وانتظم الملك كله لعبد الملك بن مروان، فبايع له حينئذ، وروي عنه أنه كان يقول أكره أن أبايع أميرين قبل أن يجتمع الناس على أمير واحد"[2].

وقد نهى رسول الله ﷺ أن يبايع لأكثر من خليفة وامر بقتل الآخر ولا يكون القتل إلا لأمر عظيم.

عن أبي سعيد الخدري –رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: "إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما"[3].

وإن هذا المبايع له لابد أن يكون أهل الشوكة هم من بايعه.

يقول عمر –رضي الله عنه-: "من بايع رجلا على غير مشورة من المسلمين فلا يتابع هو ولا الذي بايعه تغره أن يقتلا"[4].

---

(1) الفتاوى 28/ 16، 18، 19 .

(2) الوجيز في فقه الخلاف (77، 78).

(3) مسلم 3/ 1480 رقم 1853/ 61 .

(4) البخاري 4/ 257 رقم 6830، وأحمد 1/ 372.

وجاء "لا بيعة إلا عن مشورة"[1].

قال ابن حجر –رحمه الله–: "والمعنى أن من فعل ذلك فقد غرر بنفسه وبصاحبه وعرضهما للقتل"[2].

ومنع تعدد البيعات في الإسلام لينتظم أمر المسلمين وينزع فتيل الخلاف، وتمنع تعدد الرايات التي تحول الأتباع إلى جيوش متصارعة، وما أمر الرايات في أفغانستان إلا خير شاهد، وما يحدث في سوريا الآن، وإن كان إذا عمت الفوضى في بلد، وانعدمت الولاية العامة، ولم يظهر أهل الحل والعقد، ولم يعلم منهم فإن المسألة تأخذ اجتهادا فقهيا آخر يراعى فيه الوحدة وعدم تعدد الرايات ما أمكن إلى ذلك سبيلا، ويسعى إلى تقليل الرايات وتوحيدها إن أمكن الأمر ولم يتعسر بسبب ظروف خارجة عن تلك الرايات، أما إن كانت الرايات يمكن توحيدها لكنها لم تحقق ذلك لنزعة حزبية، أو لاتباع هوى، أو عصبية جاهلية، فالتحاكم إلى كتاب الله ورسوله، ومن أبى ذلك كان باغيا فيجب ان يدعى إلى حكم الله ورسوله لأن قتل من أراد شق عصا المسلمين مباح شرعا.

قال الله تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (الحجرات: 9، 10).

(1) تاريخ المدينة لابن شيبه 3/ 933.

(2) فتح الباري 12/ 150.

17-32: الانكفاء المعرفي

إن من أسس ما تمارسه الجماعات على الأتباع ويمارسه المشايخ داخلها على المريدين من مصادرة الفكر وممارسة حق الوصاية، والانكفاء المعرفي لدى الجماعة، وتوحيد مصدر التلقي حتى يتسنى للجماعة ممارسة أهدافها الاستراتيجية، والتربوية، والتنظيمية، والبناء الفكري الذي يستلهمه الفرد في كل منعطفات الحياة، فيصدق في ولائه وتسليمه المطلق دون تردد، أو تفكير وكأن القضية من قضايا العقائد، بل من قضايا الغيبيات التي لا يسع المرء إلا التسليم بها والإيمان، إن سد كل نوافذ المعرفة عند الجماعات إلا نافذة الجماعة قولب لنا الأفكار وأخرج لنا عشرات الأشخاص بسمات وحدود معرفية واحدة، وتصورات وقيم يتفق فيها جميع الأفراد، إنها القولبه الفكرية، بسبب الانكفاء المعرفي لدى الجماعات، وبالذات المنغلقة منها، فقد يمكث الشاب سنوات مع مرب واحد يمنع أن يتصل بغيره داخل الجماعة الواحدة، فمن باب أولى خارجها، وهذا الشاب، أو المريد لن يتغير عليه الأمر كثيرا عند انتقاله من مسئول إلى مسئول آخر، والسبب أن الجماعات المنغلقة وضعت مناهج تربوية من خلال هذه المناهج يحدد مستوى الشاب، وإذا انتقل رفع عنه تقرير إلى مسئول المجموعة، والذي بدوره يوصله عبر قنوات الاتصال حتى يصل إلى المسئول الجديد ويبين أن هذا الشاب وصل المستوى الفلاني ويحدد بالدرس والجلسة وعددها في هذا المستوى، ومن هنا جعل الانكفاء المعرفي داخل الجماعة دون تلاقح الأفكار وتوسيع المدارك، قل لي بربك إذا جلس الشاب عشر سنوات، أو أقل، أو أكثر يقولب فكريا، وعلميا، وحركيا، واجتماعيا، وشخصيا، كيف تتصور رؤيته للآخرين، إنها تخرج لنا شباباً ذوي حزبية معرفية وفكرية تنظيمية، وتصورية يسهل بذلك قيادته ويكون مطيعاً طاعة عمياء للجماعة ينفر من غيرها.

يقول أحمد فهمي: "صناعة نماذج مشابهة من الأعضاء في الآراء والمواقف والقررات، وعادة ما يدفع لإيجاد هذا التشابه وترشيحه دافعان رئيسان .

أولهما: رغبة العضو نفسه في ألا يكون مختلفا عن الآخرين داخل الكيان .

والثاني: رغبة الأعضاء بصفة جماعية في التحكم في توجهات الفرد داخل الكيان ليكون نسخة متكررة . وهذا التشابه بين الأعضاء يكون الهدف من إيجاده هو مساعدة الكيان في تحقيق أهدافه على اعتبار أن توحد التوجيهات والآراء ويقوي التماسك، ويجعل الكيان كوحدة موحدة، كذلك فإن هذا التشابه يساهم بقوة في الحفاظ على وجود الكيان وبقائه في حالة نشطة"[1].

إن الانكفاء المعرفي ينشئ لنا أفراداً لا يستطيع الواحد أن يكشف ذاته، أو جماعته وهذا من أهم مقاصد الانكفاء المعرفي التسليم وعدم القدرة على كشف الذات، أو الخلل التنظيمي الذي كرس جهوده في دفع هذا المريد يدفعه الحزب تحت حرب الأفكار، عن طريق الانكفاء المعرفي وكل ذلك في سبيل المحافظة على الكيان ولو سُحِقَ الشخص.

فهؤلاء لا يعرفون الحق إلا بمنظور الجماعة، ولا يستسلم الفرد وينقاد إلا لأفكارها وتصوراتها، مهما كان شطط تلك الأفكار والتصورات والخلل المعرفي لها، إن ذلك من الإفرازات التي أفرزها الانكفاء العلمي، ولهذا نجد أن الجماعات تسعى إلى إسقاط كل ما يخالف البناء المعرفي للجماعة، والذي أنشأه في دائرة الانكفاء المعرفي .

يقول الشيخ بكر أبو زيد –رحمه الله–: "قولنا صواب لا يحتمل الخطأ، وقول غيرنا خطأ يحتمل الصواب" يأتي اليوم في مسلاخ آخر، فخذ ما شئت من الوضع في استعمال النصوص بلي أعناقها عن دلالتها إلى التدليل بها على واقع الحزب ... وهكذا من جهود التأييد، وتشييد الأدلة، والبحث عن السنة لواقع الحزب،

(1) مستقبل السلفيين في مصر (42).

أو لجماعة فيه، والرد على المخالف، فالدين دين هذا الحزب، وتلك الجماعة، وهذا استخدام الكلمة (الدين للواقع) أي لواقع الحزب وجماعته!![1].

وهذا خلاف ما كان عليه السلف من قبول الحق والإذعان له.

ذكر ابن حجر –رحمه الله– عن عبيد الله بن الحسن العنبري ت (168) أحد سادات أهل البصرة وفقهائها وعلمائها وكان قاضيا . قال عبد الرحمن بن مهدي وكان تلميذه، كنا في جنازة فسألته عن مسألة فغلط فيها، فقلت له: أصلحك الله، القول فيها كذا وكذا، فأطرق ساعة ثم رفع رأسه. فقال: إذا أرجع وأنا صاغر، لأن اكون ذنباً في الحق أحب إلي من أكون رأساً في الباطل[2].

إن الجماعات والأحزاب المنغلقة بالذات تعيش هوس الإسلام الحصري على الجماعة، والحق عندها دون غيرها، وهذه إحدى الكُبَر، ومن هنا كان الإقصاء، والإسقاط، والانكفاء المعرفي، والتعصب، والتحزب، والحب، والولاء والبراء، وجواز التدرع، ومصادرة إنجاز الاخرين، وحب أن يحمدوا بما لم يفعلوا، إنها الحزبية أعمت وأصمت ولقد أسمعت لو ناديت حيا.

يقول المقبلي –رحمه الله–: "التقييد لأفهام ومعارف الأتباع، بأن لا ينظروا إلا بمنظار الشيخ، وأن لا يفكروا إلا بعقل واحد، وهو عقل الشيخ، دون إعمال العقل والفكر فيما يقول الشيخ.

وإذا نشط المذهبي (أو الحزبي) جعل مقالة الشيخ أصلا، وأعمل عقله وفكره لنصرة تلك المقالة من كل كتاب ومصنف قديم وحديث، والحق الذي يجب أن يوضع في نصابه هو جعل الكتاب والسنة أصلا، وعرض أقوال المشايخ والرجال عليها"[3].

(1) حكم الانتماء (147).

(2) تهذيب التهذيب 7/ 7 .

(3) العلم الشامخ في إيثار الحق على الآباء والمشايخ (235).

ويقول الدكتور الشريف حاتم العوني، وهو الذي سبر أمر بعض الجماعات المنغلقة، فقد تربى في أحضانها، وتشرب فكرها فترة من الزمن، وتقولب به لكن نادى الحرية، والانفتاح المعرفي، جعله يلقى بها ظهريا مما حدا بهذه الجماعة أن تجعله في مصاف اللبراليين والعلمانيين، وقطاع الطريق الفكري، فصبوا عليه الحمم الملتهبة ذات الانكفاء المعرفي، وشرقوا بذلك وغربوا، وأصبح حديث جلسات الجماعة المنكفئة معرفيا . يقول: أحب إليه تسمية الجماعات بأخطائهم، لا بمتبوعهم، ولا بمؤسسي مقالاتهم الباطلة، لأن التسمية بالخطأ تسمية أدق في التمييز مع تطاول الزمن، وأقرب إلى التجرد بالبعد عما يسمى بـ (الشخصية) .. فـ (السرورية) كما يسمون: هم السلفية الحزبية: لأن أخطأهم الذي يميزهم عن بقية السلفية - إن صح أنهم سلفية- يكمن في تحزبهم لما يجير الإسلام والانتساب الصحيح للسنة تحزبهم عليه، فهو تحزب الأفكار وترجيحات، إن لم تكن خطأ قطعيا -كبعض أخطائهم في التكفير والتبديع- فهي خطأ مظنون، او هي - في أحسن أحوالها- صواب مظنون -لا مقطوع- فلا تجيز ظنيتها التحزب عليها ولا تفريق الأمة بالنظر إليها.

والجامية كما يسمون: هم غلاة التبديع، لأنهم يتوسعون في التبديع جدا ويبالغون في التصنيف ... فما سلمت لهم شرذمتهم القليلة، فضلا عن عموم المسلمين سواهم.

هذه المسألة يتنازعها عند الجماعتين أمران، الأول: التأصيلات الفاسدة (باسم المنهج السلفي) والثاني: خطوات النفس الحزبية، أو الشخصية فتختلط فيها الشبهة بالشهوة ... إن السلفية الحزبية (المسماة بالسرورية وبالحركية والتنظيمية) لا تستطيع خوض جدال علمي منصف مع غلاة التبديع (المسمين بالجامية) لا تستطيع ذلك أصلا، لأن غلاة التبديع مطرودون مع مبادي تتفق عليها الجماعتان، لكن السلفية الحزبية تخالف هذه المبادئ ولا تلتزم بها وذلك كلما عرضت هذه المبادئ على التنظيم، وعندما لا تتفق تلك الأصول (المتفق عليها)،

مع مصالحهم الحزبية التي يسمونها "بمصالح الدعوة" وينسون أن هذا التنازل عن المبادئ لا يتفق مع غلوهم هم أنفسهم فيها، والذي أقاموا عليه تحزبهم وتقريرهم في تفريق الأمة، وفي تبديع مخالفيهم وفي اعتقاد احتكارهم هم للنجاة وفي اختصاصهم وحدهم بقلب (أهل السنة) ... وهذا دعم للتطرف –المعرفي– فأي تطرف أشد ممن يحتكر السنة في جماعة قليلة جدا من المسلمين"[1].

ومن يقرأ على العربية (صحوي سابق يكشف أسرار وخطايا) السرورية في السعودية يلحظ هذا الانكفاء المعرفي، إن هذا الانكفاء المعرفي أمر وليس مسلكا علمياً سليماً، بل هو مسلك الفرق والأحزاب ذات الطابع الانكفائي على ذاتها وشرذمة المجتمع، ثم إن في هذا الانكفاء مصادرة القدرات العلمية عند غيرهم من واقع أفراد الحركة، وهذا له أبعاده كما أسلفنا، علما أن بعض أفراد هذه الجماعات إذا أراد أن يعرف بنفسه وتلقيه للعلم لا يذكر أحداً من شيوخه الحزبيين، وإنما يتسلق على أكتاف المشايخ الكبار حتى يروج لنفسه، ويوجد له مكانة في الوسط العلمي، فيقول قال شيخنا عبد العزيز ابن باز، أو محمد ابن عثيمين ويذكر من تلمذته عليه، ولا يذكر المشايخ الطرقية.

إن الانكفاء العلمي مخالف لما سلكه علماء الأئمة قديما وحديثا من عهد الصحابة –رضي الله عنهم– لأن كثرة المشايخ ينمي الملكة ويرسخ العلم، ويظهر لك الحق.

يقول ابن خلدون: "إن الرحلة في طلب العلم ولقاء المشيخة: مزيد كمال في التعليم والسبب في ذلك أن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم، وما ينتحلون من المذاهب والفضائل تارة، علما وتعليما، ولقاءا وتارة محاكاة وتلقينا بالمباشرة،

(1) الإخوة الأعداء (السروريون والجامية).

إلا أن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين، أشد استحكاما وأقوى رسوخا، فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكة ورسوخها وتفتحها"[1].

ويقول الإمام أيوب السختياني: "إذا أردت أن تعرف خطأ معلمك فجالس غيره"[2].

ويقول مطر الوراق: "مثل الذي يروى عن عالم واحد مثل الذي له امرأة واحدة إذا حاضت بقي"[3].

وقد كانت من قواعد الطلب كثرة الشيوخ وهذا واضح في تراجم علماء الأمة، لأن في ذلك معرفة الحق، وتنوع المعارف، واستدراك ما قد يقصر فيه أحد عن أحد، ثم تعدد المشارب وعدم الانكفاء على طريقة، أو شيخ، أو حزب.

وعلى المشايخ الحزبيين أن لا يحزبوا طلبة العلم، وأن لا يقوقعوهم على الحزبيين فقط.

يقول ابن تيمية –رحمه الله-: "وليس للمعلمين أن يحزبوا الناس ويفعلوا ما يلقي بينهم العداوة والبغضاء، بل يكونوا مثل الأخوة المتعاونين على البر والتقوى، كما قال الله تعالى﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ ﴾ وليس لأحد منهم أن يأخذ على أحد عهدا بموافقته على كل ما يريده وموالاة من يواليه ومعاداة من يعاديه"[4].

إن مبدأ انصر أخاك ظالما أو مظلوما كما بينه ﷺ ليس من مبادئ الجماعات، وإنما بمفهومها هي وهذا نوع من الجاهلية لانتصار رأيها المطلق وإسقاط الآخر مهما كان الحق معه، وهذا حكم الجاهلية كما يقول ابن تيمية –رحمه الله-: "فقد

(1) مقدمة ابن خلدون 3/ 226.

(2) سنن الدارمي 1/ 153.

(3) جامع بيان العلم 1/ 532 رقم 855.

(4) الفتاوى 28/ 15، 16.

حكم بحكم الجاهلية وخرج عن حكم الله ورسوله، والواجب على جميعهم أن يكونوا يدا واحدة مع الحق على الباطل، فيكون المعظم عندهم من عظمه الله ورسوله، والمقدم عندهم من قدمه الله ورسوله، والمحبون عندهم من أحبه الله ورسوله، والمهان عندهم من أهانه الله ورسوله بحسب ما يرضي الله ورسوله لا بحسب الأهواء، فإنه من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعص الله ورسوله فإنه لا يضر إلا نفسه.

فهذا هو الأصل الذي عليهم اعتماده، وحينئذ فلا حاجة إلى تفرقهم وتشيعهم"[1].

إن الانكفاء المعرفي طريقة بدعية ومسلك صوفي دب إلى الأمة في عصور الانحطاط، ثم تجرعته بعد ذلك من نازعة الصوفية في طريقة الانكفاء المعرفي.

يقول الطنطاوي رحمه الله-: "إنها لم تعرف -أي المشيخة- إلا في قرون الانحطاط بذور تسربت إليها (إلى الصوفية) من هنا وهناك، ثم رسخت جذورها، وبسقت غصونها، ثم قررت قواعدها، وجعلت إحدى الشعائر الصوفية، فأوجبوا على (المريد) الطاعة العمياء لشيخه، وأن يكون بين يديه كالميت بين يدى الغاسل، وقالوا: إن من لم يكن له شيخ فشيخه الشيطان، ومنعوا المريد أن يحضر على غير شيخه، أو يستمع منه، وحرموا عليه أن ينكر عليه ولو رأى منه منكراً ظاهراً، أو أن يعصيه ولو أمره بما يخالف الشرع وقاسوا ذلك قياساً فاسداً على قصة الخضر وموسى، مع أن الخضر ما عمل إلا بوحي (وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي) وأن الشرع حجة على الشيخ وغير الشيخ، والشيخ ليس حجة على الشرع، وإنكار المنكر واجب ولو وقع من الشيخ"[2].

(1) الفتاوى 28/ 17.

(2) مع الناس (133).

هؤلاء الصوفية عملوا المشيخة قياساً، أما الجماعات فعملوها اقتداءاً بهم وسلوكا لطريقهم.

إن هذا الانكفاء الفكري يؤدي إلى تبعية ماسخة للأتباع، ليس لها طعم الالتزام، ولا نكهة المعرفة، وهذا ناتج بسبب اهتمامات الجماعة بتربية ذات انكفاء معرفي .

يقول الشيخ بكر أبو زيد: "إن القيادة والزعامة في الفِرْقة والجماعة يطغى الاهتمام بها على الفكرة والمنهج، والأصول التي تبنى عليها أصول الجماعة في دعوتها، وهذا يؤول إلى تبعية ماسخة للأفراد، منتجة للمنتمين على أنهم جنود للقيادة، لا للدعوة والغاية، وبالتالي تخدم الحزبيات الأشخاص لا الأهداف والغايات للدعوة.

والجماعة تقتضي وجود الطاعة لأميرها، وقد يكون الأمير مجهولا، فالطاعة له بالواسطة، أو الوسائط، محافظة على أمن الدعوة زعموا"[1].

إن الانكفاء المعرفي قد أفقد أتباع الأحزاب حقيقة الهوية ذات الطابع الشمولي، (هو سماكم المسلمين)، وألبسها هوية الجماعة والحزب، فأفرز لنا تلك الجماعات المسميات وتلك المفاهيم الحزبية التي هي مربط الفرس لكل جماعة بحسب تصوراتها ومفاهيمها، ونوافذ إطلالاتها على الإسلام.

يسلب السرو جميل الميل ... ويرد الصقر مثل الحجل
يسحر الركبان باللحن المبين ... والقاع البحر يهوى بالسفين
نومت ألحانه يقظتنا ... أطفأت أنفاسه وقدتنا[2]

(1) حكم الانتماء (145).

(2) كتاب محمد إقبال، لعبد الوهاب عزام (162).

فعلى من أراد خدمة هذا الدين وأن يحقق ذاته، كما أرادها الإسلام أن يتمرد على هذه المفاهيم التي قد تؤدي به إلى مراتع الجاهلية كما ذكر ابن تيمية، وأن يَسُلَّ سلاح الحق في وجه كل ما يفقده ذاته وحقيقة انتمائه، ويبني تصوراته وصرح معرفته على حقائق علمية، وأن لا يكون تحت الوصاية ويفكر بعقل غيره، أو يفكر له غيره، إن الإنسان سيقف بين يدي ربه لا يُسأل إلا عن عمله، ولن يسأل لماذا لم ينتمي ؟ إن التجرد المطلق والبعد عن الشحن الحزبي، والمجال المغناطيسي للجماعة يطلق العقل ليتعقل ويفهم معنى الإتباع، وإن صفاءه في اعتزال كل تلك الفرق والأحزاب والجماعات، وليخدم الإسلام من خلال قدراته وما يتسنى له من وسائل وقدرات، لأن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها.

18-32: القداسة المطلقة والإصطفاء

إن المريدين عندما ينظرون لرموز الدعوة ينظرون إليهم بقداسة مطلقة، وإعجاب لا نهاية له، وهذا ما وضعه المريد في جلسات التلقي للتوجيهات الحزبية والمفاهيم الدعوية على أن ذلك دين وأنه دلالة الانضباط وفهم حقيقة الاتباع مما يضفي لتلك الجماعة القداسة.

إن من مظاهر تلك القداسة الإطراء المنقطع النظير مع ذم المثيل، بل قد يكون أفضل من غيره على الخط الدعوي الذي يتبناه ذلك الذام، وتتجلى القداسة عندما يقابل المريد، أو تابعاً للمتبوع شيخه فيظهر من الانكسار والتذلل وقبلات الجبهة، والكتف، والصمت، وحضور الهيبة، والسكينة، وإذا تكلم التابع ذكر من أوصاف ومناقب القداسة ما لا يكون إلا لمعصوم، أو من حاز على ولاية الفقيه، إنها القداسة المطلقة التي رُبِّي عليها الأتباع.

ذكر أحد طلاب الشعراني في مقدمة (لوامع الأنوار) في إطراء قداسة شيخه والمدح له ما يفوق به الأنبياء فقال "سيدنا ومولانا وقدوتنا إلى الله، إمام المحققين وقدوة العارفين ومربي الفقراء والمريدين بأقوى قواعد التمكين، فاتح أقفال

غوامض معنويات إشارات المحققين، ومعبر رموز مشكلات العارفين، وواسطة عقد السالكين، وريحانة وجود الواصلين.

إن هذه المبالغة في المدح والإطراء قد تصل إلى تقديس الفرد، وهذا ما دعا عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– أن يبادر إلى عزل خالد بن الوليد خوفا من أن يربط المسلمون بين انتصار المسلمين، وبين خالد[1].

أذكر أن محمد سرور مرض في لندن، فكان الأتباع قد جيشوا للدعاء له وأن يرفع عنه ما حل به، والذي لم يحل بنبي مرسل ولا صديق متبع، وأن فقده ألم عظيم، وكائنهم يقولون إن يفقد هذا الشخص لا يعبد الله في الأرض، إنما القداسة للأفراد مع وجود الفاضل من غير الحزب، أما الشيخ عبد العزيز بن باز لم يقم له هذا الصولجان داخل الجماعة، كما رفع لرمز من رموزها إنها القداسة.

وانظر إذا توفى أحد من رموز الجماعة، كيف تتحول الجماعة بكل وسائلها إلى منابر إشادة، وأن خالد بن الوليد قد وافته المنية، وليس فيه موضع من جسمه إلا فيه طعنه من قلم، أو رمية من حاقد، أو ألم من تألمه للمسلمين، إنه قد بني للدعوة صرحا لم يبنه الأوائل .

إن القداسة التي نشأ عليها أفراد الجماعات ذات الإقصاء للعلماء وإظهار الرموز الحركية عند الأتباع، قد نبت في أذهان هؤلاء الأتباع أن الله قد اصطفى هؤلاء وأنهم النزاع من القبائل، وأن الجماعة التي تضم هؤلاء الأطهار الأبرار المجاهدين الذين قد فتح الله بهم قلوبا غلفا، وعيونا عميا، وأذانا صما لهي في منزلة جماعة المسلمين (أهل السنة والجماعة)، وأن من خالفها فليمت إن شاء ما شاء فقد زل طريق الهداية.

إن الأبعاد التي تترتب على التربية على القداسة وهذا المبدأ الباطني والرافضي، تجعل عند رموز الجماعة ما ليس عند غيرهم من الفهم والعمق،

(1) إنصاف أهل السنة والجماعة، محمد العلي (114، 115).

والدراية بأحوال الدعوة، وأن النصر قادم خلف هؤلاء الرموز ومن حاد عن طريقهم فقد هلك، إنها القداسة التي تشربها هؤلاء الأتباع.

حتى إن ضحكة هؤلاء الرموز لها مواصفات ذات تميز حتى ولو كانت قهقهة، وإن هؤلاء إذا خطبوا أسمعوا كل الوجود، إن كل كلمة يقولها هؤلاء لتكتب بماء الذهب، ثم تباع في سوق البصل، ولم يعلم هؤلاء أنهم قد خالفوا الموازين الإسلامية في حقيقة المدح ومال المداحين، وما في ذلك من تزكية وشهادة، وما يضفي على ذلك من فتنة، وقد رأيناها ظاهرة للعيان في رموز الجماعات المغلقة من التكبر والاعتداد بالنفس، وتسفيه أحلام الآخرين قولا، أو عملا.

رأي ابن مسعود ناساً يمشون خلفه، فقال: ألكم حاجة ؟ قالوا: لا، قال: ارجعوا فإنها ذلة للتابع، وفتنة للمتبوع".

وعن سليم بن حنظلة قال: "أتينا أبي بن كعب لنتحدث عنده، فلما قام قمنا معه نمشي، فلحقه عمر فرفع عليه عمر الدرة، فقال: يا أمير المؤمنين: ما تصنع ؟ قال: إنما ترى فتنة للمتبوع وذلة للتابع"[1].

وقيل للإمام أحمد: إن الناس يدعون لك، فقال: أخشى أن يكون هذا استدراجاً، وكان يكره أن يمشي خلفه أحد من الناس"[2].

وكان يقول: "طوبى لمن أخمل الله ذكره"[3].

وقال إبراهيم النخعي: "إياكم أن توطأ أعقابكم"[4].

وقال علي –رضي الله عنه-: "إن خفق نعالكم مفسدة لقلوب نَوْكي الرجال"[5].

(1) ابن أبي شيبه 9/ 20، سنن الدرامي 1/ 132.

(2) السير 11/ 226.

(3) السير 11/ 226 .

(4) سنن الدارمي 1/ 132.

(5) سنن الدارمي 1/ 134.

قال غالب: خرج الحسن مرة من المسجد قد ذهب بحماره، فأتى حماري فركبه وكان حماري يتناول ساق صاحبه، فخفته على الحسن، فأخذت بلجامه . فقال: أحمارك هذا؟ فقلت: نعم . قال وخلفه رجال يمشون: لا أبالك ما يبقي خفق نعال هؤلاء من قلب آدمي ضعيف؟! والله لولا أن يرجع المسلم، أو المؤمن إلى نفسه فيعلم أن لا شيء عنده لكان هذا فساد قلبه سريعا"[1].

ورأى عاصم بن ضمرة أناسا يتبعون سعد بن جبير فنهاهم وقال: "إن صنيعكم هذا مذلة للتابع وفتنة للمتبوع"[2].

أذكر أنني كنت في معرض الكتاب الدولي، ثم دخل بعض رموز بعض الجماعات إلى المعرض وفجأة تجمع كثير من الشباب في المعرض وأحاطوا به، والموفق من استطاع أن يسلم عليه، أو يلامس شيئا من ردائه، وكان هناك رجل يتأمل المنظر، ثم نظر إليه . وقال: يا أخي لقد دار بيني وبين بعض رموز الصوفية نقاش حول تقديس الأشخاص، فقلت: إن الصوفية يقدسون أقطاب الصوفية، وذكرت له من تلك المظاهر، فرد عليه . وقال: انتوا أيه الوهابية والسلفية تعيبون هذا عندنا، لأنه صيغ بالصوفية، وهذه القداسة هي تمارس تماما، بل أحيانا أكثر مبالغة عندكم أيها السلفية، انظر إذا قابل الشيخ بعض المنتمين لجماعته كيف تكون القبلات، والسير وراءه، وما يحاط به من قداسة تفوق ما عندنا، ثم قال لي: وهذا خير شاهد لما ذكر الصوفي، ولم يكن منظرا واحدا، بل أكثر، إنها القداسة التي تفرضها الحزبية.

يقول الشيخ بكر أبو زيد: "ومن ظواهر الحزبية إضفاء قسط وافر من القداسة على بلد القائد المؤسس، وعلى مكان وفاته، ومن تتبع علم!"[3].

(1) الطبقات لابن سعد 7/ 168.

(2) كتاب العلم لآبي خيثمة 30 رقم 124.

(3) حكم الانتماء (145، 146)

وهذه القداسة سببها هو الغلو سواء غلو القيادات في ذاتها، أو الأتباع في الجماعات، وغلو القيادات في ذاتها يلقي بظلاله على الجماعة، بل يلقي بضلاله على أفرادها، فتكون الجماعة ذات صفاء ونقاء، وغيرها ذي خبث وشقاء.

يقول الشيخ طارق عبد الحليم: "كما أن الرجل –أي محمد سرور– يتمتع بغلو في تقدير لذاته، وعظمة ما يكتب، وروعة دوره في الدعوة وخبث مخالفيه – الإسقاط– مهما كانوا"[1].

إن القداسة عند هؤلاء الجماعات والأحزاب لهي حق من الحقوق الشرعية في نظر هؤلاء، فإذا حج، أو اعتمر ولم يزر فلانا فقد أسقط واجبا حزبيا، وعليه الاستغفار والتوبة، وأن يتصدق بصدقه تعم فقراء أفريقيا، يا لها من مهزلة.

إن القداسة والإطراء قد يعرض الأعمال إلى البطلان والفساد، أذكر أنه قدم أحدهم برنامجا وكان الهدف إظهار رموز بعض الأحزاب، أو الجماعات، وقد أدخل بينهم بعض المحتويين حزبيا، وهذا البرنامج قدمته قناة المجد "أسرة واحدة" وأخذ كل واحد يعرض أعماله، ويأتي بعض تلاميذه فيذكر تهجده، وصدقته، وكيف يناجي ربه وصيامه، وكيف يأكل تمرات الإفطار.

ولم يبق إلا أن يذكر أخص خصوصياته لعدم علمه بها، وهذه منقبة .

وكان هذا البرنامج ساحقا لشخصيات هؤلاء اجتماعيا، خاصة من ينظر أن أعمال العبد بينه وبين ربه، لا يتقرب بها إلى أحد، ولا يكسب بها شهرة، ولا يروج بها لحزب، أو جماعة من خلاله، إن هذا خلاف عمل العلماء الربانيين الذين ينفق أحدهم فلا تعلم شماله ما أنفقت يمينه، لا من ظهر أمام الدنيا مستعرضا بقيامه وصيامه وصدقته، ومشاريعه التعبدية، ومحاضراته، ودروسه، وفتاويه، إنها دعاية وطلب شهرة في ظاهرها والسرائر علمها عند الله.

(1) تجربتي مع السرورية.

قال ﷺ: إن الله يحب العبد التقي النقي الخفي"[1].

يقول ابن الجوزي –رحمه الله–: "الإشارة بالخفي إلى خمول الذكر، والغالب على الخامل السلامة"[2].

وعن عبد الله بن مسعود –رضي الله عنه– قال: "ينابيع العلم، مصابيح الهدى أحلاس البيوت، سرج الليل، جدد القلوب خلقان الثياب، تعرفون في أهل السماء، وتخضون في أهل الأرض"[3].

صحب رجلا ابن محيريز في سفره، فلما فارقه . قال: أوصني فقال: إن استطعت أن تعرف ولا تعرف، وتمشي ولا يمشي إليك، وتسأل ولا تسأل . فافعل"[4].

يقول ابن محيريز "اللهم إني أسألك ذكراً خاملاً"[5].

كل ذلك خوفا من تأثير الشهرة على دينهم وأنه مناف للصدق.

قال إبراهيم بن أدهم: "ما صدق الله عبد أحب الشهرة"[6].

يقول بشر –رحمه الله–: "ما أعرف رجلا أحب أن يعرف إلا ذهب دينه وافتضح"[7].

(1) مسلم 4/ 2277 رقم 2965/ 11.

(2) كشف المشكل (167).

(3) جامع بيان العلم وفضلة 1/ 507 رقم 813، والدرامي في سننه 1/ 80.

(4) المورد العذب المعين من آثار إعلام التابعين 5/ 141.

(5) سير إعلام النبلاء 4/ 496 رقم 194.

(6) العزلة والانفراد (126).

(7) إحياء علوم الدين 3/ 305 .

ويقول الفضيل بن عياض: "إن قدرت ألا تُعْرف فافعل، وما عليك ألا تعرف؟ وما عليك أن لا يثني عليك، وما عليك أن تكون مذموما عند الناس إذا كنت محمودا عند الله تعالى"[1].

فجليبيب –رضي الله عنه– ما ضره من جهله، وأبو جهل ما نفعه علم من عرفه، وما نال من قداسة وشهرة.

ويقول هشام مصطفى: "وأما دعاة الحزبية اليوم فإنهم يغالون في مشايخهم وأقوالهم وحزبهم حتى كأنهم يضفون عليهم نوعا من العصمة، ومن الموافقة المؤسفة، أننا نرى اليوم كثيرا من الناس يفرطون في المحبة، فإذا أحبوا شخصا، أو طائفة ما فإنهم يفرطون في هذا الحب ولا يعدلون فيه، حيث لا يرون إلا الحسنات، ويغمضون أعينهم عن الأخطاء والسيئات، ويبررونها ويؤولونها.

وكأن من أحبوه لا يجوز عليه الخطأ، أو الزلل، وهذا غلو واعتداء في الحب، لابد أن يؤدي إلى الغلو في الرجال وتقديسهم، وفرق بين التقدير والاحترام، وبين التقديس والمغالاة"[2].

إن القداسة قد ولدتها عند الأتباع الكهنوتية، والغموض والتعالم، والإسقاط، والتربية على الجماعة أولا، والوصاية على العقل والفكر، وتقزيم الإسلام وتحجيمه في الجماعة، وإظهار أن عند الجماعة من الروى والحلول، وإنقاذ الأمة، ومعرفة خطط الأعداء، وإدراك المؤامرات ما ليس عند غيرها، إن لمنظريها من الإحاطة والمعرفة والقدرة على التعاطي مع كل الأحداث، وسَبْر غورها ما ليس عند غيرهم، إنه التعالي والاستكبار والإحساس بالاصطفائية.

يقول د. محمد البوطي: "ومن أبرز هذه الآثار –أي آثار الحزبية– ما قد تجده عند هؤلاء من تحول التقدير للفكرة والمبدأ إلى تقديس للشخص والكيان، فيغدو

(1) التواضع والخمول لأبي بكر القرشي (43).

(2) هو سماكم المسلمين (47).

واقع الشخص الذي يقدسه هو مقياس الحق الذي يؤمن به بدلا مما ينبغي أن يكون عليه الأمر، من اتخاذ الحق وحده مقياسا لتقويم الأشخاص وتقديرهم".

ورحم الله الداعية الإسلامية سعيد النورسي عندما بعث برسالة إلى تلاميذه يقول فيها: "إياكم أن تربطوا الحق الذي أدعوكم إليه بشخصي المذنب الفاني، ولكن عليكم أن تبادروا فتربطوه بينبوعه الأقدس، كتاب الله، وسنة نبيه ﷺ، ولتعلموا أنني لست أكثر من دلال على بضاعة الرحمن -جل جلاله- ولتعلموا أنني إنسان غير معصوم، قد يفرط مني ذنب، أو يبدر مني انحراف فيشوه مظهر الحق الذي ربطتموه بي بذلك الذنب، أو الانحراف، فإما أن أكون بذلك قدوة للناس في الانحراف وارتكاب الآثام، أو صارفا لهم عن الحق بما شوهه واختلط به من انحرافي وآثامي"[1].

إن من مظاهر التقديس: التعصب، وإضفاء القداسة للأفكار والتصرفات، واختلاق المبررات والأسباب لها، وإن من طبيعة البشر الخطل والخلل، والوقوع في الخطأ في القول، أو العمل، إلا أن هذا في حق المتبوعين مبرر، فإن من ترك صلاة الجماعة من الحزبيين، تركها لعذر شرعي، إما سهرا على مصالح الأمة، أو مريضاً، أو مسافراً، أو لمصلحة يترتب عليها مصلحة العمل الدعوي، أو ... أو .... أما المخالف، أو من المحسوبين على العامة عندهم فلا عذر له، ولو كان من هيئة كبار العلماء، كما هو ديدن الشيعة، فإن ذلك علامة من علامات النفاق، وأنه ما يتأخر عنها إلا منافق.

إن الحزبي مصلحة الدعوة التي أسهرته متابعة أفلام، أو وضع خطط لإسقاط جدار برلين -أسف-، بل لإسقاط عمل لجماعة أخرى، أو إفساد مشروع إسلامي لم يستطيعوا احتوائه للجماعة، أو إقامة الوصاية عليه.

(1) باطن الاثم (33، 34).

وعندما يصاب الحزبي بمرض كسرطان وغيره، فإن ذلك في نظر حزبه تكفيراً لذنوبه، ورفعة لدرجاته، وأنه رحمة الله.

وأما إذا كان المرض لغير الحزبي ومن حزب آخر في نظر أفراد حزبه، فإنه عقاب، وانتقام من الله، وأن ما له عند ربه أشد وأنكى.

إن هذه القداسة التي قد أوجدتها الجماعات لذواتها وأفرادها مجها في واقع الحياة الإسلامية لما يترتب عليها من مخالفات شرعية، وامتهان لحقوق الآخرين، وفرض العبودية على المجتمع عن طريق الوصاية لأفكار الجماعة، والتسليم المطلق بالاصطفائية لتلك الجماعة، إنها والله لنذير شر، وباب بدعة، وهل أضاع الأمة وفتت قدراتها وجعلها في سجن الأفكار المحدودة والعقول المصنوعة غير تفكيرها على أعين الحزبيين ؟ فلا نرى إلا ما ترى الجماعة، ولا نفكر إلا بعقلية الجماعة.

19-32: التقية

تعتبر واقعاً عند بعض الجماعات الإسلامية وإن أنكروها تنظيراً وهي من الوسائل التي تتحصن بها وتحافظ بها على كيان الجماعة، أو أفرادها من خلال استخدام هذه الوسيلة التي هي في أصل استخدامها من معطيات الانغلاق والسرية، ومحاولة إبعاد تنظيم الجماعة، أو أفراده من أن يعرف فيلجأ إليها سواء كانت في النطاق الشرعي، وهذا لا غبار عليه، أو كانت تخرج عن المدار الشرعي، لأن الأهم ليس الشرعية هنا، وإنما الأهم المحافظة على الجماعة، لأن الجماعة هي التي يحل من أجلها كل شيء، وهذا من المفارقات العجيبة عند هذه الجماعات، عندما تنظر وتطبق، فإن التنظير وما تدعو إليه شيء والممارسات العملية شيء آخر، وهذا هو الفصام النكد لهذه العقلية الانتمائية، ومع هذا إلا أن الأتباع كما ورد معنا في قصة تجربة القرود وجدنا رؤساءنا ومسئولينا كذلك يفعلون، إنه السلوك الأعمى الذي ترسخ في حياة الأتباع حتى أصبح ملازما، بل أصبح هذا الرسوخ يحظى بقداسة يصعب التخلي عنها، أو نقدها، أو قبول النقد لها، بل أصبحت هذه من المعطيات الإيجابية لحماية الجماعة والانتماء لها، إنها التربية

المركزة سواء من خلال إنشاء قواعد التفكير لدى أفراد الجماعة، والذي يتحول إلى تفكير جماعي يأخذ طابع العصمة الذهنية، والضرورة الدعوية والحماية التي هي من الأعداء لهذا الدين، ومن هنا كان مندوحة لدى الجماعات، بل يعتبر من ذكاء الجماعة أنها تستطيع أن تموه، وأن تنسلخ من جلد الحقيقة في الوقت المناسب، كما ترى، لتربك ذلك الباحث عن الحقيقة، إن الجماعات تأخذ من التقية نقطة انطلاق واستراتيجية تمويه، وهذا يظهر جليا لمن عاش مع تلك الجماعات، وتكون التقية أعمق وأشد تطرفا في حياة الجماعة كلما كانت الجماعة أشد انغلاقا، وأكثر تعقيدا في بنائها الحركي، والغموض هو السائد في منحيات الحركة.

إن التقية تؤخذ عند هذه الجماعات وهناك شيء من الانفتاح، فمثلا الإخوان أقل استخداما لها نظرا لأن الانفتاح عندهم أكثر من غيرهم، أما الجماعة المنغلقة ذات التنظيم السري والانغلاق الحركي، فإن التقية من أسس هذا الانغلاق، وهذا يستخدم في الوسط الإسلامي، بل في وسط المنتمين، بل أحيانا في وسط الجماعة ذاتها، نظرا لدرجات المنتمين داخل الجماعة، وأن أسرار الجماعة لا تعطى إلا بقدر مستويات ودرجات هؤلاء المنتمين، وعندما تنظر لذلك وجوانبه التطبيقية تجد فجاجته أحيانا وعدم قناعة المجتمع به لمعرفة المجتمع يقينا بخلاف ما ذكر ومن ذلك على سبيل المثال :

راشد الغنوشي وهو يعد من رؤوس الإخوان، بل ومسئولهم وخاصة الإخوان أصحاب التنظيم العالمي، يسأل على قناة فضائية يراه أعداد هائلة من المشاهدين والأتباع، والذي يعرف حقيقة ذلك، فيسأل عن انتمائه، فينفي ذلك، وغيره من القيادات المعروفة ينفي ذلك، ألا تكون هذه التقية وصمة عار في جبين هذا الرمز لهذه الجماعة، فكيف حال الأتباع، بل كيف حال من هو أشد انغلاقا إنه يرى التقية من الممارسات الناجحة للضحك على المسلمين، والتقية تعد من إرهاصات الانهزامية، وسوء التربية وعدم الاعتزاز بالانتماء للإسلام قبل الجماعة.

إن المنتمين للجماعات يختبرون وأنا أقولها وأرض الواقع والتجربة خير برهان وأصدق شاهد، أن يسأل هل أنت تنتمي للجماعة الفلانية ؟ وانظر إلى الإجابة، إنه يتنكر أن يكون هناك جماعة أصلا، وإنما هذا من تصنيفات بعض أهل الأهواء والنفعيين والمستأجرين والعملاء، وأنا أؤمن أن هناك نفعيين، وأهل أهواء، ومستأجرين، وعملاء، لكن دائما يجعل ذلك هو حال المخالف تقية وشماعة للهروب من أمام الحقائق، إن الدافع لهذه المخالفات الشرعية تحت الاستحلال بمفهوم التقية التي لا تجوز لهذا المفهوم شرعا، هو المحافظة على غموض الجماعة والسرية، وأن الجماعة هي الأولى بالحماية من أي شيء آخر.

إن التقية عند الجماعة المنغلقة لا تكون واضحة تمام الوضوح إلا لمن كان يعرف هذه الجماعة من الداخل وعاش مع تلك الممارسات .

إن الاصطفاف وراء تلك الأفكار الحزبية ورموزها والاستماتة في سبيل المحافظة عليها، يسوغ لهم سلوك أي سبيل مهما كانت وعورة مخالفته الشرعية.

إن لبس ثوب التقية (أو النفاق) من علامات نجاح المنتمي في مناورته لمصلحة الجماعة، ونحن نتكلم عن ذلك داخل الجماعة، وفي الوسط الإسلامي والذي يجب علينا فيه أن تكون على منهج المحجة البيضاء ليلها كنهارها، لا نهارها كليلها كما عند الجماعات المنغلقة وذات البعد المريب من خلال التعامل بها، وهي من قواعد الجماعة.

قال الله تعالى: ﴿ لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (آل عمران: 28)

قال ابن جرير: "التقية التي ذكرها الله في هذه الآية، إنما هي تقية من الكفار لا من غيرهم"[1].

وقال سعيد بن جبير: "ليس في الإسلام تقية، إنما التقية لأهل الحرب"[2].

والتقية أصلا رخصة بالنسبة للمسلم، وتركها أفضل، فإذا عُرِضَ المسلم على القتل، أو ضياع الدين جاز له التقية والعزيمة أفضل.

قال الإمام أحمد: "وقد قيل: إن عرضت على السيف تجيب، قال: لا، وقال: إذا أجاب العالم تقية، والجاهل بجهل، فمتى يتبين الحق"[3].

فالتقية عند غلبة الكفار، أو غلبة الحكام الفساق أهل الفجور والظلم، إذا كان فيها منع إلحاق ضرر بالنفس، أو العرض، وفي المال.

يقول ابن مسعود –رضي الله عنه–: "ما من كلام أتكلم به بين يدي سلطان يدرأ عني به ما بين سوط من سوطين إلا كنت متكلما"[4].

وقال السرخسي: "إنما أراد بيان جواز التقية في إجراء كلمة الكفر إذا أكرهه المشرك عليها، فالظالم هو الكافر. قال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ (البقرة: 254)"[5].

أما ما يكون من المداراة فهي من باب الإحسان إلى الناس وتحمل أذاهم، وأن لا يكون فظا غليظا، حتى لا ينفضوا وهذا ليس من التقية في شيء، لأن هناك من يصوره أنه تقية لا تكون إلا بموافقة الحال مع إبطان المخالفة له، وهو نوع من

(1) التفسير 6/ 316.

(2) تفسير البغوي 2/ 26.

(3) زاد المسير 1/ 372.

(4) ابن أبي شيبه 6/ 474.

(5) المبسوط: 24/ 417.

التزييف للحقائق والتمويه والضحك على المسلمين، وهذا محرم، لا يجوز وفيه احتقار لعقول المسلمين، وقد نهى أن يحقر المسلم المسلم.

والكتمان وهو من باب حفظ السر الذي لا يترتب عليه إظهار حال خلاف الباطن، بل هو عدم إفشاء وإظهار أمر، وهو خاص بأمور الدنيا خاصة في الوسط الإسلامي، أما في غير الوسط الإسلامي فإن كتم حال ما يعتقد عند الخوف على النفس، أو الدين أمر آخر، أما جعل الكتمان من التقية، فهذا فيه نظر، لأنه من خلال هذا التنظير تباح التقية في الوسط الدعوي، وحقيقة الكتمان هو في أمور الدنيا أما العقيدة، وأمر العبادة والدعوة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فليس له الكتمان بمفهوم هذه الأحزاب والجماعات، والكذب وهذا مربط الفرس كما يقال في التقية عند الجماعات، فخلفوا بين الكتمان والمستثنى من ذلك، كالكذب للإصلاح، أو الرجل مع زوجته، وقد ذكر بعض العلماء أنه يجوز أن يكذب المرء ليستنقذ نفسه من القتل، أما الكذب على المسلم من أجل الجماعة، فيما هو من الأمور التي من حق كل المسلم على المسلم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومعرفة ما يحاك للمسلمين فمرفوض، وأما المعاريض فليست من الكذب ولا من التقية حتى نجعلها ضمن ذلك، بل هي أن يعرض المرء ويوري بكلام يعرف منه شيء آخر، فيعرف الظاهر به ولا يعرف الباطن، وهذا يكثر فيما تشترك فيه المعاني، وإقحام ذلك أنه من التقية أمر في غاية السوء.

أما التقية في الوسط الحزبي فحدث عنها ولا حرج في مفهومها الحقيقي وقد تعدد صور ذلك.

فعندما أظهر لأحد المسلمين أنني أحبه، وأستخدمه من حيث لا يعلم في مصالح الجماعة باسم مصلحة الدعوة وأُجير كل أعماله للحزب، أو الجماعة، وأتخذ من خدمة الدعوة تقية أتقي بها أن يكتشف حقيقة انغلاق الجماعة، فهو أمر لا ينبغي والجماعات لا تستطيع أن تعرف حقيقتها لكثرة تترسها بالتقية، وإظهار ما يمكن أن يغرر بالمسلمين ويستر حقيقة تلك الجماعة، وأنا أتحدى أي منتم لإحدى

الجماعات المنغلقة أن يظهر حقيقة انتمائه، إن الجماعة المنغلقة تظهر سلفيتها الحركية تقية أن يكشف حقيقة أنها إخوانية مخالفة للأم، ثم تستخدم هذه التقية لتكثير الأتباع ومحاولة إقناع الناس بأنها ذات منهج سوي من خلال استخدام السلفية في أسمائها وللأسف إن سطحية الاتجاه السلفي، وحسن نيته، وعدم إدراكه لأبعاد تلك الجماعة المنغلقة التنظيمية وحقيقة فكره صدق تلك الدعوى، فالسودان انخرط كثير من أنصار السنة (السلفية) في الوسط التنظيمي للسرورية، وإن كان هناك من مراجعة لبعض أفراد هذا الاتجاه مثال: الشيخ عبد الحي يوسف، وكذلك سلفية مصر وبالذات سلفية الإسكندرية.

أليس من استغلال المحاضن التربوية والمظلات الرسمية والنشاطات العامة، والنفوذ من خلالها إلى المجتمع واسمها لا باسم الجماعة إذ تحب مظلتها، وأن هذا دأب هذه الجماعات استغلال كل القنوات الدعوية لمصلحة الجماعة، والحزب باسم هذه القنوات وأخذها ظاهرا أن هذه القنوات، وهذه المؤسسات الدعوية ليست إلا غطاء، أليس هذا عين التقية لهذه الجماعات غير ما يكتنف تعاملات هذه الجماعة من التقية المتمثلة في الكذب، أو إظهار بعض الأعمال خلاف ما يردا منها.

إن التقية في حقيقتها قولية وعملية، وهو معمول بها عند الجماعات ما بين مستكثر ومتقلل، إن استغفال الشباب والمجتمع والتعامل مع المجتمع المسلم من خلال التقية على أنه معاد لله ورسوله لأمر خطير في غاية الخطورة، لأن ذلك له الأبعاد التربوية والحزبية والانتمائية، ثم يجعل المجتمع كله خطراً على الإسلام وهذه الفئة من الناس هم الذين يعرفون مصلحة الدعوة، ومصلحة المسلمين، وماعداهم فإنهم رعاع شرهم أكثر من نفعهم، وهؤلاء الناس عندما يفرزون لنا عقليات بهذا التصور، وهذه المفاهيم ماذا تتصور أن يكون دورهم؟ أن دورهم أن يقول من لم يكن معنا بشروط حزبه وأفكاره، فهو ضدنا، وضدنا يعني ضد الإسلام، إن ذلك تحجيم وتقزيم للأمة كما سلف، ومن هنا تأتي المبررات لهؤلاء الحزبيين في التضحية بكل أفراد المجتمع غير المنتمي، وهذا ظاهر عندما تأتي المحاصصة الحزبية

فإنه يضحى بكل صالح وفالح من المسلمين وتحزب لكل منتمي ولو كان من الفساق . أي دين هذا؟ وأي دعوة هذه ؟ إن هذه الجماعات على مدار ما يقارب قرناً من الزمن لم تستطع أن تحقق أهدافها واستراتيجياتها بغض النظر أن تحقق للأمة آمالها، بل هي فتحت على الأمة في كثير من الأحيان أبواب شر، إنهم ينسبون إليهم مكاسب كل الأمة ومكتسبات المسلمين، ولو نظرنا لمن وقف في وجه الأفكار الضالة والمشبوهة والمسمومة في هذا العصر، لوجدنا أن ركائزهم ليس لهم انتماء حزبي، إنني لا أنكر أن الجماعات لها من الجوانب الإيجابية ما لها ولكن ذلك لا يبرر أخطاءها، والله المستعان.

20-32: القيادة والجماعة

إن الجماعات تحاول أن توجد لها قيادات ذات طابع حزبي يؤمن بأفكار الجماعة، واستراتيجيات العمل الحزبي، ولو كان ذلك على حساب الجانب الشرعي، وهذا ما أفرز لنا مخالفات وطوام داخل العمل الحزبي، لأن عقلية القيادي داخل العمل الجماعي هي المسيطرة تماما على أفكار الجماعة، ثم إنه يحيط نفسه بنوعية من البطانة ذات الأبعاد النفعية والتي تسلم دائما بكل ما يصدر عن المركزية الدعوية، ويكون هؤلاء –عادة–له بطانة، أو لهم صلة قرابة، أو زملاء دراسة، أو توافق نوعي في السمات، والأخلاق، والرؤى، فعندما تكون القواسم المشتركة هي المسيطرة على القيادة والبطانة، فإن أهل الإبداع والعمل المبني على قواعد سليمة من التفكير والمنطلقات الشرعية لا وجود لهم، ثم إن هذه القيادات أصبحت كحكام العرب، إذا علت كرسي القيادة لا تزاح عنه مهما كان وهذا ما سارع بالشيخوخة في روح الجماعات، وجعلها ذات طابع واحد، ثم إن هذه القيادات قد لا تتحلى بالعلم الشرعي، فقد تكون القيادة تخصصها رياضيات، أو أحياء، ثم هي التي تصدر التوجيهات للحركة في المعضلات والتي يجمع لها أهل بدر، ويقف أمامها هيئة كبار العلماء والمجامع الفقهية، ونوابغ الأمة، وكل ذلك لأن شروط القائد أن يكون ذا مواصفات حزبية وقدرات انتمائية، وقد يختار القائد

سواء على مستوى المناطق للقيادات العامة بشكل الاقتراع الصوري، وأحيانا يجمع المقترعون في مكان واحد مع رؤوس العمل في المنطقة الشمالية، أو الغربية، أو غيرها، ثم ينتخب واحد منهم والغالب أن هذا معروف عند الجميع أنه المراد انتخابه، ثم ينتخب، ثم يكون هؤلاء المنتخبون عادة لهم صلة ببعض الرموز في القيادة العليا، فيجمع المختارون من المناطق والذين يمثلون تلك المناطق ويقترعون للقيادة العليا –أي هي البيعة- لكن ليست بالصورة التي عند الإخوان مثلا – لأن الجماعة المنغلقة ذات طابع غامض وهي تعتمد على الرمزية كثيرا، وإذا تعاملت مع تلك الرمزية تحس أنك تتعامل مع لعبة الكنز، إن تلك القيادات داخل الجماعة لا ينظر فيها للقيمة العلمية، أو القيمة الإيمانية، والسلوكية بقدر ما ينظر إلى الولاء الحزبي مع العلاقات الشخصية داخل الجماعة ذات الولاء، ولا ينظر لقضية تولية أهل النجابة والذكاء لعمرو بن العاص، ولا أنك ضعيف، إن هذا من المؤسف داخل الجماعات أن الشخص لا يأخذ وضعه الطبيعي في العطاء والخدمة لهذا الدين، وهذا لا يدركه كل منتمي للجماعات والسبب أن أكثر هؤلاء المنتمين ينطلقون من انطلاقات دينية صرفة وثقة مطلقة، وقد اكتسب ذلك عن طريق التربية الذاتية لا التربية الجماعية والجماعات تستغله في نطاق الجماعة على أن هؤلاء هم الذين سلكوا بهم طريق النجاة .

ولو خرج أحدهم عن الجماعة قليلا لتحولت تلك النظرة الملائكية إلى نظرة فيها شيء من الواقعية، وما عند الجماعات الأخرى من أخطاء موجودة هي نفسها، وقد يزيد ذلك لكن كما يقال: الحب يعمي ويصم، إن الحب للجماعة، والثقة المطلقة أوجدت لدى هؤلاء المنتمين نظرة مغلوطة، وأن القيادات داخل الجماعة تمارس الفوضى الفكرية، والفوضى التنظيمية دون مراجعات، أو ضبط، ولو تابعت، أو كانت لك علاقة لوجدت تفاوت العمل الدعوى عند الجماعة من منطقة إلى منطقة، فنجد منطقة فيها الجهل الشرعي يضرب بأطنابه العمل الدعوي، وخاصة إذا كان المسير لهذه المنطقة من ذوي التخصصات العقلية

الصرفة، مما يجعل التوجه الشرعي ضعيفاً جدا، ونجد منطقة التنظير والمثاليات هي الطاغية، وحدث ولا حرج وكل ذلك لا يلمس وخاصة عند الجماعات المنغلقة.

إن الاهتمام بالقيادات داخل الجماعات ليس له تلك الأهمية، وإن الأهمية لتكثير الأتباع وتكوين قواعد خاصة لأفكار الجماعة فقط، وأن تكون قوة ضاغطة سواء على مستوى المجال الدعوي، أو المجال الاجتماعي، أو المستوى السياسي، يتحقق من خلال تلك القوة نفوذ حزبي ووصاية حزبية، إن الجماعات تخاطر بتدين الأتباع وتصوراتهم من خلال تزيين انطلاقات الجماعة الفكرية والتصورية والدينية، وذلك من خلال حشد البراهين من التدليل على ذلك من الكتاب والسنة، بتوجيه تلك الأدلة من خلال قواعد الجماعة والتي أصبحت توجه تلك الأدلة من قواعد استدلال حزبية، أو مفاهيم عامة، أصبح لها أثر في قبول توجيه تلك الأدلة، والتسليم الجماعي لها مما يوحي أن ذلك هو الصحيح، وأن ما خالفه هو الباطل، فإذا لم يجد ذلك، أو لم يكن له مجال تعاملوا مع العقل المصادر أصلا بطرق وحيل عقلية في اقناعه بصحة مسلك الجماعة، وعندما تتعامل مع عقليات قد أطرت وسلسلت بسلاسل أفكار وتصورات الجماعة تستغرب كل ما تحمله تلك العقول من سذاجة فكرية وغبش في التصور مع تعالم واستعراض وغرور واستكبار .

إن القيادات في داخل الجماعات قد أوجدت اهتزازات فكرية ذات تشوهات وأبعاد أثرت على البحث عن الحقيقة، ونحن نجد أن من تجرد ويحاول أن يقف مع الحقائق بتجرد يخرج بنتائج، وكم من تراجعات ويعبر عنه داخل الجماعة بالساقطين على طريق الدعوة، ومن فاتهم قطار النجاة، أنهم ينظرون لهم أن ما ينفع يمكث في الجماعة، وأما الزبد فإنه يتساقط على طريق الدعوة، وإن المراجع يعلم أن ما ينفع هو الذي يتحرر من منهجية مصادرة العقول، ولا يكون ذلك إلا لمن حباه الله شجاعة، واستقلال عقل، وقدرة تصورية على التمييز، ومحاولة استقراء الواقع ومعرفة ما عند الجماعات، ثم يكون لديه خلفية شرعية، أو متصلاً

بمن له تلك الخلفية، فالأخ سالم الدخيل كان له خلفية شرعية وتأمل ثاقب مما دفعه إلى الاستقلال بفكره وأن يكتب ما كتب عن الجماعات مع أن الجماعة المنغلقة حاولت احتواء القضية حتى توفي -رحمه الله-وهناك غيره، وأنا أقول إن المسألة مسألة دين وعلينا أن نتجرد تماما وأن نتعامل مع كل من حولنا على أن له حق الأخوة في هذا الدين لا حق الانتماء للجماعة.

إن القيادات داخل الجماعات وما تزهو به في نطاق ما يمكن أن يكشف عن تلك القيادة داخل الجماعة، من قداسة تكاد تصل قداسة الباطنية لقيادتها، والصوفية لأبدالها وأوتادها وأقطابها، وعندما ترى ذلك تقول: سبحان الله، ما هذه القداسة والولاية التي قد حاز عليها هذا، هل هو مُحَدث؟ فلا يقول إلا صوابا، إنها ولاية الفقيه، في ثوب قشيب، ولقد رأيت من هذا ما لا يصدق، وقد يكون هذا الرمز أقل من هؤلاء الأتباع سنا، أو علما، أو كان انتماؤه بالنسبه لهم متأخرا.

إن حقيقة القيادة والجماعة لابد أن ينظر لها نظرة المتأمل من الأتباع والتأمل مع ذلك بعقلانية وقد تعرضنا لذلك في الكهنوتية.

والمراد هنا أن القيادة تختار من خلال طقوس وشكليات ومواصفات حزبية ونظام اقتراعي ظاهرة سلامة الاختيار حسب قواعد الاقتراع، والحقيقة غير ذلك كما تعلم الجماعة، وبالذات البارزين، والعارفين بأحوالها وكيف تسير، أما قيادات الأعمال الخيرية العامة فحدث كيف يتحرك اللوبي الحزبي للتأثير العام في المقترعين، واصطفاف الأتباع وراء ذلك، وما انتخابات مجالس البلدية في الشرقية، والجمعيات الخيرية إلا خير شاهد، وليس هذا مقام ذكر بروتوكولات ذلك الأمر.

إن القيادة والجماعة من الأمور التي توليها الجماعة اهتماماً خاصاً، لأنها هي التي تتحكم في مسار الجماعة وأفكارها وإنها في نظرهم صمام الأمان الذي لابد أن يحكم، علما أن (99%) من الأتباع لا يعلمون عن حقيقة هذه الانتخابات (الاقتراع) وهذا الاستخفاف بعقولهم، والتستطيح لأهميتهم في واقع الدعوة مع

أهمية ذلك، لأن سفينة الدعوة لابد أن يكون القائد لها من أصحاب الكفاءات، والقدرات المتميزة، ولا يعلم ذلك من خلال فئة تتحكم في العمل الدعوي المغلق، والباقون لا يعلمون ولا يعرفون، وإنما هم كأحجار رقعة الشطرنج، أين ذلك من قيادة الرسول ﷺ والتي كانت واضحة المعالم في كل مراحل الدعوة لكل الأتباع.

21-32: كارثية وصول الغير

الجماعة تنظر إلى ذاتها أنها هي صاحبة الحق في كل ما يخص الأمة، سواء من موارد مالية، أو مناصب إدارية، أو قيادات اجتماعية، أو أعمال خيرية، وأن ذلك ليس إلا لها وإن خانها التاريخ، أو تخاذل في الحصول على ذلك، إلا أنها تبقى هي صاحبة الحق، ولهذا فهي تسعى إلى محاولة الوصاية على الأمة بكل أبعاد الوصاية كما أسلفنا.

ثم ما تكنه صدور هذه الجماعات من حقد وكره وأنانية وقيم تربوية وآمال حزبية وأهداف تنظيمية، وبناءا على هذا التفكير الاصطفائي والسامية العليا، والعرق النازي، ينطلق هؤلاء في تعاملهم وبالذات مع الجماعات الإسلامية المنافسة، والأمور يهون إذا كان الأمر آل إلى الاتجاه العلماني، أو الليبرالي، أو أي حزب يستمد قيمة من القيم الأرضية، أما إذا كان الاتجاه إسلامي، فإن الأمر يكون كارثيا، إن نظرة الجماعات بعضها لبعض ليس نظرة تكاملية تأخذ جانب التعاون، وأن تسد مسد الجماعة الأخرى في تقصيرها، بل إنها تنظر إلى ذلك التقصير فتحاول أن تجهز عليها من خلاله، وهذا داء خطير ومرض قد استفحل في البناء التنظيمي الحزبي، ويكون أشد في الجماعات المنغلقة.

إن التنافس الممقوت يأخذ كل أبعاده في ميادين الدعوة للاستحواذ، أو الإقصاء، أو الإسقاط، أو الإجهاض، أو الاجتثاث .

إن كارثية الوصول تكون على كل المستويات والأصعدة الدعوية والاجتماعية وغيرها ابتداء من حصول جماعة على مركز دعوي مؤقت، إلى إدارة مدرسة إلى التصرف في جمعية خيرية، إلى ما هو أعلى من أمور دعوية، وما قصة

مرسي في مصر، وكارثية وصوله على كثير من الجماعات، ومنها من عبر عن حقيقة ذلك كجماعة النور، ومنها من حاولت التعامل لكن بشكل آخر كجماعة السلفية الحركية، كما يحلو لها ان تسمى نفسها حتى تخلع ثوب الإخوان ظاهرا للناس (السرورية الحقيقية) فكانت لا تريد أن تقف موقف حزب النور، بل أرادت أن ترمي بشباكها لعلها تصطاد ويكون لها في الأحداث موطئ قدم، لكن جرت الرياح بما لا تشتهي السفن.

إن كارثية وصول الغير لهي تظهر تلك الأزمة التي تعيشها الجماعات من التشنج النفسي، والإقصائية التربوية، والحزبية المطلقة، التي سادت المناهج التربوية وتعاملات الجماعة حتى أصبح ذلك مصاحبا لأنفاسها، إن هذه القيم التربوية التي سادت الفكر الحزبي، والتي هي من الأمور التي تحسب لها الجماعات ألف حساب، بل إنها تحول لها كل كريات دمها البيضاء لاستئصال ذلك الواصل والذي تعده غريبا، ومن الحتمية المطلقة عندها أن يقضي عليه قضاءً تاماً، لأنه سيكون عقبة كأداء في طريق الجماعة، وهذا يكفي للناظر أن هذه الأحزاب تهدر كل شيء في سبيل الحزبية والانتماء الحزبي، ولهذا تبدأ المؤامرات وحبك ذلك حتى مع أطراف من غير الجماعة للإسقاط لتلافي هذه الكارثة، وكأن الإسلامي إسلامي حزبي حصري ويدخل أحيانا التدافع بين الجماعات، لكن المسكين غير المنتمي إذا لم تستطع أي جماعة امتطاؤه، أو احتواؤه هنا إما أن يغرر به حتى يقع في الشراك الأمني، أو إثارة المجتمع ضده عن طريق الإرجاف حتى يذهب مفعوله وتسقط شخصيته .

إن كارثية الوصول تحول الجماعة إلى عدو مستحكم العداء في تعامله ويكون ضد أصحاب الاتجاهات الإسلامية بلا هوادة، إن كل الحقوق الإسلامية والحرمات الذاتية للمرء، أو للجماعة تسقط تماما وتتحول الجماعة إلى حالة طوارئ، وتستنفر كل طاقاتها كأن بلاد المسلمين قد احتل حجرها ومدرها، ولم يبق فيها بيت مدر ولا شعر إلا وقد رفع الكفر فيه رايته، إنها الحزبية قاتلها الله، والله إنني أذكر قصة

ليس المجال مجال ذكرها لإحدى الجماعات المغلقة ضد داعية من الدعاة، لو أعد الشيطان فصولها لما بلغ ما بلغت تلك الجماعة، والله لقد جعلتني أقف موقف المتأمل كثيرا، هل هذا يصير بين من يحمل روح الإنسانية، ناهيك عمن يحمل روح الإسلام، بل من يدعي أنه يقرر في المجتمع قواعد الدين، وإنه يسعى إلى إعتاق الأمة من ربقة العبودية لغير الله إلى العبودية المطلقة لله، ومن جور الحكام إلى سعة الحزبية، والجماعة ذات الإسلام الحصري، ولو كان مفهوم المخالفة له مجال في كثير من هذه القضايا .

إن كارثية وصول الغير تدفع الجماعات إلى الاستقواء على ذلك الغير بكل ما أوتي من وسائل شرعية وغير شرعية، واجتماعية وحكومية، والتدخل أحيانا في عراك وصراع مباشر، إذ تسنى ذلك والساحة مليئة بالشواهد، فكم قتل على أيدي الجماعات المسلحة في سوريا -التي نسأل الله أن يوحد كلمتها على الحق، وأن يزيل إحن الجماعات وعداوتها فيما بينهما - ومن قادتها على يدي بعضها البعض بالمئات هذه تمثل الجبهة الإسلامية، والتي تحاول أن تحتوي النصرة حتى مكنت بعض أتباعها من اختراقها عن طريق الإرشاد والفتيا وغيرها، بل لقد ضمت جمعاً من الجماعات المجاهدة تحت لوائها، وهذه تمثل داعش وهذا تمثل الجيش الحر، وهذا وهذا وحدث ولا حرج.

إن الأمة لا يمكن أن تنتصر وهي يعيش في أوساطها مثل هذه المفاهيم الارتكاسية، وما يذهب ريح الأمة، بالتنازع وكارثية وصول الغير، ومن هو الغير هذا إنه مسلم له من الحقوق ما لك، فقد يكون حزبياً وقد يكون غير حزبي، وفي كلا الأمرين هناك حقوق إسلامية، وآداب شرعية لابد أن تراعى، وينظر لمصلحة الدين والأمة فوق مصلحة الحزب ودعوة المصلحة، لأن مصلحة مليارات من البشر المسلمة خير من مصلحة مئات من الحزبيين .

ونحن محكومين بضوابط شرعية تضبط تعاملاتنا وما علينا من حقوق خاصة وعامة، وأن الأمر ليس للهوى فيه مجال، ولا المصالح الصغرى تقدم على الكبرى، ولا النفعية على النفع، ولا الأنانية على حب إعطاء كل ذي حق حقه .

22-32: الجماعات والمراجعات

العمل البشري يحتاج دائما لمراجعات وتقويم، وإعادة نظر في ما كان يحتاج إلى النظر فيه، فالدين الإسلامي ثابت في مفاهيمه وتشريعاته، ونظمه تحتاج بعد كل فينة من الوقت إلى مراجعة تعاملنا مع هذا الدين، هل حاد بنا السير عن سلوك طريق النجاة ؟ فنعاود رد الراحلة إلى جادة الطريق، أم نحن على الطريق فنحمد الله ونجدد الولاء والعطاء، إن محاسبة الإنسان نفسه ومراجعتها أمر مطلوب، فلقد كان أحد السلف يحاسب نفسه أكثر وأشد مما يحاسب شريكه، ومحاسبة الذات ومراجعتها نجاة لها، لأن العمل لابد أن يكون له ثلاثة أثاف العلم، وتصور ذلك العلم تصورا صحيحا، ثم التطبيق والممارسة لذلك العلم، ثم المراجعة وبناء النقد الذاتي والجماعي.

قال الله تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴾ (محمد: 19).

فالآية ذكرت العلم وهو أمر مطلوب، ثم ذكرت الاستغفار ولا يكون الاستغفار إلا فيما بين العلم والاستغفار، وهو الممارسة والعمل، إما بتقصير، وخلل مع العلم، وهذا فيه أمر بالمراجعة والاستغفار، ثم لم يقتصر استغفاره على نفسه، أو جماعته، بل لكل المؤمنين والمؤمنات، وهذا فيه إيحاء إلى المراجعة الذاتية والنقد لها، وتعميم الخير لكل الأمة في الدعاء ومن باب أولى إشراكهم في العمل لهذه الأمة، وأن لا يقتصر على فئة معينة، فقد تكون الأهلية عند غيرهم أعلى والإخلاص أوثق، لأننا أمة البلاغ.

قال الله تعالى: ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ (آل عمران: 20).

وقال تعالى: ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (الشعراء: 3).

وقال تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ (الكهف: 6).

والبلاغ لا يكون إلا بإظهار أمور الدعوة، وإيصال حقيقة هذا الدين إلى المسلم قبل الكافر إذا كان يجهل.

إن مراجعة هذا المفهوم في حياة الجماعات أمر مطلوب إنها يجب أن تسخر الجماعات للدعوة والعمل من أجل هذا الدين وان يكون ما تدعو إليه ليله كنهاره واضح (لا تمييع ولا غلو)، ولا إبهام فيه، إنه دين الله لا يحتاج منا إلى مكر وخديعة لمن ندعوهم، لأن الأصل في دعوتنا وبلاغنا أنه رحمة للعالمين، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (الأنبياء: 106، 107).

فهل الجماعات بهذه الكيفية رحمة أم عذاب ؟ يحتاج الجواب إلى مراجعة مع تجرد بعيداً عن الحزبية والتطرف الفكري، والغلو الحزبي ومفهوم الجماعة أولا.

إن الجماعات قد تحدث مراجعات داخلية لكنها مراجعة للأفراد والمنتمين من حيث الانضباط والمحافظة على مسار الجماعة، لا مراجعة للجماعة، ونظام الجماعة وحقيقة الانتماء للإسلام قبل حقيقة الاتباع للجماعة، وإن الجماعة إذا صحت شرعيتها فإنها وسيلة وإن الإسلام ونصرته والسعي لتمكينه هو الغاية لا السعي إلى تمكين الجماعة والعمل على تثبيت قواعدها في المجتمع بكل وسائل التمكين بغض النظر عن شرعيتها عندهم، والعمل الحثيث على تأطير المجتمع في تلك المفاهيم.

إن للمراجعات أحوالاً داخل الجماعة، وعندما ينظر ذلك الفرد والذي قد أحدث في حياته بعض المراجعات لتسلم له سفينته من الغرق يحكم عليه بالإعدام شنقا عن طريق الإقصاء، والإسقاط، وإثارة الشبه، والمكر به، ومحاربته في دينه وماله، وقد رأيت ذلك عياناً من تلك الجماعة المنغلقة التي تحولت إلى شيطان مارد يمكر آناء الليل، وآناء والنهار، وتحويل كل حسنة إلى سيئة والوشاية بالغير حتى يصدق عليهم قول الشاعر:

إن يسمعوا أريبة طاروا بها فرحا متى وما سمعوا من صالح دفنوا
صم إذا سمعوا خيراً ذكرت به وإن ذكرت يسوء عندهم أذنوا

ولهذا فإنني لا آمن هذه الجماعات، وهذا الحاصل من الاستقواء على الغير بما هو محرم من جهات أمنية، أو الإيذاء للغير في كل حياته سببه الحزبية، ولولا التدافع لرأيت العجب مع أنني لا أنكر أن في ذلك الوسط الحزبي ربانيين قد غرر بهم، أو أثرت التربية الجماعية عليهم ففيهم محبون للخير لكن تأثير التربية جعلهتم لا يستطيعون إخراج عملهم عن مسار الجماعة وهم ينظرون إلى ذلك أنه دين وقربة وهذا إن شاء الله لا يفسد عليهم عملهم، لأن كلاً سيبعث على نيته.

يقول حسن الدقي: "ومن الإشكاليات التي تتعلق بالجماعات الإسلامية وتحول دون تسارع المشروع الإسلامي هو عدم سماح مناهج وعواطف الجماعات القيام بأي نوع من المراجعة، والتقويم للمسيرة الإسلامية المعاصرة، ولا للتجارب التي قادتها تلك الجماعات ودخلت فيها سواء كانت تلك التجارب في الميدان التربوي والدعوي، أو الميدان السياسي والفكري، أو الميدان الجهادي مما يكرس الأخطاء الكبرى ولا يسمح باستثمار النجاحات، ويؤدي إلى الوقوع في نفس الحفر التي وقع فيها الدعاة من قبل"[1].

(1) ملامح المشروع الإسلامي (192).

إن المراجعات أمر حتمي للجماعة وللأفراد، فقد ألف الداعلية الإسلامي فتحي يكن كتابه "المتساقطون على طريق الدعوة كيف ... ولماذا؟" ومن يقرأه يعرف كيف كان تحمس هذا الداعية وكيف تصوره على من هو خارج الجماعات، لكنه بعد المراجعات وخاصة في آخر حياته تراجع عنه وعن هذا التصور فكتب "نحو صحوة إسلامية في مستوى العصر" وغيره مع ما عليه من ملاحظات، وله في ذلك عدة كتب، وكذلك سعيد حوى والذي تراجع وكتب عن ذلك كتابا في مجلدين طبع المجلد الأول.

وإن من راجع من الأفراد كما يعبر عنه داخل الجماعة المنغلقة "سقط على الطريق" يجب أن يقف معها وقفة متأنية، وأن يؤخذ في الاعتبار أن حق الإسلام لم يسقط في حق المراجع كما هو في مفهوم الجماعات، وأن تبقى الأخوة والتزاور والتواصل إذا كنا صادقين أن الرابط رابط الإسلام لا رابط الجماعة، وإن كان الظاهر أن الرابط هو رابط الجماعة، لأن المراجع قبل مراجعته يستقبل بالأحضان وبعد المراجعة تقطع معه كل صلة حتى السلام عند اللقاء، ولو بقيت على هذا لكان الأمر أهون، بل تعدى ذلك إلى إلحاق الأذى والسعي إلى التحجيم، والإسقاط، وتشويه صورة ذلك المراجع – فإنها والله لواحة كارثة حقيقية، عندما يكون هذا هو أساس الانطلاق والعمل لهذا الدين، الويل كل الويل لمن راجع.

إن الجماعات تسعى لأن يكون الفرد عندها مكشوفاً من كل الجوانب، لا تخفى منه خافية، والجماعة مستورة من كل الجوانب لا تظهر منهت خافية، فهي سوداء مظلمة لا يرى السائر فيها ذاته كما قال تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتُۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ (النور: 40).

ومصداق ذلك أنك تعمل وخاصة في الجماعة المنغلقة سنين وتجد أن ما يدار داخل الجماعة خلاف ما يدار به المجتمع تماما من حيث السرية، وتسيير أحوال الدعوة، والحكم على المخالف، ففي الخارج وجه يختلف تمام، وفي الداخل وجه آخر، وأنا أقول ذلك وأتحدى أي منتسب لهذه الجماعة أن يسأل عن مسئول المنطقة، أو القطاع، أو رائد فكرها، أو كيف اختبر فلان مسئولا، أو المشروع الفلاني إن عرف ذلك كيف يدار ؟ وكيف ينسق مع الجماعة الفلانية ؟ أو من هو مسئوله؟ ولماذا اختير في هذا الأمر؟ وإن تنازلت الجماعة، فإنها تعطيه إجابات دبلوماسية كما هو حاصلها في تدينها وتعاملها مع غيرها .

إن المراجعات الإيجابية أمر حتمي في أمر الجماعة، ومن ذلك النظر في كلام من هو خارج الجماعة ونقده، لأنه إما أن يكون متجردا تماما وهذا قد يوصل لتلك الجماعة من عوامل البناء، وقواعد السير ما لا يخطر ببالها، ولا ينظر إلى هؤلاء أنهم هم العامة كنظرة الشيعة لأهل السنة، بل ينظر إلى أنهم جزء من ركاب سفينة الإسلام وأن المسلمين ليس لهم إلا سفينة واحدة، وما أحدث من قوارب فإنها مهلكة للأمة، مشرذمة لها، مشتتة لطاقاتها وعقلياتها وقدراتها تغرق عندما تصطدم بأول موجة.

أو أن يكون صاحب انتماء لجماعة أخرى قد دفعه الحسد إلى النقد وإظهار العيوب، وقد يكون مريدا للخير، فعلى الجماعة أن تقبل ذلك وتراجع أمرها، لأن الشيطان قد صدق مع أبي هريرة وهو كذوب، فكيف بمسلم يفترض أن يكون ناصحا صادقا.

إن مراجعات الجماعات لابد أن تكون على مستوى الأفراد والجماعة حتى تؤتى أكلها، وينتظم أمر الدعوة إلى الله وتخرج الجماعات من نفق التيه، والحزبية، والضياع، والعيش على سراب بقيعة، إنني أرى أن يكون هناك قاعدة بناء داخل الجماعات لا يكون همها إلا مراقبة سير الجماعة، وتقويم ذلك بحيادية وتقويم كل جوانب العمل الدعوي، ويكون ذلك كبرج المطار تماما، وأن يكون القائم عليه

مؤهلا شرعيا تأهيلا عاليا ذا مرجعية دينية، وأن يحاول أن يكون له ارتباط بهيئة كبار العلماء العاملين الربانيين المتجردين من أي إيحاء حزبي، وأن يكون هناك قنوات تواصل مع الجماعات الأخرى، ليس من باب التدافع، ولكن من باب تبادل المعطيات الدعوية والآراء، والمحافظة على أفراد الأمة من التحزب، وضياع الأمة تحت مسمى نحن أصحاب الحق وغيرنا صاحب الباطل، هؤلاء المدعون للحق المطلق لهم عصمة، أو من وحي دائم لم ينقطع ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ﴾ (المدثر: 35)، علينا أن نتنازل عن كبريائنا الشخصي، وكبرياء الجماعة، والغرور المطلق الذي نتعامل من خلاله، وأن نتعامل بتواضع يسوده الرحمة وحب الخير.

من خلال اتباع سيرة رسول الله ﷺ وقد كان معه من كان من قبلهم على الصراط المستقيم .

قال الله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الفتح: 29).

إن بعض الجماعات قامت ببعض المراجعات كما حصل في جماعة الجهاد، فقد قامت بحوالي سبع مراجعات، لكن مراجعاتها في بقاء العنف، أو نبذه وهذا جميل عندما تعترف بالأخطاء، وتعمل على نقد المسار، وتصحيح المسيرة، لكن ليس في جزئية فقط، بل علينا أن تكون مراجعاتنا لحال الجماعة من حيث هي شرعاً وحالها مع الأمة وقضايا الإسلام كاملة، أما ما تمليه علينا المتغيرات بشوائبها والرضا بقبول التحولات والتعامل معها من خلال القبول المطلق، فهذا فيه نظر، بل علينا أن نعلم أن هناك ثوابت لابد أن تفهم وعلينا أن نفهم فقه الثوابت والتي لا تدخلها المزايدات ولا المماحكات، وإن كانت وسائل هذه الثوابت حكما قد

يتغير، أما المتغيرات والتي تخضع للمصالح المرسلة والتي تقبل مسايرة التحولات، وقبول التجديد، فلها حكمها ونظرة أهل العلم الخاصة بها.

ثم إن هناك بعض الجماعات قامت ببعض المراجعات العامة نوعا ما وهي بعض الجماعات الليبية، وأصدرت دراسة تصحيحية، وقد أجادت في كثير من المراجعات إلا أنها اقتصرت فيها على الجهاد والحسبة والحكم على الناس فقط، ولو كانت أعم من ذلك في بقية المسائل التطبيقية الأخرى لكان أولى وأشمل، وهناك مراجعات فردية كما في مجلة العصر "مراجعات متأملة في المشروع السلفي الإصلاحي" وغيره لكنه تنقصها الشمولية والعمق التصوري، وإن المراجعات في حد ذاتها إيجابية، لأن فيها كسراً لحاجز الجماعات التي تنطلق من منطلق لا أريكم إلا ما أرى، كالجماعات المنغلقة ذات الطابع الحزبي الصرف، والتي تعتبر نفسها هي ذات الحق دون غيرها في تمثيل الإسلام، وتتناسى أن هناك اجتهادات وآراء اجتهادية لا تخرج من دائرة الإسلام، وأن أهل هذه الاجتهادات لهم حق الإسلام ولا يحوز إقصاؤهم، فقد يكون الحق معهم.

إن المراجعات من الأمور المهمة في حق الجماعات، وأن تنطلق من دراسات ذات أبعاد شرعية، وأبعاد فكرية، وأبعاد اجتماعية، وأبعاد توافقية بحسب ما يدل عليه الشرع، وأن تكون المسائل التي يقبل الاختلاف فيها مما يسوغ فيه الاجتهاد، وأن لا يجعل هذا الخلاف منطلق تفرق وتشرذم، بل علينا أن نجعل منه اختلاف تنوع حتى يكون رحمة للأمة، وأن لا يجعل منه اختلاف تضاد، فيكون عذابا للأمة.

23-32: الأهلية وصفات القيادة

إن الأهلية في الإسلام أشمل من نظرة أهل الأصول لها من أنها أهلية الوجوب، وأهلية الأداء، ونحن سننظر لها من خلال حديث الرسول ﷺ، عن أبي هريرة –رضي الله عنه– قال: بينما النبي ﷺ في مجلس يحدث القوم جاءه أعرابي . فقال: متى الساعة ؟ فمضى رسول الله ﷺيحدث . فقال بعض القوم: سمع ما قاله فكره ما قال . وقال بعضهم: بل لم يسمع حتى إذا قضى حديثه . قال: أين السائل

عن الساعة ؟ قال: ها أنا يا رسول الله . قال: فإذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة . قال كيف إضاعتها؟ قال: إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة[1].

إن توخي الأهلية مطلب شرعي، لأن ذلك من الأمانة، والأمانة قد تخلت عنها السموات والأرض، وحملها الإنسان، فيجب أن يحقق معنى الأهلية الحقة في تحملها، وهذا الأمر يسقط في عرف وأحوال الجماعات، لأن الأهلية بمفهومها هي من يتحقق فيه صدق الانتماء للجماعة، والقدرة على التسلق على أكتاف بعض المنتمين، أو التزكي وإظهار الولاء للقيادات المؤثرة في الجماعة، ومما يكون له منزلة يمضى من خلالها بخطوة حركية يعامل من خلال تلك الخطوة دون النظر إلى المؤهلات القيادية، وما يتمتع به من صفات وكاريزما مؤثرة.

هذا داخل الجماعة، أما ما يؤلم ويبعث في النفس الأسى، وما آلت إليه الأمور، أن أمر البحث عن قيادات عامة في المجتمع لتسيير أمر الدعوة والعمل الخيري لا ينظر فيه إلى الكفاءات العلمية والقيادية من خارج الجماعة مهما كان، إلا إذا استطاعت الجماعة احتواء تلك القيادة، وما النفرة التي نجدها بين القيادات العلمية الفذة ذات الاستقلال الفكري والدعوي إلا خير شاهد، وأن الجماعات قد عمدت على إيجاد مثل هذه النفرة التي تولد عنه تقاطع هدفه تبرير مواقفها والتخلص من عنصر فعال دخوله على الخط قد يفسد كثيرا من مآلات الجماعة، فنجد أن كثيراً من قيادات القطاع الخيري سيطرت عليه الأحزاب والجماعات المنغلقة والتي لا يظهر للمجتمع حقيقة هذه الجماعات، وكذلك القاطع الدعوي، فمكاتب الدعوة هي التي تحاول بكل ما أوتيت من قوة النفوذ إلى المؤسسات الدعوية لتحكم سيطرتها عليها، وأن تضع برامجها وأن تصادر كل طاقات المجتمع المؤهلة وأن يتولاها من هم بالنسبة للعلم الشرعي أصاغر وهذا من علامات الساعة.

(1) البخاري 1/ 141 رقم 59.

عن أبي أمية الجمحي أن رسول الله ﷺ قال: من أشراط الساعة أن يلتمس العلم عند الأصاغر"[1].

ولأهلية أن يكون مصدر العلم وقيادات الأمة من قبل الأكابر لا الأصاغر، لأن الأكابر هم الذي يذعن لهم والأصاغر لا تستجيب الأمة لهم، وتحافظ على خيريتها، فإذا انعكس الأمر وأصبح يقود الأمة الأصاغر، كانت المهزلة، وأسند الأمر إلى غير أهله، فقل لي بربك هل يصح أن يقود العمل الدعوي، أو جماعة مدرس رياضيات يعتمد في ما يكتب على عدد من الأتباع، ثم يكون فيه من المخالفات ما فيه، ويعتبر هو الأب الروحي ؟!

يقول ابن مسعود: إنكم لن تزالوا بخير مادام العلم في كباركم، فإذا كان العلم في صغاركم سفه الصغير الكبير"[2].

قال الشاعر:

متى يصل العطاش إلى ارتواء إذا استقت البحار من الركايا
ومن يثن الأصاغر عن مراد وقد جلس الأكابر في الزوايا
وإن ترفع الوضعاء يوما على الرفعاء من إحدى الرزايا
إذا استوت الأسافل والأعالي فقد طابت منادمة المنايا

يقول ابن حزم –رحمه الله-: "لا آفة على العلوم وأهلها أضر من الدخلاء فيها، وهم من غير أهلها، فإنهم يجهلون ويظنون أنهم يعلمون، ويفسدون ويقدرون أنهم يصلحون"[3].

إن كنت تنوح يا حمام البين للبين فأين شاهد الأحزان

(1) كتاب الزهد لابن المبارك (61) وقال الألباني صحيح 2/ 316.
(2) جامع العلم لابن عبد البر 1/ 116 رقم 1059، وقال المحقق عنه: صحيح .
(3) مداواة النفوس (67).

ويقول الأمير شكيب أرسلان: "ومن أعظم أسباب تأخر المسلمين العلم الناقص والذي هو أشد جهلا من الخطر البسيط، لأن الجاهل إذا قيض الله له مرشدا عالما أطاعه، ولم يتفلسف عليه، فأما صاحب العلم الناقص فهو لا يدري ولا يقتنع بأنه لا يدري.

وكما قيل: ابتلاؤكم بمجنون خير من ابتلائكم بنصف مجنون.

وأقول: ابتلاؤكم بجاهل خير من ابتلائكم بشبه عالم"[1].

أليس من إسناد الأمر إلى غير أهله داخل الجماعات المنغلقة أن يكون في منهجهم كتاب مثل الروضة الندية، أو منار السبيل، أو العبودية، أو الواسطية، أو كتاب التوحيد لمحمد بن عبد الوهاب، أو المستقبل لهذا الدين، أو مقطع من إحدى السور يحضر من الظلال، وابن كثير، ويتولى ذلك طالب في كلية التقنية ويشرح أبواباً في الفقه، وعقيدة القضاء والقدر، مفهوم التوحيد وغير ذلك، ويحذر الطالب من حضور حلقات العلم للعلماء الكبار، أليس هذا من إسناد الأمر إلى غير أهله؟ إن القضية خطيرة جدا، وبسببه ظهر التزبب قبل التحصرم، وسَفَّه الصغار الكبار، وهذه الصورة هي تبين لك حقيقة البناء العلمي والفكري لأفراد الجماعة، والذي يظهر لك ضبابية الجماعة المنغلقة، والتعالم عند أفرادها والاستعلاء، لأنهم في محاضنهم التربوية، يعامل الواحد أنه عالم الأمة ومفكرها، وأنه يجب أن يصدر كبار العلماء عن رأيه، وفكره، وقدرته التحليلية والتي هي في أصلها ظنون ومقدمات واهية يبنى عليها نتائج خاطئة، إن الأهلية يجب أن تكون في أهلها وأن يحافظ على من يجب أن تكون فيه بشروط أن يوسد الأمر إلى أهله، من القدرات العلمية والفكرية، والقيادية، والاجتماعية والرسوخ في ذلك حتى ولو اتفقت معه، أو اختلفت، لأن المسألة مسألة دين وحق أمة لا حق جماعة، أو شخصنة الأهلية لأسباب ذاتية، أو انتمائية حزبية طائفية نفعية، إسقاطية .

(1) لماذا تأخر المسلمون (75).

إن الله قد طلب منا التجرد المطلق لهذا الدين، وأنه اغنى الشريكين، فليتق الله الحزبيون المتعالمون في حق هذه الأمة، وأن الدين ليس لفئة دون فئة، وأن الأهلية لا تكون من خلال نظرة الجماعة ومقاييسها ومواصفتها، وإن ما كان خارج هذه المقاييس ومواصفاتها معدوم الأهلية وإن بلغ من العلم والكاريزما ما بلغ، لأن الأهلية ماركة ليس للغير أن يحمل هذه الماركة ذات العلامة المميزة، وهي الحزبية التي يميز بها أتباع كل جماعة، فالماركة الحزبية دمغة دعوية يحملها كل أفراد الجماعة، فإذا اختلفت هذه العلامة سقط الحق وضاعت الأهلية، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

32-24: قصر مفاهيم الإسلام على ما يخدم أفكار الجماعة

إن مفهوم المصلحة مفهوم لابد أن يُعلم أنه مفهوم خاص ومفهوم عام، وأن المفهوم العام مقدم على المفهوم الخاص لها وقد تقدم معنا شيء من ذلك، والجماعات تقصر مفهوم المصلحة على مفهومها القاصر، أو الخاص بالجماعة فقط، وهذا لأن المصلحة العامة فيها الشمولية، والنفع العام للمسلمين، ومفهوم المصلحة عند الجماعات هو دفع الأذى والضرر عن الجماعة مقابل إلحاق ذلك بالأمة، أو الغير من المسلمين، وهذا قاعدته الحزبية والإسلام جاء ليخرج المكلفين عن دواعي أهوائهم حتى يكونوا عباداً لله إخوانا.

وهذا ما يشهد به واقع الحال ففي اليمن راعي حزب الإصلاح مصلحة حزبه، وأهدر مصلحة الشعب بكل أطيافه فكانت تلك الهزيمة المنكرة، ومع ذلك فإن الحزب قصر فهم الحقائق عليه فقط، وإن تصرفه كان انتصاراً، والحقيقة إنه عين الانكسار الذي أدى إلى سقوط صنعاء، بل اليمن كله في يد مجوس اليمن لمصلحة إيران، إنها حقيقة قصر المفاهيم والقدرة على معرفة مصلحة المسلمين على الجماعات فقط.

يقول الشاطبي –رحمه الله–: "إن القائم على المقاصد الأصلية –أي المصلحة العامة– قائم بعبء ثقيل جدا وحمل كبير من التكليف لا يثبت تحته طالب الحظ في الغالب، بل يطلب حظه بما هو أخف وسبب ذلك أن هذا الأمر حالة داخلة

على المكلف شيئا أو أبى، يهدي الله إليها من اختصه بالتقريب من عباده، ولذلك كانت النبوة أثقل الأحمال وأعظم التكاليف ... بخلاف طالب الحظ فإنه عامل بنفسه، وغير مستويين فاعل بربه، وفاعل بنفسه"[1].

لكن هذه المصالح الأصلية قد اجتزأتها الجماعات لمصالح خاصة، ونزلت عليها مفهوم المصلحة الكلية وهذا شطط في التصور والفكر.

فالجماعات تنزل فهم الجهاد بمفهومها فتجعل الجهاد نوعا واحد وتترك أنواعه الأخرى، فمثلا هذا الحديث عن أنس بن مالك –رضي الله عنه– عن رسول الله ﷺ قال: "لغدوة في سبيل الله، أو روحة خير من الدنيا وما فيها"[2].

يفيد ذلك في فهم الجماعات بالسعي غدوة، أو روحة في عمل يخدم الجماعة، وأن هذا العمل هو يقوم مقام الجهاد، والتنازل عن حقيقة الجهاد الحقيقي إلى فهم أن الدعوة إلى الجماعة هي من الجهاد، وإن لم تكن الجهاد وعليه فلا يجوز لمسلم بحال التنازل عن شيء منه، أو خلطه بباطل، أو تغيير حكمه، فأي فرقة، أو جماعة يكون منهجها تجزئة الإسلام –بمعنى الأخذ بأحكام دون أخرى– أو التزام ما لم يرد به الشرع فهي بدعة وضلالة لا يجوز التزامها، واعتبر هذا في مناهج الفرق والأحزاب والجماعات، وإن دق"[3].

أي جماعة إسلامية هذه التي ترى –بكل جلاء– أن الانتماء دائما لا يعني التضحية في سبيل الله"[4] بل التضحية في سبيل الجماعة.

(1) الموافقات 2/ 496، 497.

(2) البخاري 6/ 13 رقم 2792.

(3) حكم الانتماء (116).

(4) حكم الانتماء (141).

"الحزبية تقوم على التسليم بآراء الجماعة، وتوزيعها ونشرها، وسد منافذ النظر والنقد لها وهذا يناقض ما دعا إليه الشرع"[1].

ومن ذلك تنزيل مفهوم البدعة من منظور الجماعة والتعامل من خلال هذا المفهوم على المخالف بتنزيل أقوال السلف عليه، ومن هنا كان الاضطهاد للمخالف كما يرونه مبتدعا بمفهوم الجماعة لا بمفهوم الدين، وهذا المفهوم هو من الجوانب التي يسيطر بها على عقل المنتمي، ويبني على هذه الأحكام الولاء والبراء، وينزل على المخالف حكم المبتدع بمفهومه هو، فيكون مبتدعا ولا كرامة، وهذا المفهوم هو من ركائز الجماعات وتصنيف المسلمين وعباد الله أجمعين، إنها من ضمن المفاهيم التي تقصر الجماعات فهمها عليها، ومن خلالها تحكم على الناس بأحكام غير شرعية، وليست من الدين في شيء، بل قد تحكم على مسلم بأنه مبتدع بما ليس فيه بدعة، أو لما خالف فيه تلك الجماعة، وقد تكون الجماعة هي المبتدعة وهو المعيب أنه قصر مفاهيم الدين على الجماعة.

إن الجماعات تجعل من المفاهيم العامة والتي تتعدد أفرادها في مفهوم واحد وخاصاً بفرد واحد ومن ذلك مثلا الصدقة فإن الجماعات تحصر ذلك المفهوم في المال فقط وتحجر واسعا، وتعيش من لا مال له في دائرة الغم، والصدقة أعم من ذلك، فأبوابها كثيرة جدا وليست الصدقة بالمال إلا بابا من أبوابها، ولكن الهدف هو الجانب التمويني للجماعة، ثم القصور في الفهم الشرعي وجر هذا القصور إلى قصر فهم الصدقة على ما يخدم الجماعة.

إن الجماعات لا تتخذ من سؤال أهل الذكر منطلقا في فهم ما قصر فهمها فيه، لأنها تنطلق من مفاهيم خاصة بالجماعة وفلسفة لها مقدماتها ونتائجها الحزبية، ثم الاستعلاء والتعالم الذي يعيشه أفراد الجماعة ومراكز القيادة فيها، والنظرة الدونية لعلماء الأمة ومحاكمتهم دائما إلى أخطائهم، وجعل العصمة للجماعة،

(1) حكم الانتماء (149).

وبذلك تتعدد العصمة ويتعدد الحق، لأن كلاً يدعي وصلاً لليلى وهذه ألغام في طريق الأمة .

يقول بكر أبو زيد: "تعدد الحزبيات من مقاتل العمل الإسلامي"[1].

25-32: مصادر التمويل

إن مما تحمد فيه الجماعات الرافضة والفرق الباطنية –وإن كان لا خير فيها– أن لها موارد تمويل، وإن استراتيجية الخمس عند هذه الفرق استراتيجية ناجحة لتمويل مشاريع أعمالها، ومن هنا أخذت أكثر هذه الجماعات نفس الفكرة، وأخذت تطبقها، وتفرض على الأتباع مكوساً وضرائب بنسب معينة، وأذكر أن أحد المنتمين لإحدى الجماعات المنغلقة والتي هي أحرص الجماعات على الإثراء التمويني للجماعة، يستشيرني إنه يُطلب منه نسبة معينة من راتبه، وأن عليه ديناً، وهو لا يستطيع أن يسدد دينه، فكيف يدفع هذا المبلغ ؟ والمسئول يقيم انضباطه ومدى تدرجه في التصنيف للجماعة من خلال هذه الأمور، فأخبرته أنه سيسأل يوم القيامة عن الدين لا عن الالتزام، وأنه إذا مات فإن روحه معلقة بدينه، وإنما يدفع للعمل الدعوي إذا كان مشروعا، فإنه من باب الصدقة لا من باب الإلزام، لأنه لا يزكي إلا من كان له مال بلغ النصاب، وحال عليه الحول فتدفع في مصارفها، أما الجماعات فالدفع مما لا يسد الرمق من قوت يوم المنتمي حتى ولو كان لا يكفي لحاجته، ولا يبلغ النصاب ولا حال عليه الأسبوع، إن هذا من المخالفات التي تنتهجها الجماعات إنها مخالفات شرعية، لاشك في ذلك لأنها تفرض دفع مبالغ لمن بلغ درجة معينة في الجماعة يسمى ملتزماً، ثم إنه يجعل ضمن تقويمه ذلك الالتزام.

ومن مصادر التمويل تنمية ما يجمع من المكوس والضرائب عن طريق مشاريع تجارية، يكلف بذلك لجان خاصة بذلك، وتتنوع تلك المشاريع فقد تكون

(1) حكم الانتماء (143).

مدارس أهلية، أو مطاعم، أو استراحات، أو صيدليات، وغير ذلك، أما كيف تدار تلك المشاريع فحدث كم يحصل فيها من المخالفات والابتزاز والسرقات، ويتصرف في مصادر التمويل لهذه الجماعة المتنفذون ويجعل للعاملين عليها مقابل الإشراف ما تشرق به مصادر التمويل، ثم اتخذت الجماعات وبالذات جماعة الإخوان والسرورية تخترق المشاريع الخيرية الاجتماعية، وتنفذ إلى التجار وأصحاب رؤوس الأموال الذين قد أفاء الله عليهم من فضله، فتعمل مؤسسات خيرية لها مشاريع خيرية، وهي مشاريع رائعة، لكن الجماعات لا تترك لغيرها منفذا في الخدمة من خلال هذه المؤسسات، والجماعات تسعى لتسويق نفسها من خلال هذه المؤسسات الخيرية، ثم تموين مشاريع هي تشرف عليها لنفع أفراد الجماعة ماديا.

والجماعات تتنافس في الوصول إلى التجار وإقناعهم بهذه المشاريع، وهناك عشرات المؤسسات الخيرة، مثل مؤسسة الراجحي الخيرة والتي يسيطر عليها الإخوان مع نفوذ للسرورية قليل.

لكن السرورية عمدوا إلى مؤسسة السبيعي فسيطروا عليها تماما، وحاولوا تفريغ بعض الأفراد من الجماعة لإداراتها والتحكم فيها، وكذلك سيطروا على مؤسسة الموسى وغيرها والتي لا يمكن أن تمون مؤسسة مشروع لا يتبناه الجماعة المسيطرة، وإذا كان رجل عامي وأراد إقامة مسجد، أو دار قرآن فإنه لابد أن يأتي بتزكية من المعروفين وبالذات من رموز تلك الجماعة وقياداتها في تلك الجهة ولو أتى بتزكيه من عالم مستقل، فإن مفعولها أقل، بل قد لا يكون لها مفعول.

ثم عمدوا إلى إقامة المشاريع الوقفية للجمعيات الخيرية وجمعيات تحفيظ القرآن وهذا رائع في حد ذاته لو خرج من تحت عباءة الحزبية إلى رحاب الأمة وتكون هذه أفراد هذه الجماعات مثلها مثل غيرها في تسيير دفتة وإن من نشأ داخل تلك المحاضن ينشأ على مبادئ وأسس الإسلام بعيدا عن الحزبية وأفكار الجماعة.

26-32: عقدة المؤامرة

العداء بين الإسلام والكفر باق إلى ما شاء الله، الكفر يتزعمه الشيطان وأتباعه ينزع منه عدواته للإسلام وأتباعه.

قال الله تعالى: ﴿ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴾ (إبراهيم: 46).

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ (الأنفال: 36).

وقال تعالى: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ (البقرة: 120).

فإن من قواعد المؤامرة كيد الكفار عامة وحسدهم، وهذا من المسلمات.

فغزوة الأحزاب كانت المؤامرة جزء منها، محاولة قتل الرسول ﷺ سواء من المنافقين، أو يهود المدينة، وقتل عثمان –رضي الله عنه–، ومؤامرة عبد الله بن سبأ، وابن العلقمي، وقتل علماء المسلمين وقوادهم كصلاح الدين، وإسقاط الدولة العثمانية، أو حكومة مرسي، وإن كان لنا نحن درو في المؤامرة لضعفنا، أو ركوننا إلى الذين كفروا فمسنا عذاب المؤامرة، أو كيد العدو وحسده.

إن التآمر الكوني على الإسلام وأهله لا ننكره، ولكن جعل هذه المؤامرات أمرا يفتك بالقيم والقدرات والطاقات، فيفرز لنا جيلا رعديدا يفر من صفير الصافر، لا ينظر للحياة إلا من خلال العدو، إن ذلك هو ما تمارس الجماعات مع أتباعها، وهذا بسبب الضعف الذي تعيشه، تلك الجماعات من حيث البناء النفسي، والإيمان المطلق بقضية القضاء والقدر، وأنما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، وإن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لن ينفعوك

إلا بشيء قد كتبه الله لك وكذلك لو أرادوا ضرك، وليس المراد أن لا يكون لدينا دراية بأحوال الكفار وأعداء الدين، ومعرفة مخططاتهم. قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ (الأنعام: 55).

يقول سيد قطب –رحمه الله–: "واستبانة سبيل المجرمين هدف من أهداف التفصيل الرباني للآيات، ذلك إن أي غش، أو شبهة في موقف المجرمين، وفي سبيلهم ترتد غشا وشبهة في موقف المؤمنين وفي سبيلهم"[1].

إن معرفة مخططات العدو، أو مؤامراتهم جزء من الجهاد في سبيل الله، وجزء من الإعداد السليم، لكن ليس معنى ذلك أن نجعل كل ما يحاط وما يحصل للأمة من كوارث، وتخلف، وأحداث بسبب المؤامرات، إن جعل ذلك كله مؤامرات هو هروب إلى الإمام وخاصة عند الجماعات الإسلامية، والتي تدعي أنها تبني أتباعها بناءا تربويا خاصا، هذا البناء ضد الصدمات والكدمات والخرافات والمؤامرات، إنه تنظير يكذبه الواقع، فالجماعات تجعل من سبب إخفاقها المؤامرات.

وهذه العقدة حالة ذهنية قد سيطرت على أفكار وأدبيات الجماعات، وقد يراد من هذه الأدبيات والمبالغة فيها هو المحافظة على مكتسبات الجماعات عن طريق الشحن، الذي يقبل التوجيه من الجماعة دون ترو، أو تفكير، والتفاني في قبول تلك الأفكار والأدبيات والتبريرات، لأنها تقف بذلك في نظره سدا منيعا في وجه ذلك، وأنها تملك من القدرة على فهم العدو، أو معرفة ما عنده وخططه أكثر من غيرها.

إن عقدة المؤامرة لدى الجماعات جعلت من أعداء الإسلام غولا لا يمكن الوقوف في طريقه، وأن ما يريده هو ما يجب أن نسلم بوقوعه، وهذا فيه من الخلل

(1) ظلال القرآن 2/ 1105، 1106.

العقدي ما فيه، أين موقف الرسول ﷺ في غزوة الأحزاب حيث ضاقت عليه الأرض بما رحبت.

إن الجماعات تربي أتباعها على شبحية المؤامرة، وأذكر أننا ونحن في المرحلة الجامعية كان في إحدى الفترات دراسة عن الماسونية وكشف ذلك الدرس، وأخذ عدة حلقات حتى أصبحت أتصور ان الماسونية هي التي تحكم في الكون من غير الله، حتى والله إنني أنظر إلى أمي أنها في إحدى المحافل الماسونية، وهي أمية بدوية عاشت في البادية حتى أصبح لدي لحية وأنا في المرحلة الجامعية، إنه تهويل ذلك الأمر عند الجماعات، بل من علماء الأمة من أصبح في أذهاننا أنه ماسوني لاريب في ذلك، وفي الحقيقة إنهم من زعماء الإصلاح في وقتهم، سواء اتفقنا معهم ام اختلفنا، فعبد الرحمن الكواكبي عندهم ملحد بسبب تصوير علاقاته وأهداف إصلاحه، أنه العدو المبين للدين، وأن محمد عبده وجمال الدين الأفغاني هم في خدمة الماسونية وأن لهم علاقة بالمحافل الشرقية الماسونية، وأنا لا أمانع أن يكون في فترة من الفترات وقع لهم تأثر معين ببعض شعاراتهم، لأن لهم شعارات براقة، لكن ليس معنى ذلك أن يسعى محمد عبده إلى هدم الدين وضرب الإسلام، ومن يقرأ كتاباته في العروة الوثقى يعلم ذلك، وصور رفاعة الطهطاوي تصويرا بشعا ويجني عليه كثير من الناس، بسبب هذه التربية وأن يحمل بعض هؤلاء من أفكار قد يكون فيها موافقة، أو صلات تكون بسبب زيارة لمحفل، أو غيره لا يدل على أن تلك الأفكار، أو الصلات أنه ماسوني.

وأذكر أن أحد المتدينين زار أحد أقاربه في إحدى مباني المباحث العامة ورآه بعض القيادات في الجماعة المنغلقة وهو يعرفه وكان هذا المتدين رجلا طيبا يحب الدعوة والمستقيمين على بساطة ونقاء سريرة وصفاء نية كما نعلمه ويظهر لنا، وفجأة إذا هؤلاء الناس الذين يراهم أحسن الناس قد انكفؤوا عنه، وتجهمت وجوه القوم عند لقائه، فأساءه واتخذوا ضده سلاح مقاطعة والحاضر يخبر الغائب أن فلاناً في المباحث، وبقي المسكين على هذا الحال ما يقارب خمسة عشر عاماً

يتجرع آلام الأحكام الجائرة والقرارات الخاطئة والتعامل مع الأحداث بغير واقعية وعلى فرض أنه في المباحث هل كفر ؟ إنه قطاع من قطاعات الحكومة فيه البر وفيه الفاجر.

إن تهويل عقدة المؤامرة والهوس الذي تعيشه الجماعات، وهذا الهوس الذي جعل من كل متحرر من أفكارها متأخراً، وكل حدث حتى ولو كان حدوثه عرضا خطط له اليهود وتبناه الطابور الخامس، إن هوس المؤامرة أوجد فجوة بين الجماعات ومسئولي الحكومات، وبينها وبين بقية المجتمع والذي يوزع عليهم داخل الجماعات الأحكام بأنهم علمانيون، وليبراليون، وأهل سفارات وعلاقات خارجية، وداخل الصف، هذا خارجي، وهذا مرجئ وهذا يكتب تقارير، وهذا جامي، وهذا يخدم الأفكار المنحرفة، أنا لا أنكر وجود مثل هؤلاء، لكن ليس بهذا التصور، وبهذه الكيفية التي يبنى عليها عقلية الأتباع، فأصبح ينفر من كل من حوله، ويتصور أنه لا يكون خاليا من المؤامرة، وهذا في حد ذاته تعتبره الجماعات مكسبا أن تحافظ على مكتسبات الجماعة من خلال إحاطة الأتباع بسياج المؤامرة.

إن مدبري المؤامرات في الغرب والشرق لاشك أنهم يواصلون الليل بالنهار لاجتثاث الإسلام، لكن ليس لديهم القدرة على ذلك، بل هم يمكرون ويمكر الله، وإنهم سينفقون أموالهم ثم تكون عليهم حسرة . قال الله –تعالى-: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ (الأنفال: 36)، والواقع يشهد بذلك، فالربيع العربي قد فاجأ العالم كله، بل وقبل ذلك الجماعات الإسلامية والتي حاولت أن تركب الموجة بعد أن ظهر ذلك الربيع. غزة واستراتيجياتها العسكرية وقدرتها والتي كان العالم يرصد حركتها براً، وبحراً، وجواً ومحاصرينها في رقعة من الأرض بسيطة جدا، ثم تظهر لهم من القدرات ما لم يكن في الحسبان ولا في

قدرات تلك القوى الاستخباراتية والتي قد سخرت من الإمكانيات والقدرات ما يذهل أهل التفكير، لكن قدرة الله فوق ذلك.

إلا أن حماس ترتكب بعد هذه الحماقة التي يرتكبها الإخوان دائما، وهي كثرة التصريحات وإسقاط الآخرين، ودورهم في هذه الحرب على غزة، وتجيير كل هذه الجهود من كل شعب غزة والجماعات بكل أطيافها المقاومة، والشعب الذي لم يقل عن تلك المقاومة، بل تحول إلى جزء فيها تختزله في حركة حماس فقط، وكأنها هي التي قامت بكل هذه التضحيات دون غيرها، إنها محاولة تجيير المكتسبات.

إن عقدة المؤامرة واستغلالها عند الجماعات لمن المؤسف مصادمة لقضية الإيمان بالقضاء والقدر، ثم فيها إهدار طاقات الأمة عن طريق التثبيط، والهلع والخوف الدائم من القادم ونزع التفاؤل، والمحافظة الدائمة على السرية، التي هي جزء من مرض الجماعات، قل لي بربك كم عمر السرية عند هذه الجماعات؟ إنها عمر الجماعة كاملة، فمتى سيكون النور لبرامج وخطط الجماعات المنغلقة والتي هي ستنقذ الأمة بها كما تدعي ظاهرة عيانا.

إن الثورات في أفغانستان، وسوريا وغيرها قامت وغيرت، وأرهبت العالم على أكتاف الشعوب لا على أكتاف الجماعات والتي هي كالفطر في المجتمعات تتسلق على منجزات الشعوب، وتصادرها لصالحها وتحاول أن تبنى لها من خلالها مكانة اجتماعية عن طريق ما هيأت لنفسها من أبواق إعلانية ودعائية ونفعية، قد دربت ذاتها على ذلك، وكان حريا بها أن تقول للمحسن أحسنت، ولا تقول للمحسن هذا عملنا لا عملك، وتقول للمسيء أسأت لتبقى هي ذات الصواب وغيرها هو المخطئ.

إن الجماعات تحتاج إلى شيء من الجرأة لتحرير أفكارها وأفكار أتباعها من عقدة المؤامرة والاصطياد في الماء العكر من خلاها تقوقع أتباعها حول أفكار الجماعة.

إن الأعداء يدرسون ويخططون ويحاولون معرفة أحوال المسلمين من الداخل، واستغلال ذلك وعلى مر التاريخ لم تنجح مؤامرة الخارج إلا بتواطئ الداخل، بل إن تربية المجتمع أحيانا تكون طرفا في المؤامرة باستسلامه لها، وعدم القدرة على ردها وإنه أمر لا راد لنفاده، وأن عدم تكافؤ الأطراف والإمكانيات يجب علينا أن نستسلم لها، ونسوا أنه لا يهزم اثنا عشر ألف من قلة .

عن ابن عباس –رضي الله عنه– قال: قال رسول الله ﷺ: "خير الصحابة أربعة، وخير السرايا أربعمائة وخير الجيوش أربعة آلاف، ولا يغلب اثنا عشر ألف من قلة يبلغون أن يكونوا اثنى عشر ألفا"[1].

كتب عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– إلى سعد بن أبي وقاص: "إنما يغلب المسلمون عدوهم بتقواهم لله، ومعصية عدوهم له، فإذا استوينا وهم في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة".

ويذكر أن بعض أتباع الشيخ محمد بن عبد الوهاب –رحمه الله– خوفوا بالطيران الحربي الإنجليز وأنه يسقط قنابل تقتل وتفتك بالأشخاص، فسأل أحدهم، هذه الطائرات فوق الله وإلا الله فوقها . قالوا: الله فوقها، قال: لا نخافها لأن الله فوقها.

قال الله تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ (البقرة: 249).

(1) أحمد 1/ 294، 299 . قال المحقق حسن لغيره 4/ 451 رقم 2718، وقد صححه ابن خزيمة، وابن حبان، والحاكم، ابن خزيمة 4/ 140 رقم 2538، وابن حبان 11/ 17 رقم 4717، والحاكم 1/ 443، وقال أبو داود: الصحيح أنه مرسل رقم 2611، وقد اختار ذلك جمع من العلماء.

والله تعالى يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (الأنفال: 65، 66).

وعندما نستعرض التاريخ، كم من جيش إسلامي تعداده بضعة آلاف، وتجهيزاته تكاد تكون بدائية بالنسبة للعدو، ويقابل مئات الآلاف وينتصر عليه.

إن بناء الأمة لا يكون إلا بعلو الهمة، وإقامة الدين داخل أنفسنا قبل أن تقيمه على أرض الواقع، وأن نستعلي على كل ما هو أرضي وأن يكون شعارنا أن الله معنا، وأنه مولانا، وأن الكافرين لا مولى لهم.

ومن كان الله معه فلا غالب له، وأن ننزع عقدة المؤامرة المستحكمة في حياة الجماعات، والتي ألقت بظلالها على حياة الأمة، وأوهنت قواها وأقلقت كيانها وفتت شعوبها.

27-32: حب القيادة

حب القيادة والتطلع إليها أمر تتوق إليه كثير من النفوس وإن اختلفت أسباب تلك التطلعات، وعظم في ناظر المتطلع مقاصدها، وقد يسلك لها مسالك إلا أن تلك المسالك أحيانا، بل غالبا مسالك غير مرضية لا أخلاقيا ولا شرعيا، ولا إنسانيا، مما يجعل من أمرها ندامة في حق كثير من الناس في الدنيا والآخرة .

عن أبي هريرة قال: قال ﷺ: "إنكم ستحرصون على الإمارة، وستكون ندامة يوم القيامة، فنعم المرضعة وبئس الفاطمة"[1].

وإن من أشنع الأمارات وأشدها فتكا بصاحبها القيادة الدينية حيث تُجَيِّر لمصالح ذاتية، أو حزبية، أو دنيوية، إن حب القيادة يؤدي إلى التخلي عن كثير من

(1) البخاري 1/ 330 رقم 7148، أحمد 2/ 448 .

القيم والمبادئ والأخلاق في سبيل البقاء، فمن كان هذا طبعة كان موكولا لها غير مسدد، بخلاف من كان أخذها دون اختيار وإنما لمصلحة عليا، وتحقيق أهداف سامية، فإنه يعان عليها بإذن الله، إن الحرص على القيادة من مفسدات الدين وهي شهوة حقيقية في منحنيات النفس قد يضحي المرء من أجلها بكل شيء من أخلاق وقيم ودين.

قال ﷺ: "ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأشد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه"[1].

كتب سفيان الثوري –رحمه الله– إلى عباد بن عباد رسالة فيها: "إياك وحب الرياسة، فإن الرجل تكون الرياسة أحب إليه من الذهب والفضة، وهو باب غامض لا يبصره إلا البصير من العلماء السماسرة، فتفقد نفسك، واعمل بنية".

إن حب الرياسة والقيادة قد يجعل من المرء كارها للحق راداً له مما يوجد لنا قيادات تحرص على القيادة والرياسة أكثر من حرصها على الحق.

يقول الحارث المحاسبي: "كفرت علماء اليهود بالنبي ﷺ وهم يعرفون أنه قد جاء بالحق من عند الله –عز وجل– حسدا أن يرأسوه عليهم، وتذهب رئاستهم في اليهود فيكونوا أتباعا بعد أن كانوا متبوعين".

وكذلك في العبادة يكره أن يترأس بها فوقه، ويعظم عليه، فيقع العالم في العالم والعابد في العابد، خوفا أن يترأس عليه، أو يكون فوقه، أو يعظمه الناس، ويجب أن يهتك الله ستره، وأن يعفو الله –عز وجل– فيفتضح بذلك، وأن يخطئ على الله –عز وجل– في دينه ويقول عليه بغير حق، لئلا تثبت له رئاسة، ولئلا تقوم له منزلة، فيجب أن ينزل به كل ما فيه زوال الرئاسة عنه، والتعظيم من

(1) أحمد 3/ 456، الترمذي 4/ 588 رقم 2376، ابن ابي شيبه 13/ 241، والدارمي 2/ 304، وابن حبان 8/ 24 رقم 3228. وقال المحقق: إسناده صحيح على شرك مسلم، وقال الترمذي: حسن صحيح، وصححه ابن حبان.

الناس"[1] . وهذا ديدن قيادات الجماعات سواء داخل الجماعة أو مع الجماعات المنافسة.

إن حب القيادة قد أوهن العمل الإسلامي، وشرذم الأمة، وجعلها أحزابا وجماعات، ولقد ألبست هذه الشهوة الخفية بلباس الشريعة، وحب المحافظة على الأمة وثوابتها، وإظهار المنهج الحق، وتصحيح المسار للدعوة، وهذا هو الكذب على الدقون، لأن المحافظة على الأمة هو المحافظة على وحدتها والعمل على إصلاح حالها ومنهجها باتباع ما كان عليه الرسول ﷺ لا أن يخرج لنا بمنهج يتخذ من المنهج الذي ادعى تركه قاعدة انطلاق ومحاولة تغيير بعض المسميات وتضخيم أخطاء المنهج الذي خرج عليه والوقوع فيها، فعندما يخرج من يدعي أنه يحارب الحزبية، وأنه يدعو إلى توحيد الأمة فنجد أن تجديدهم أشد خطورة من حيث الانغلاق والولاء والبراء للحزبية، وأشد تحزبا للأشخاص والجماعة.

أليست الجماعة الأم أكثر استيعابا للأمة مع محاولة التصحيح لمسارها من الداخل، أما الخروج بنفس المفاهيم والتحزب فإنه يشتت الأمة ويبني روح العداوة وحب الانتقام، فتسود الروح المتشنجة ذات الطابع الاستهلاكي لقدراتها في محاربة وتفتيت الصف الإسلامي وتحقيق رغبات الحزبية ومطامع الشخصيات ذات الطابع القيادي التي تجعل منه أساس الحياة وتحقيق هذه الشهوة الخفية.

إن جماعة الإخوان المسلمين مثلا خرج من تحت عباءتها كثير من الجماعات أما بفكر غال متشدد، أو فكر متميع، والدافع لذلك عند أكثر هذه الجماعات هو حب القيادة، فالجماعة المنغلقة "السرورية" لو بحثت عن السبب الحقيقي لنشأتها لوجدت أن حب القيادة هو السبب الغالب، إن لم يكن السبب الكلي، فمحمد سرور عندما كان في جماعة الإخوان كان له تطلعات قيادية معينة، حتى قبل الانشقاق كان قد أطلق على مفاهيمه السرورية، وحاول أن يكون له قاعدة فانشق

(1) الرعاية لحقوق الله (619).

معه بعض السوريين، ثم عاد أكثرهم لجماعة الإخوان وخاصة من جاء معه إلى السعودية، وعملوا في بعض الجامعات لأسباب ليس المقام مقام ذكرها.

محمد سرور خرج عن الإخوان لعدم تقدير الجماعة لمكانته وإعطائه مناصب قيادية، فقد كان يتوق إلى ذلك.

يقول الشيخ طارق عبد الحليم: "المهم في هذا الأمر أن عشرتي للرجل – أي محمد سرور– جعلتني أعرفه معرفة تامة وأتحقق من وسائله وطرق فكره ومناهج بحثه وتعامله مع الناس.

الرجل كان من الإخوان كما هو معروف، ثم خرج عنهم لسبب يتعلق بتقديرهم لمكانته كما يراها، توليته مناصب معينة، لا لخلاف فكري كما قد يشاع ... يجب حين تقيم الرجل أن نتذكر أنه تربية إخوانية قلبا وقالبا، ومن هنا ترى في منهجه الفكري شبه تطابق مع الفكر الإخواني، مع بعض التعديلات التي ألجأه إليها ضرورة لإيجاد نقاط تبرز انشقاقه عن الإخوان .... من هنا فإننا لا نرى أن هناك نهج منفصل يسمى السرورية، بل هي إخوانية معدلة لتناسب هوى من أنشأها لا غير"[1].

ثم كونت السرورية وغيرها فكانت مطرقة ضربت جانباً من صخرة الوحدة لجماعة الإخوان، فانشطرت السرورية، ثم اتخذوا منهجا تربويا وتنظيميا إخوانيا، وكان موقف البيئة الدعوية لها له أثر كبير على محاولة تحوير بعض المفاهيم حتى يكون لها قاعدتها.

إن حب القيادة يعمي ويصم وهذا موجود داخل كل الجماعات فنجده عند الإخوان فقد فتت جماعة الإخوان إلى جماعات كثيرة، وعند السلفية، وما حزب النور والأحزاب السلفية التي تشرذمت منه إلا خير دليل.

(1) تجربتي مع السرورية.

والسرورية وكثير من أهل المراجعات إما بالخروج من الانغلاق المطلق عند الجماعة، والشمولية القيادية ذات الطابع البابوي، ومن هذه المراجعات كثرة المستقلين، أو التحول إلى تنويريين، أو إلى جماعات أخرى، وكثير من هؤلاء يلزم الصمت لشدة بأس هذه الجماعة في الانتقام، وعدم التفهم إذا فتح باب الحوار، بل الحكم بأحكام قاسية وتعاملات فظة ذات حزبية من استخدام التشويه والإسقاط وكيل التهم وتزوير تاريخ المستقل عن هذه الجماعة، وجعل بنك من المعلومات الشخصية التي يجمع من خلالها أخطاؤه، أو ما تأوله بأنه أخطاء وتجعل منه جمرة العقبة يلزم كل فرد من أفراد الجماعة رميه أكثر من رمي الجمرات وغير ذلك.

إذا تمكن حب القيادة أدخل الأمة في نفق الشهوة الخفية، والتي تجعل الإسلام قاعدة في محاولة تسويق أصحابها، ثم إن حب القيادة جعل من الجماعات جماعات بالية غير متجددة، لأنه إذا كان هناك قائد لإحدى الجماعات فإنه يحولها إلى إرث ذاتي وحق شخصي ومساءلة لا يدخلها النقاش، أو التفكير، بل التفكير في ذلك شق لعصا الطاعة، وإدخال الجماعة ساحة المنافسات والفتنة، وهذا وربك لمن الذرائع التي يراد منها بقاء القيادة. ولذلك ظهرت الكهنوتية ولها درجات في صف الجماعات وكذا المحسوبية والتزلف وتقديم القرابين الأخلاقية، أين التجرد لله والعمل لهذا الدين، ويعلم كل منا أن من الناس من قد يسبق غيره وليست العبرة بالمنزلة في التنظيم.

قال ﷺ: "طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله أشعث رأسه، مغبرة قدماه إن كان في الحراسة كان في الحراسة وإن كان في الساقة كان في الساقة، إن استأذن لم يؤذن له وإن شفع لم يشفع"[1].

وقال ﷺ: "رب أشعث أغبر ذي طمرين لو أقسم على الله لأبره"[2].

(1) البخاري 3/ 328 رقم 2887.

(2) مسلم 4/ 2024 رقم 2622/ 138 .

قال ﷺ: "ما من رجل يلي أمر عشرة فما فوق ذلك، إلا أتي مغلولا يده إلى عنقه، فكه بره، أو أوثقه إثمه، أولها ملامة، وأوسطها ندامة، وآخرها خزي يوم القيامة"[1].

إن حب القيادة مرض ترهلت الأمة به وتمزقت فيجب علينا أن نترفع عن شرذمة هذه الأمة والتي أصابها حب القيادة في مقتل، فكثرة تعدد الولاءات والعملاء ومحاولة الاستقواء بالداخل والخارج وتسويق الدين من خلال ما يخدم تلك القيادات.

إننا لا نقول أن يتنحى من لديه القدرة لقيادة الأمة لتحقيق مصالحها العليا، لأنها إذا توارت الكفاءات المخلصة المتجردة التي تجمع ولا تفرق، وتبني ولا تهدم، وتزرع الحب، وتجتث البغضاء، فإنها تطفو قيادات نفعية فيها ذات مصالح ضيقة، ويظهر الرويبضة، والعملاء ومن يجنح بسفينة الدعوة نحو الهاوية، فنجنب الأمة تلك القيادات بتولي القيادات ذات الكفاءات.

إن الأمة تحتاج إلى قيادات ربانية بعيدة عن الانغلاق والاستعلاء والادعاء، إنها هي من امتطى الحق دون غيرها، علينا أن نخرج من قوقعة الانغلاق والحزبية إلى رحابة الإسلام وساحة الدعوة العامة، وأن نصلح الجماعات كلها وأن يكون لنا قنواتنا الشرعية للتعامل مع الجميع، فلا تحزب غير حزب الله لكل المسلمين، ولا ولاء ولا براء إلا لكل المسلمين، والأحب والأبغض إلا بمقاييس الدين، ولا مصلحة إلا مصلحة الدين دون دعوة المصلحة.

إننا نحتاج ان تنكفئ هذه الجماعات والأحزاب في بوتقة الإسلام، وأن تصهر فيها بالقرآن والسنة، وأن تزيل حواجز الحزبية، والانتماء المفرق، وأن يكون الانتماء لهذا الدين، وأن نسعى أن تكون كلمة الله هي العليا، لا ان تكون كلمة

(1) أحمد 5/ 267 . قال المحقق: صحيح لغيره 36/ 635 رقم 22300.

الجماعة هي العليا، وأن نقدم المصالح الكبرى على المصالح الصغرى، وأن لا نجعل الجماعات أربابا تعبد من دون الله.

إن حب القيادة يستنبت في ذوي القدرات المحدودة والشابة من مقتبل العمر، ولو كانت الكارزما لذلك الشاب لا يملك مؤهلات القيادة الفطرية، وإن وجدت شهوتها الخفية، إن طريقة الجماعات وخاصة الجماعات المنغلقة والتي هي تحول من بعض الشباب شخصية تخيلية تخيل أنها قد حازت من القدرات والمؤهلات ما هو خارق للعادة مما ينفث فيه روح التعالي، وأن يحقق طموحاته الخيالية، وممارساته القيادية، وخاصة خارج الجماعة عند انعدام القدرة على ممارسة ذلك نظرا للواقع التنظيمي ومواده التنظيمية وصلاحيات مرحلة ذلك الشاب، ومن هنا يظهر لنا شخصية مزدوجة التخيل والقدرة على التطبيق الناتج عن حب القيادة، وهذا ما يدفع الشباب إلى أن يكون له شخصية متقلبة ليس لها قاعدة فنجد داخل الجماعة التزلف، والانضباط، ومحاولة إظهار الطواعية المطلقة حتى يتسلل من خلال ذلك إلى مركز قيادي معين، أما خارج الجماعة فإنه يمارس حب التسلط والإسقاط والوشاية بالآخرين، وإظهار أنه لا يبارى وأن المجال مجاله، ومن هنا نجد النظرة أحيانا من هذه الشخصية التآمرية المصلحية ذات الأهداف الأنانية، والتي تولدت من تلك التربية، فعندما يأتي شاب لا يجيد أبجديات الحياة ثم يعين مسئول جلسة، ثم قائد عمل دعوي ويتصدر ذلك العمل على أنه المفكر والداعية والمنظر والمفتي وعالم التربية والسلوك، وأعلم جيله بالواقع ومؤامرات الكفر كله ضد هذا الدين، وأنه المخطط الفائق، والمستشرف للأحداث والمستقبل، تصور أي شخصية تكون هذه وكيف تنظر لأفراد الوسط الاجتماعي الذي تعيش فيه وكيف نظرته لعلماء الأمة، ومن هنا تسمع الحكم على بعض جهابذة العلم بأنهم سطحيون لا يتعدى علمهم بعض المسائل الفقهية العامة، فإذا كان هذا حكمهم على هؤلاء العلماء فكيف بغيرهم، أنها تلك التربية الجماعة على حب القيادة والنفخ البالوني في أفراد هذه الجماعات، ولا يظهر ذلك إلا في اجتماعات الجماعة الخاصة مع بعض الأتباع

فإنه يظهر في هذه الاجتماعات أن علم الأولين والآخرين والقدرات التي في كل أفراد العالم في هذا، أو هؤلاء الأشخاص.

كل ذلك بأسباب التربية على حب القيادة وهذا موجود حقيقة في الجماعة سواء فطنت لذلك، أو لم تفطن، إنه يجب أن يربى الشاب أنه يجب عليه أن يعرف جهله مع زيادة علمه، لا العكس أنه يزداد علمه مع جهل الآخرين .

28-32: محاكمة المقاصد وحمل الأمور على سوء النية

إن حمل أقوال الناس على غير ظاهرها من دغل النفس، وسوء الطوية، والتقول على مقاصد خلق الله بلا حق، فإن المقاصد وعمل القلوب من الأمور التي لا يطلع عليها ويعرف حقيقتها إلا الله، ومن ادعى خلاف ذلك فقد نازع في أمر من الأمور التي لا يعلمها إلا الله، وهذا من دأب الجماعات، فعندما يتكلم من ليس له انتماء بالجماعة وكلامه ليس مما يخدم الجماعة فإنه يحمل على أسوأ الاحتمالات، ويبنى ذلك السوء على القصد وهذا فيه تجن، مع أن من حكم على مقصده وهذا مخالف في عرف الشرعيين من أن النية هي قصد الشيء مقترنا بفعله ، إذن يحكم على النية، أو القصد من خلال الفعل، لأن الفعل هو المعلوم والظاهر لك حقيقته، أما النية، أو القصد فهو عمل قلبي لا يدرك أنه مخالف للفعل، إلا من هو يعلم ما تخفي الصدور، أو بالقرائن الكاشفة من وحي أو غيره . قال الله –تعالى-: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ (التوبة: 107)، ولم يرتب الشارع على أعمال القلوب جزاءً، أو عقاباً، لأنه لا يرتب الجزاء إلا على الأقوال والأفعال ولم يرتب على حديث النفس شيئا.

قال ﷺ: "إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به نفسها ما لم تعمل به، أو تكلم به"[1].

يقول النووي –رحمه الله–: "الخواطر وحديث النفس إذا لم يستقر ويستمر عليه صاحبه فمعفو عنه باتفاق العلماء"[2].

أما قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (الحج: 25).

المراد بالإلحاد هنا أي من يعمل، قال أبو سليمان: "وهذا قول سائر من حفظنا عنه"[3]. ومنهم من حمله خاصة على الحرم إذا هم وهذا مذهب ابن مسعود وأما من هم بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة .

عن ابن عباس رضي الله عنهما–عن النبي ﷺ فيما يرويه ربه –تبارك وتعالى– أنه قال: "إن الله كتب الحسنات والسيئات، ثم بين ذلك، فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن هم بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن هم بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة"[4] . فهذا فضل الله على عباده.

وهناك من يجعل المراد بالإلحاد الشرك، وهذا فيما يظهر لي أن المراد الظلم، لأن التوحيد في أصله عمل من أعمال القلوب تصدقه الجوارح بعد ذلك، ولهذا سمي التوحيد بالعقيدة وهو الأولى فيما يظهر لي.

يقول ابن الجوزي: "اتهام الناس في نواياهم من غير برهان اجتراء على الله، لأنه خص نفسه بعلم الغيب"[5].

---

(1) مسلم 1/ 116 رقم 127/ 201.

(2) كتاب الأذكار.

(3) زاد المسير 5/ 422.

(4) مسلم 1/ 118 رقم 130/ 206 .

(5) صيد الخاطر.

هذا التجاوز من الله مع علمه ما تحدثت به النفس، بل إن الهم بالحسنة دون العمل تكتب حسنة، ونحن يجب علينا أن نتخلق بأخلاق الكمال لربنا – تعالى-ما استطعنا، فكيف يحور عمل، أو حديث إلى عكس ما تحدث به المتحدث، أو يحور عمل من عمل إنه سوء الظن، لأن بعض الظن إثم وهو أكذب الحديث.

قال الله –تعالى-: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ "(الحجرات: 12).

وعندما نبني تصوراتنا وتوجيه أعمال الناس من قواعد ظننا فإننا ننطلق من قاعدة الكذب وكفى بذلك سوءا.

قال ﷺ: "إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث"[1].

ويجب علينا أن نحمل أقوال العلماء والدعاة والمخالفين لانتماءاتنا محملا حسنا، ونخرجها مخرجا طيبا، وأن لا يدفعنا تحزبنا إلى تخريجها على أسوأ الاحتمالات كما هو الحال عند الجماعات إلا ما رحم ربك.

قال عمر بن الخطاب –رضي الله عنه-: "لا تظن بكلمة خرجت من أخيك المؤمن شرا وأنت تجد لها في الخير محملا"[2]، إنها الروح السامية التي قد سلمت من دغل الحزبية، إنها النفس التي قد طبعت بأخوة الإيمان لا أخوة الجماعة، أو أخوة الحزب، إن هذه الروح المتألقة هي الملتمسة للأعذار، والتي تحمل الأقوال والأفعال على أحسن المحامل، ما وجدت إلى ذلك سبيلا .

عن أبي قلاية: "إذا بلغك عن أخيك شيء فالتمس له عذرا، فإن لم تجد فقل: لعل له عذرا لا أعلمه"[3].

---

(1) البخاري 4/ 103 رقم 6064.

(2) أبو داود في الزهد (98) رقم 83.

(3) حلية الأولياء 2/ 285، ونحو منه عن الحسن البصري.

ويقول ابن عثيمين –رحمه الله–: "وأنا أقول لكم إذا صدر من عالم معروف بالنصح للأمة، إذا صدر ما يوهم الحق، وما يوهم الباطل، احمله على أحسن المحملين، فقيل له: عقيدة يا شيخ . فقال: عقيدة وغير عقيدة مادام عرف بالنصح للأمة، وكلامه محتمل ما هو يصلح تحمله على أحسن المحملين اعتبارا بحال الرجل"[1].

فدلالة الحال الظاهرة هي ما يحمل عليه القول والفعل، لأنه أدل على ذلك، أما الحالة الباطنة فإنها ليست من الأمور التي تحمل عليه دلالات قولية، أو فعلية، لأنها في حكم المجهول، والمجهول عند المحدثين له أحكامه، وعند الفقهاء له أحكامه، والعقلاء والبعيدون عن الأهواء لا يختلفون في هذه الأحكام.

جاء في حديث أبي سعيد الخدري –رضي الله عنه– في ذكر أوصاف الخوارج وقول خالد –رضي الله عنه–: "وكم من مصل يقول بلسانه ما ليس في قلبه!" فقال رسول الله ﷺ: "إني لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس ولا أشق عن بطونهم"[2].

وليست قاعدة "يغتفر في الوسائل ما لا يغتفر في المقاصد"[3].

لأنه لابد هنا من التفريق بين الأحكام المتعلقة بالوسائل والأحكام المتعلقة بالمقاصد، وهذه القاعدة لها تعلق عند التطبيق بحسن الظن، فالمسلمون لا سوء ظن عندهم، كما هو في عرف الجماعات وعاداتها، وحمل ما يصدر عنهم على المحمل الحسن لاسيما إذا كان من أهل الخير والصلاح، وخير مثال لذلك قصة حاطب بن أبي بلتعة في كتابه لكفار قريش.

وعن أبي ظبيان . قال: سمعت أسامة بن زيد يحدث، قال: بعثنا رسول الله ﷺ على الحرقة من جهينة، قال: فصبحناهم فقاتلناهم، فكان منهم رجل إذا أقبل القوم كان من أشدهم علينا، وإذا أدبروا كان حاميتهم، قال: فغشيته أنا ورجل من

(1) اللقاء المفتوح 13/ 11/ 1413.

(2) مسلم 2/ 742 رقم 1064/ 144.

(3) القاعدة السابعة والثاثون – الأشباه والنظائر للسيوطي.

الأنصار، قال: فلما غشيناه . قال: لا إلـه إلا الله، فكـف عنـه الأنـصاري، وقتلتـه، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ . فقال: يا أسامة أقتلته بعد مـا قـال لا إلـه إلا الله؟ قـال: قلت: يا رسول الله، إنما كان متعوذاً من القتـل، فكررهـا حتـى تمنيـت أنـي لم أكـن أسلمت إلا يومئذ"[1].

يقول ابن القيم: "الكلمة الواحدة يريد بها أحـدهم أعظـم الباطـل ويريـد بهـا الآخر محض الحق، والاعتبار بطريقة القائل وسيرته ومذهبه وما يـدعو إليـه ويـناظر عليه"[2].

هذا عندما يكون الكلام له أوجه ويحتمل أكثر من معنى فإنه يحمل على أحـد أمريه الظاهرة، وليكن ما كان لـه ظـاهر حـسن هـو الأولى، فكيـف بالتعـدي علـى النيات وتحميلها سوء القصد، ويحرف الفعل، أو القول عن مواضعه، وينسب ذلـك التحريف وإبطال ذلك الظاهر الحسن بالتقول أن القصد يخالف ذلـك، ممـا يـراد بـه إفساد ذلك المعنى الظاهر الذي نحن يجب أن نتعامل مع المسلمين مـن خلالـه، إنهـا الحزبية المقيتة التي أصبحت تشرع للأتباع التفكير والتأويل، وتقويل الآخـرين مـا لم يقصد من قول، أو عمل، إن محاكمة الناس إلى محاكمة النيات، والمقاصـد مـن أكـبر الضلال والبعد عن قاعدة الأخوة التي أمرنا بها ديننا الحنيف.

قال ﷺ: "إياكم والظن فإن الظن أكذب الحـديث، ولا تجسـسوا، ولا تنافـسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا"[3].

إن سوء الطوية وما نتج عنها من سوء ظن ترتب عليه هذه الصفات المـذكورة في الحديث وكفى من اتصف بها سـوءا، ممـا يبعـث علـى هـذه الـصفات التحـزب وتحوير الأفعال والأقـوال إلى أسـوأ مـا يكـون مـن تـصور هـؤلاء الـذين ينظـرون إلى غيرهم بعين طبعهم، إن كل إناء بما فيه ينضح، وفي العـادة إن مـن يـتهم النـاس

(1) البخاري 3/ 147 رقم 4269.

(2) مدارج السالكين 3/ 521.

(3) تقدم.

بسوء المقصد عادة ينبعث هذا التصور مما هو متصف به، وأذكر أن أحد الحزبين اتهم أحد المتدينين وله منصب مرموق بأنه مريض نفسيا، وأنا أعرف الشخصين عن قرب، والحقيقة أن هذا المتهم هو المصاب بذلك الداء والاضطرابات حتى أنه شكو لي أنه ياتيه الأرق وعدم النوم، والاضطرابات النفسية –سبحان الله– رمتني بردائها وانسلت، وهذا حال أتباع الجماعات إلا من رحم الله، في اتهام الآخرين بسوء المقصد والحكم على المقاصد تزكية للنفوس وإظهار أنهم أنصح وأسلم وهذا مخالف لقوله –تعالى–:﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ (النجم: 32).

ولأن التزكية للنفوس من صفات اليهود، فكان حرياً بنا أن نجتنب ذلك .

قال الله –تعالى–: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ﴾" (النساء: 49).

إن من مظاهر تزكية النفوس تطهير النفس من الأخلاق الرذيلة ومن ذلك سوء الظن، واتهام الناس في مقاصدهم ونياتهم، لأن الفلاح في تزكية النفس، قال الله تعالى:﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ (الشمس: 9).

قال ﷺ: "ثلاث من فعلهن فقد طعم طعم الإيمان –وذكر منها– وزكى نفسه، فقال رجل: وما تزكية النفس ؟ فقال: أن يعلم أن الله –عز وجل– معه حيث كان"[1].

وكان من دعائه ﷺ: "اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها"[2].

يقول –تعالى–: ﴿ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴾ (النور: 21).

---

(1) رواه الطبراني وصححه الألباني في السلسلة الأحاديث الصحيحة 1046.

(2) مسلم 4/ 2088 رقم 2722/ 73.

إن اتهام الناس في مقاصدهم من نتائج النفوس المتشنجة ذات الطابع الانفعالي والعدواني والإقصائي الإسقاطي، أما من كانت نفسه مطمئنة فإنها تصاحبها السكينة . قال الله –تعالى-: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾(الفتح: 4).

هو نفس من يسمع محاضرة، أو كلمة، أو مقالة من غير جماعته، أو حزبه فيأتي إليها يحللها من منطلقات الجماعة وتصوراتها ويبدأ يحمل كلامه على غير محمله ويخرجه بحسب ما يمليه عليه هواه، هل هذه نفس مطمئنة ؟ بل إن ذلك يؤدي إلى تشتيت الطاقات وتشرذم المجتمع، وجعل الأمة شيعا وأحزابا، وينفر أفراد المجتمع من غيرهم من خلال هذه التاويلات، وتوجيه كلام الغير على عكس ما يريد بناءا على أن قصده كذا، وهذا كذلك فيه دلالة كما أسلفنا أن الجماعة أولا، وليس الدين أولا، لأنه لو كان الدين أولا لتحاكمنا إلى مفاهيمه وتخلقنا بأخلاقه وتأدبنا بآدابه، وتعاملنا بما حثنا عليه من حسن التعامل وحفظ حقوق الآخرين وحسن الظن بهم، إنها ارتكاسة المفاهيم وانتكاسة الفطر .

إن اتهام الناس بسوء المقصد من وسائل حجب الأتباع عن معرفة الحق، وإضعاف أواصر الأخوة الإسلامية، لما تسببه من الاعتقال الفكري والحجب المعرفي، والعمل على قولبة الأتباع مما يفرز لنا إرهابا فكريا داخل الحزب والجماعة، تورث عقدة الاستعلاء الثقافي والتنظيمي، ولهذا تسمع رمي الآخرين بالسطحية، وضيق الأفق، والخلو من فقه الدعوة، كل هذا على مذابح التعصب الحزبي، وما يفرزه من مفاهيم تضرب في الصف الداخلي للأمة، ومن آثار ذلك التهيب المريض من طرح ما لديهم من مفاهيم على العلماء وفرارهم من مناقشة العلماء لهم[1].

(1) حكم الانتماء (150).

إن الطعن في كلام الغير، أو فعله عن طريق محاكمة المقاصد يعد من الطعن في علماء الأمة وقادة فكرها من غير الجماعة.

يقول ابن عساكر: "إعلم أخي أن لحوم العلماء مسمومة وسنة الله في هتك أستار منتقصيهم معلومة، ومن أطلق لسانه في العلماء بالسلب بلاه الله قبل موته بموت القلب، ولذلك فلا يجوز أبدا الطعن في العلماء، ولا يحل ذلك بحال"[1].

وهذه من مساوئ الجماعات في اختزال الدين في ذاتها دون غيرها، وأن المخالف على باطل.

يقول عادل الكلباني: "إن من أهم إشكالاتنا الإسلامية اختزال الدين في مجموعتنا وحصره في منطقتنا، واعتقاد أننا وحدنا من يملك الحق، وكل من خالفنا فهو على باطل في أقل حالاته، وقد يرتقي به الحال إلى أن يصبح علمانياً، أو ليبرالياً، أو عميلاً، أو تغريبياً، وهذا حاله كان حليقاً، أو أمرداً، وأما إذا انتسب لأهل اللحى، أو طلبة العلم والعلماء، صار في نظرنا مغفلا، مستأجرا، طامعا في مال، أو جاه، أو منصب.

إن الانغلاق الفكري والشعور بالاستئثار بالحق إنما ينشأ عن قلة العلم، وينبثق منه احتقار الآخرين وسلبهم حقوقهم في مخالفة المستأثر .... حماية الدين والذود عنه لا يمكن أن تكون بالفكر المنغلق المتشدد الذي يتحدث مع الآخرين بنفس لا تقبل على الأرض أحدا سواها وتريد قسر الناس على رأيها قسرا، وإلا سلت سيوف الاتهام له وجردت من أغمادها لتطعن في نيته"[2].

(1) تبين كذب المفترى (29).

(2) الرياض، العدد (15690)، 7 رجب 1432هـ، اللحى المستأجرة.

29-32: استعباد الناس باسم الدين

إن العبودية في أصلها وفرعها وكل أحوالها لا تكون إلا لله –تعالى– فإن صرف منها أي نسبة كانت لغير الله كان الله أغنى الشريكين .

عن أبي هريرة –رضي الله عنه– قال: قال رسول الله ﷺ، قال الله –تبارك وتعالى– "أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه"[1].

قال الله –تعالى–: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴾ (البينة: 5).

وقال الله –تعالى–: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَۖ وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥۚ قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ ﴾ (الرعد: 36).

إن الجماعات حولت أعمال الأتباع سواء في الدعوة، أو الولاء والبراء، أو المحبة، ومصلحة الدعوة "دعوة المصلحة" للجماعة، وهذا من تحويل العبادة وما أُمر به أن يتعبد الله به سرا، أو جهرا في كثير من أحواله إلى الجماعة، ثم إنه لا يقدم على كثير من العبادات والأعمال التطوعية إلا بإذن الجماعة، فإذا أقدم على أمر من أمور العبادة والتي ترى الجماعة، أنه لابد أن ينبثق منها ويستأذن فإنها تعتب عليه إذا علمت، بل إنها تتعامل معه على أنه غير منضبط وأنه لا يراعي توجيهات وقواعد الجماعة، ثم قد يكلف بعمل من الأعمال لا يريدها لكنه قد يكلف به من قبل الجماعة فيعملها لأجل الجماعة وامتثالاً لأمرها، بل إن التوجيهات التي يتلقاها الفرد المنتمي لابد أن يكون لها قداستها حتى لو استدعى مثلا التوجيه بترك الصلاة في جماعة المسلمين فعلى الأتباع تنفيذ هذه التوجيهات، لأن في ذلك ما يقتضي مصلحة الجماعة.

(1) مسلم 4/ 2289 رقم 2985/ 46.

إن استعباد الأتباع باسم الدين سمة من سمات الجماعات وبالذات الجماعات المنغلقة، وإن كان لا تخلو جماعة من ذلك، وهذا أمر يربى عليه الأتباع باسم مصلحة الدعوة، أو أن المرحلة تقتضي ذلك، أو أن دين الله فيه سعة، وهذا ليس وليد الجماعات، بل هو ديدن الأسياد وأصحاب الأهواء والمصالح على مر التاريخ، وهو ما تمليه على هؤلاء ما يرونه من مصلحة، وهذه المصلحة قد تكون شخصية، أو مصلحة تنظيمية، أو سياسية، أو أمنية، أو مالية، بل إن النية في جل أعمال الأتباع للجماعات مقرونة بموافقة الجماعة وشرعنة ما يقوم به المنتمي، فحبه وكرهه لغير أفراد الجماعة منوط برؤية الجماعة لهذا الشخص وهو يبني نوازع نفسه حسب ما تمليه الجماعة لا حسب ما يمليه عليه دينه من الحب لله والبغض لله .

إن التحكم في هذه النوازع عن طريق قولبة هؤلاء الشباب بفكر الجماعة، واعتقال عقولهم، وسلبهم التفكير والعمل إلا من خلال منظار الجماعة، والتنفس برئتها والتفكير بعقلها لا بعقله، حتى قد يكون المرء له قرابة فيهجرها ويعاديها من أجل الجماعة، وفي مفهوم الجماعة أن أولى الجوار جوار المنتمي لجماعتي فله ثلاثة حقوق، حق الجوار، وحق الانتماء، وحق الإسلام، وهذا أخيرا .

إن استعباد الأتباع أمر نراه في واقع الجماعات من خلال صرف أعمال الأتباع للجماعة من الطاعة المطلقة والتقرب إلى الجماعة بأعمال الطاعة التي هي لله للجامعة، فيذهب الأتباع للصلاة في مسجد فيه مسئول الجماعة، أو من له علاقة في التقييم من أجل أن يراهم ويشيد بأعمالهم، بل إن المنتمي يحول حياته وطاعته وولايته للجماعة أكثر من ولايته وحبه وطاعته لوالديه بناء على قوله تعالى ﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ﴾ (العلق: 19) ويستدل بها على نبذ كل طاعة لغير الجماعة، وإنما السجود والاقتراب من خلال الجماعة فقط.

بل إن الجماعة تدخل الأتباع إلى دائرة الرياء فهو مأمور أن لا يعمل إلا باستشارة واستئذان في حله وترحاله، في عبادته فلا يحج، أو يعتمر إلا بإخبار الجماعة، ولا يتاجر إلا بإذن الجماعة، وكل ذلك تحت مظلة مصلحة الدعوة

وهي في الحقيقة استعباد باسم الدين، واستبداد من خلال الاستعباد، إن الاستعباد تعددت صوره ومن ذلك مصادرة حقوق العباد تحت أي مسمى، أو أي مبرر، أو منزلة، أو مكانة جماعية، أو دينية.

ثم إن على الأتباع مع ما تفرضه الجماعة دون اختيار، أو علم عن قنوات صرف هذه المكوس والضرائب، وما عليه إلا الامتثال دون سؤال، إنها نوع من مصادرة الذات واستعبادها، وهذا خلاف ما ربى المصطفى ﷺ أصحابه عليه.

قام عمر –رضي الله عنه– يخطب في الناس وكان قد أتته ثياب من اليمن فوزعها على المسلمين كل مسلم ثوبا فبدأ الخطبة وعليه ثوبان، وقال: أيها الناس ! اسمعوا وأطيعوا، فقام سلمان من وسط المسجد، وقال: والله لا نسمع ولا نطيع، فتوقف واضطرب المسجد وقال: مالك يا سلمان ؟ قال: تلبس ثوبين وتلبسنا ثوبا ثوبا ونسمع ونطيع؟! قال عمر: يا عبد الله، قم أجب سلمان، فقام عبد الله يبرر لسلمان . وقال: هذا ثوبي الذي هو قسمي مع المسلمين أعطيته أبي، فبكى سلمان . وقال: الآن قل نسمع وأمر نطع فدفع عمر يتكلم[1].

أرأيت لو أن أحدا من أتباع الجماعة قال لمسئوله المباشر، أو من هو أعلى منه، وما أكثر المسئولين في الجماعات والمناصب الإدارية ألقاب مملكة في غير موضعها، مثل القول من سلمان لعمر . إن مصيره الشنق الدعوي، لأنه فوضوي ولا يحترم الربانيين الذين ربانيتهم أعلى من ربانية عمر –رضي الله عنه– وأنه يشك في امانتهم، إنها التربية على الخنوع، والخضوع، والاستعباد، ومصادرة الحرية.

(1) إعلام الموقعين 2/ 180.

يقول أحمد مطر الشاعر الكبير:

إن الحرية أن تحيا عبداً لله بكلية
وفق القرآن ومن الشرع ووفق السنن النبوية
لا حسب قوانين طغاة أو تشريعات أرضية

إلى أن قال: حادث عن منهج خالقها لمناهج حكم وضعية
واتبعت شرعة إبليس فكساها ذلاً ودنية

ويقول ظافر القحطاني:

تدغـــــدغ آمـــــلا لنيلهـــــا جمـــوع لهـــا تحـــت الهـــوان أنـــين
وتـــؤتي الخطايـــا باسمهـــا فكأنهـــا علـــى خـــير أخـــلاق الكـــرام تعـــين
إذا أفلتـــت حريـــة مـــن لجامهـــا فلـــيس لنـــا حـــصن هنـــاك حـــصين
وهـــل أنجـــب الأحـــرار غـــير عبـــادة تحـــصن قلـــب المتقـــي وتلـــين
وترســـم أفـــاق الكرامـــة حولـــه تلـــوح عليهـــا عـــزة وديـــن

ويقول سيد رحمه الله:

إنهـــا في الـــنفس أبهـــى صـــورة فـــدعوها حيـــث شـــاءت تتبـــاهى
هـــي معنـــى غـــير محـــدود فـــلا تحـــصروها في حـــدود تتنـــاهى
هـــي وحـــي يلـــهم الـــنفس فتـــسموا عـــن حـــسبان الأمـــاني وخناهـــا

إن الحرية استبدلت في حياة الجماعات بالاستعباد حتى تناهت هذه الحرية[1]. تفارقوا بها أصل نشأة الإنسان.

قال عمر –رضي الله عنه-: "متى استعبدتهم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا"[2] . إن هذه المقولة على ما في نسبتها إلى عمر –رضي الله عنه- من مقال،

(1) مجلة الإخوان المسلمين عدد (10) السنة الأولى 25 ربيع 1352هـ.
(2) ابن عبد الحكم في "فتوح مصر وأخبارها" 290، والقصة في ثبوتها كلام.

إلا أنها صحيحة المعنى وقد اتفق على معناها قديما وحديثا جمع من العلماء في استدلالهم بها مما يدل على صحة معناها.

30-32: التلون الحربائي

إن المواقف هي خير شاهد على معرفة حقائق الانتماءات وخاصة الانتماءات الإسلامية "الجماعات الإسلامية" لأن غيرها تثريب عليه، لأنه ليس بعد التخلي عن الإسلام من ذنب لكن الكارثة عند الجماعات ذات المبادئ النظرية والمواقف الحزبية، والتي يظهر بينها الشطط والاختلاف بين الواقع والتطبيق، إن التلون وتغير المواقف من سمات الضعف، أو اتباع الهوى، أو وجود مصالح لابد من تحقيقها بأي وسيلة كانت ستحقق تلك المصالح مما يدفع بأصحاب تلك المصالح من التلون وتغير المواقف والتشكل الحربائي مع كل موقف، وإن كان هذا يقل ويكثر بحسب الجماعات، وإن كانت هناك جماعات ليس لديها مواقف وتلونات حربائية كالتبليغ، لأنها ظاهرة المعالم واضحة الجوانب، ولكن يكون ذلك أشد عمقا وإغراقا عند الجماعات ذات التنظيم المنغلق ذو القواعد الرمزية أشبه بالماسونية والبعد الإيحائي الباطني والتقلب الحربائي.

إن هذه الجماعات قد أبعدت النجعة في التضليل بأتباعها، وإن كان الأتباع في حقيقة الأمر إلا النادر أصبح يعيش مع الجماعة عيشة الانطراح الصوفي والتسليم الكنسي، والانعدام الشعوري المعرفي، بسبب الانغلاق العقلي والاختراق التفكيري.

إن التلون عند الجماعات المنغلقة من سمات العمل التكيتيكي واستراتيجيات البعد التنظيمي المرحلي، فهي تنطلق من أن لكل مرحلة مواقفها والتعاطي المرحلي، سواء في المتغيرات وهذا لا مشاحة فيه، لكن الأمر الكارثي في التغيرات التي تلحق بالثوابت، وتغيير المفاهيم بحسب ما يخدم مرحلة من المراحل، أو ما يكون له تناغم في مسايرة أفكار طارئة، أو تحقيق مصالح جماعية معينة، فالديمقراطية بمفهومها السهل اليسير كان للجماعة المنغلقة موقف معلن بأنها من

نواقض الإسلام سواء كان ذلك آليا، أو أليا وأيدلوجيا والمشاركة في الانتخابات، أو الحكومات ذات الاتصال بالشرعية الدولية ونظمها الكافرة، إلا أن هذا لم يعد له وجود في أدبيات تلك الجماعة، بل أصبح أمر الديمقراطية فيه سعة والانتخابات فيها تحقيق مصلحة، والشرعية الدولية والدول التي تؤمن بمواثيقها قاعدة ذلك يوسف –عليه السلام– مع ملك مصر إن هذا التحول والتلون الظاهر يختلف من مكان إلى مكان وخاصة عند هذه الجماعة المنغلقة، ففي مصر، واليمن، أو السودان بعيدا عند الحكومات الملكية، أو الدستورية، فإنها تجيز إنشاء الأحزاب والمشاركات البرلمانية فأنشأت في مصر حزب الإصلاح والشعب، وفي اليمن حزب الرشاد، وفي السودان لازالت السرورية منقسمة بين ثبات وتلون في إقامة حزب سلفي (وهو نوع تمويه) وفي السعودية شاركت بقوة في الانتخابات البلدية وحشدت لذلك كل قواها وطغى على الساحة التنافس الشديد بينها وبين الإخوان، وقد حققت بعض المكاسب، وحاولت في غير هذه الدول اختزال جماعة الإخوان مثلا في تونس المتمثلين في حزب النهضة، أو المغرب وغيرها.

إن التلون عند هذه الجماعات لم يكن في مجال واحد من مجالات التعامل، بل قد يعم كل المجالات حتى المجالات التعبدية، إن من التلون أن أتباع هذه الجماعات، أو هذا النمط التلوني الحربائي سيجاريك في أمور قد تختلف المفاهيم فيها، ويتبنى مفاهيمك حتى يستطيع أن يحصل على ما يريد، وهذا يتجلى عندما يتعامل هؤلاء مع العلماء المستقلين، فإنهم يظهرون أنهم معهم فيما يعتنقون من مفاهيم وأفكار، وإذا خلوا إلى قادتهم وأشياعهم أظهروا ما يخالف ذلك من مفاهيم، بل حتى مع الدول لتلونها وتقلبها لم تصنف مع الثلاث والثمانين منظمة الإرهاب في لائحة المنظمات الإرهابية عند دولة الإمارات، وهذا فيه بعداً للجماعة في القدرة على التلون، مع أنها تعد من الجماعات المنتشرة والتي لها فروع ونشاط في أكثر دول العالم، وإن كان قد صنف من له علاقة بها في بعض غير دول الخليج، إلا أن السرورية لم تصنف، وهذا مما يثير التساؤل والاستغراب، بل قبل ذلك لم تضعها

السعودية ضمن الجماعات الثمان الإرهابية، إنه سرطان التلون وهذا التلون أفرز لنا على الساحة دعوة زئبقية لا تستطيع أن تحدد معالمها، أو تفهم أطروحاتها، أو تعرف منطلقاتها، وهذا يصعب على الأتباع والأشياع فما بالك عن من هو خارج منظومة الجماعات المغلقة أنه يعيش مثل الأطرش في الزفة، أليس هذا التلون من الاستخفاف بالعقول وما تعيشه الجماعة من هوى متبع مطاع، أين الثوابت لهذه الجماعات ؟ أمن الثوابت أن تركب كل موجة، وأن تغير مفاهيمها بعد كل حين، وأن تعيش بشخصية ذات طابع ازدواجي داخل التنظيم بفكر وتصورات تتماشى مع الخط العام للجماعة، وخارج الجماعة تعيش بما يضاد هذا الفكر، بل إنه يتلون بحسب المواقف والانتماءات، ويعتبر ذلك من فهم الواقع والقدرة على إدارة قواعد اللعبة، وأي لعبة في المحجة البيضاء، إنما اللعبة فيما غمض واشتد حلك طريقه، ثم قواعد اللعبة والمناورة باسم الإسلام أمر في منتهى الخطورة.

إن من التلون عند هذه الجماعات بحسب ما تستدعيه المواقف، فإذا كان هناك شخص يراد احتواؤه فإنه يكسي من المدح والثناء ما تنوء حمله الجبال، فإذا أخفقت الجماعة في احتوائه انقلب كل مدح ذماً، والابتسامة إلى تكشيرة والأحضان إلى إدارة الظهور، إن هذا التلون ليس مبدؤه الحب في الله والبغض في الله بل مبدؤه الحصول على مكاسب للجماعة، وكما يقال: لا يمدح السوق إلا من ناله منه ربحا، وإلا كان مصيره الذم وهذا حال الجماعات المنغلقة.

وهذا التلون ليس من اتباع طريق الهدى وهو طريق الاستجابة لما جاء به ﷺ من ذم ذي الوجهين.

عن أبي هريرة –رضي الله عنه– قال: قال رسول الله ﷺ: "تجد من شر الناس يوم القيامة عند الله ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه"[1].

(1) البخاري 13/ 170 رقم 7179.

وذو الوجهين ليس أمينا، عن أبي هريرة –رضي الله عنه– قال: لا ينبغي لذي الوجهين أن يكون أمينا"[1].

بل يكون له يوم القيامة لسان من نار.

عن عمار –رضي الله عنه– قال: قال رسول الله ﷺ: "من كان له وجهان في الدنيا، كان له يوم القيامة لسانان من نار"[2].

وقد عد العلماء هذا من الكبائر . فقال ابن حجر الهيتمي: "الكبيرة الثالثة والخمسون بعد المائتين: كلام ذي اللسانين وهو ذو الوجهين الذي لا يكون عند الله وجيها"[3].

وقرره الشيخ ابن عثيمين –رحمه الله– في شرح رياض الصالحين.

قال القرطبي: "إنما ذو الوجهين شر الناس، لأن حاله حال المنافق، إذ هو متملق بالباطل وبالكذب"[4].

وقال النووي: "هو الذي يأتي كل طائفة بما يرضيها، فيظهر أنه منها ومخالف لضدها".

وهذا التلون ذمة علماء الأمة قديما وحديثا وهذا الذم هو ما أرشد إليه الإسلام.

دخل أبو مسعود على حذيفة . فقال: عهد إلي . فقال له: "ألم يأتك اليقين؟ قال: بلى وعزة ربي . قال: فاعلم أن الضلالة حق الضلالة أن تعرف ما كنت تنكر، وأن تنكر ما كنت تعرف، وإياك والتلون فإن دين الله واحد"[5].

---

(1) البخاري صحيح زوائد الأدب المفرد 149 رقم 126، أحمد 2/ 289، 265، وهو صحيح.

(2) كما في زوائد الأدب المفرد (403) رقم 497، ابن أبي شيبه 8/ 370، وقال محقق صحيح الزوائد: صحيح.

(3) الزواجر عن اقتراف الكبائر 2/ 39، الكبيرة رقم 253.

(4) فتح الباري 10/ 475.

(5) وهناك من يرفعه ولا يثبت، الإبانة الكبرى 1/ 189.

وقد عد مالك ذلك لعبا وقال "ما كنت لاعبا به فلا تلعبن بدينك"[1].

والأصل في التلون إنه مرض قد يكون سببه الشك.

عن إبراهيم النخعي قال: "كانوا يرون التلون في الدين من شك القلوب في الله"[2].

وقال أبو الوفاء ابن عقيل: "من صدر اعتقاده عن برهان لم يبق عنده تلون يراعي به أحوال الرجال"[3].

ويقول الآجري –رحمه الله–: "من أراد الله به خيرا فتح له باب الدعاء والإلتجاء، والتجأ إلى مولاه الكريم، وخاف على دينة وحفظ لسانه وعرف زمانه ولزم المحجة الواضحة السواد الأعظم، ولم يتلون في دينه وعبد ربه –تعالى–"[4].

إن من أسباب التلون الشجار، والخصام، والتناحر الحزبي .

عن يحيى بن سعيد قال: قال عمر بن عبد العزيز: من جعل دينه عرضه للخصومات أكثر التنقل " وفي رواية "التلون"[5].

علما أن من قواعد إغواء الشيطان لأبناء آدم هو التلون، وكذلك أتباعه إلى يوم الدين.

قال الله تعالى: ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ

(1) الإبانة الكبرى 2/ 505 .

(2) الأبانة الكبرى لابن بطة 1/ 25/ 189، الفتن لآبي نعيم 1/ 79 رقم 134، والسنن الكبرى للبيهقي 10/ 74 رقم 16896، وجامع نعمر 11/ 249 رقم 20454.

(3) الأداب الشرعية لابن مصلح (173).

(4) الشريعة 1/ 90 .

(5) عبد الله في السنة 1/ 138، وجامع بيان العلم وفصله 2/ 187.

وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ (الإسراء: 62 -65).

وقد يرى المتلونون أن قول الرسول ﷺ كما في حديث "بئس أخو العشيرة"[1]، فلما دخل ألان له القول: وعندما سألته عائشة قال: "إن شر الناس من يكرم اتقاء شره".

قال ابن حجر –رحمه الله-: "وتعرض ابن بطال لذكر ما يعارض ظاهره من قوله ﷺ للذي استأذن عليه "بئس أخو العشيرة" فلما دخل ألان له القول وتكلم على الجمع بينهما وحاصله أنه حيث ذمه كان القصد التعريف بحاله وحيث تلقاه بالبشر كان لتآليفه، أو لاتقاء شره فما قصد بالحالتين إلا نفع المسلمين ويؤيده أنه لم يصفه في حال لقائه بأنه فاضل ولا صالح"[2].

وقد بوب البخاري في صحيحه بقوله "باب المدارة مع الناس"، ثم ذكر أثراً عن أبي الدرداء "والله إنا لنبش في وجوه أقوام وإنا قلوبنا لتلعنهم"[3].

فهذا لا يصح سنده مرفوعاً وهو من قول أبي الدرداء وذكره البخاري معلقا فلا يصح الاستدلال به وليس معنى تبويب البخاري به دليل على صحة الاستدلال، وهو مخالف لما ثبت من ذم ذي الوجهين.

علما أن المدارة ليست من التلون.

قال ابن بطال: "المداراة من أخلاق المؤمنين وهي خفض الجناح للناس ولين الكلمة وترك الإغلاظ لهم في القول وذلك من أقوى أسباب الألفة، وظن بعضهم أن المداراة هي المداهنة فقط، لأن المداراة مندوب إليها والمداهنة محرمة.

(1) البخاري 3/ 170 رقم 6032.

(2) فتح الباري 13/ 170 رقم 7179.

(3) فتح الباري 10/ 616، وقد رواه أبو نعيم في الحلية 1/ 222، والبيهقي في شعب الإيمان 6/ 216 رقم 8103، وذكره ابن حجر في تغليق التعليق 5/ 102، 104.

والفرق أن المداهنة من الدهان وهو الذي يظهر على الشيء ويستر باطنه، وفسرها العلماء بأنه معاشرة الفاسق، وإظهار الرضا بما هو فيه من غير إنكار عليه.

والمداراة: هي الرفق بالجاهل في التعليم وبالفاسق في النهي عن فعله، وترك الإغلاظ عليه حيث لا يظهر ما هو فيه والإنكار عليه بلطف القول والفعل، ولاسيما إذا احتاج إلى تألفه ونحو ذلك[1].

31-32: التفلت والتراجع للأتباع

إن الناظر في أحوال الجماعات وكيفية مسارها، وكثرة التشرذم والانشقاقات والمراجعات الفردية والتحولات الفكرية، ليظهر له أن قواعد العمل الدعوي فيها اضطراب وعدم وضوح وخلل حركي، أو شرعي، أو فكري، أو استراتيجي، أو تربوي مما يكون له انعكاسات ذات مضامين ودلالات على الأتباع بحسب التكوين العقلي والفكري، والديني، ومن هنا كانت الجماعات قد تفلح مع البعض وتفلس مع آخرين وسبب ذلك شلل مشروعات الجماعات الإسلامية من حيث البعد الديني المتكامل للواقع، واستشراف المستقبل وتطبيق قضايا التشريع الإلهي في واقع الحياة الدعوية، والازدواجية، أو التفلت التطبيقي لواقع الدين في حياتها، ثم لوجود الجانب التنظيري الذي قد أطنبت فيه الجماعات وبالذات المنغلقة، والتي تسمع لها صوتا ولا نرى لها طحنا إلا في الإسلاميين المنتمين لغيرهم، أو المستقلين.

إن الجانب التنظيري يخالف الجانب التطبيقي عند هذه الجماعات فمثلا نجد أن كل جماعة تدعي أنها تحارب الحزبية وتسعى لتوحيد الصف الإسلامي، وأن يكون هناك اصطفاف لمشروع موحد ينطلق من ثوابت هذا الدين مراعيا لمتغيرات الحياة، إلا إن هؤلاء أصحاب هذه الدعوى وخاصة عند من يدعو أنهم سلفية حركية، وهم في حقيقتهم فئة انشقت عن الجماعة التي تسمى نفسها الأم، وتريد أن تحظى بحضنها الدافئ كما في أحداث مصر أيام الربيع العربي، وتراها كالعائرة بين

(1) فتح الباري 10/ 616، 617.

القطيعين مرة إلى السلفية وتتخذ منها رداء تتدثر به لتظهر لغيرها أنها ذات منهج مستقل، ثم تعود في أفكارها محاولة أن يكون لها مكاسب ذات طابع حركي إلى منهجية الإخوان.

وهذا ما تقرره إحدى الجماعات المنغلقة من خلال أحد أكبر منظريها أحمد فهمي حيث يقول :"إيجاد معادلة توازن مع جماعة الإخوان المسلمين تعمل من خلال اختلاف التنوع بينهما على استيعاب واحتواء جزء كبير من الضغوط الداخلية والخارجية على القوى الإسلامية، فالوجود السلفي يظهر الإخوان في صورة "المعتدلين" أمام الضغوط الخارجية بينما في الداخل يمكن ان تتلقف الأحزاب السلفية نسبة كبيرة من الأصوات التي ربما تبتعد عن التصويت لحزب الحرية والعدالة بسبب اعتراضهم على آلية الحكم"[1].

ولو نظرنا إلى حقيقة السلفية التي يتدثرها هؤلاء السرورية، وإنما هي شعار لتسويق الجماعة ومحاولة كسب أتباع لها من خلال قاعدة السلفية، بل التغرير ببعض رموز السلفية حتى يكون من واجهات السرورية، ولو فطن السلفيون لحقيقة مفهوم السلفية عند السرورية لكان لهم ولها شأن آخر، أما حقيقة السلفية فهي كما يقول أحمد فهمي: "السلبيات المتعلقة بالسلفية من حيث كونهم منتمين إلى التيار السلفي، وهي سلبيات فكرية وتنظيمية وسلوكية، نتجت بالأساس عن الطبيعة الفطرية التلقائية للتدين ذي الطابع السلفي، فهو تدين لا يتوقف على جماعة، أو دعوة بادئة، إذ يمكن حدوثه في أي زمان ومكان، عن طريق الرجوع المباشر إلى الكتاب والسنة، والمصادر الشارحة لهما"[2].

(1) مستقبل السلفية في مصر (77-78).

(2) مستقبل السلفية في مصر (73).

إن هذا كلام في منتهى الخطورة، لأن الفهم الحقيقي للإسلام ليس مصدره عندهم الكتاب والسنة، بل مصدره مناهج السرورية، الأمر الآخر أن أصل التدين سلامة الفطرة، فإذا هودت، أو نصرت، أو بدعت، أو حزبت دخلها الفساد بقدر تحزبها وتحكم البدعة فيها والتدين الفطري عند السرورية تخلف.

وهذا يشعرك بالأزمة الفكرية والانتمائية التي تعيشها هذه الجماعة ما جعلها تعيش هذا الاضطراب مع تكبر واستعلاء على معرفة حقيقة ما تعيشه.

إن هذه المنهجية ذات الطابع المتذبذب والرؤية الضبابية لها عند الأتباع له أثر كبير، فنجد بين كل حين وآخر خروج بعض هؤلاء المنتمين إلى الصف التنويري محاولا فك شفرة الطلاسم عند هذه الجماعة بالذات وغيرها ومعرفة الرمزية والشفرة الفكرية لها، مما يكون له ردة فعل في محاولة إظهار جانب التعامل الإسلامي بنظرة مختلفة عن تلك النظرة التشاؤمية المنغلقة ذات الأبعاد الفكرية المضطربة في واقع التنظير والتطبيق.

ومن هؤلاء نواف القديمي، ومحمد الأحمري وقد تبع هذا الخط كثير من الأتباع، وما أحمد سالم في مصر ومدرسته الجديدة النقدية إلا مثال على تهالك هذه الجماعة.

وهناك من يمج العمل الجماعي بناءا على ما يراه أنه مخالفة شرعية، لما يرى من شرذمة الأمة والتطبيقات التي هي فصام نكد في حياة الدعوة حينما تظهر هذه الجماعات للمجتمع بمظهر يختلف عن حقيقة واقع الجماعة.

وهناك من يترك الأمر بلا رجعة، لأنه محبط إحباطا كبيرا لما يرى من هدر الطاقات والمخالفات والبعد الحقيقي، عن فهم الدعوة بفهم الصدر الأول، بل الأدهى والأمر أن هناك من يرتد على عقبيه لأنه مع هذه الجماعات جعلته يعبد الله على حرف، مما كان له أثر سلبي حدا به إلى التفلت المطلق، والانتكاس وما عبد الله بجاد وعبد الله ثابت، وهذه المنظومة إلا خير شاهد وليس عند الجماعة إلا المعاقبة بما عاقب به الرسول ﷺ من تخلف عن تبوك، ، وهذا منه ﷺ مناسب

لوضع هؤلاء، لأنه يوحى إليه، أما هؤلاء فليس لديهم إلا الارتجال وعدم إدراك حقيقة الأمر، لأن مراجعة الأمر ومعرفة أحوالهم وتدارك أخطاء الجماعة معهم فلا، لأنها جماعة ملائكية كتبت لها العصمة، وهذه الجماعة مبدأها في الحياة ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ (الأنعام: 89).

ونسوا أن مقاييس نجاح الجماعة هو ثبات الأتباع، فإذا تفلت الأتباع وتراجعوا وانشقت الجماعة كما حال السرورية انشقت عن الإخوان، ثم في بعض البلدان انشقوا كما في السودان وغيرها.

إن الحق إذا تشربته الأنفس وعشقته عاشت من أجله وتحملت في طريقه الصعب والذلول، وهذا حال الصحابة مع رسول الله ﷺ في الثبات على المنهج وسلامته ووضوحه، وفي هذا الأثر وضوح القواعد للدعوة الإسلامية، والتي ظهر منهجها للقاصي والداني حتى فهمها الكفار، فكيف يكون الأتباع لا يعرفون حقيقة جماعتهم ومنطلقات دعوته كما عند الجماعات المنغلقة .

فوضوح المنهج ومعرفة حقيقة الجماعة وثبات منهجها ومطابقته للمنهج النبوي فهذا يسبب ثبات الأتباع.

يقول أبو سفيان في حديثه الطويل مع هرقل عندما سأله: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت –أي أبو سفيان– بل يزيدون، قال: فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ قلت: لا ..... إلخ الحديث[1].

(1) البخاري 1/ 31 رقم 7.

32-32: انعدام النصرة

إن من أسس الولاء والبراء النصرة لهذا الدين، وهي ليست بالاختيار في حياة الأمة، بل إنه مطلب شرعي يجب علينا أن نحقق ذلك في واقع العمل الإسلامي، سواء كان على مستوى الجماعات، أو الشعوب، أو الدول، أو الأفراد.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴾ (الأنفال: 72).

إن النصرة تتعد الجماعة والحزب إلى كل ما فيه تعظيم لله مهما كان هذا المعظم مسلم، أو غير مسلم، فكيف إذا كان مسلما أن الأمر أعظم وأجل.

يقول ابن قيم الجوزية –رحمه الله–: "إن المشركين، وأهل البدع والفجور، والبغاة والظلمة، إذا طلبوا أمراً يعظمون فيه حرمة من حرمات الله –تعالى– أجيبوا إليه وأعطوه، وأعينوا عليه، وإن منعوا غيره، فيعاونون على ما فيه تعظيم حرمات الله –تعالى– لا على كفرهم وبغيهم، ويمنعون مما سوى ذلك، فكل من التمس المعاونة على محبوب الله –تعالى– مُرضٍ له، أجيب إلى ذلك كائنا من كان، ما لم يترتب على إعانته على ذلك المحبوب، مبغوض لله أعظم منه وهذا من أدق المواضع وأصعبها وأشقها على النفوس"[1].

ذكر المؤرخون أن ابن قدامه المقدسي –رحمه الله– ت (620هـ) خرج لجهاد النصارى في الحروب الصليبية تحت إمرة صلاح الدين الأيوبي الذي اشتهر أنه أشعري العقيدة، بل قد ذكر بعض المؤرخين أنه كانت له خيمة ينتقل بها مع المجاهدين، وكانت له خطب في حض المسلمين على الشهادة في تلك المعارك"[2].

---

(1) زاد المعاد 3/ 303 .

(2) مرآة الزمان 8/ 548.

إن نصرة المسلم في الدين أمر تقرره الشريعة لا الجماعة، ولا الحزب، فما أعظم المصيبة، وما أجل الخطب عندما تتخلى الجماعات الإسلامية بعضها عن بعض، بل عندما يتعدى على جماعة من هذه الجماعات، فإن موقف الجماعات الأخرى تبرير ذلك، وإن هذا أمر تستحقه، فمن باب أولى الشعوب والتي ضجيج أصواتها ملأ ما بين السماء والأرض، أين المسلمون وأصوات طلب النصرة ليل نهار، فكم عرض ينتهك، وكم مظلوم قد فطر قلبه آلام الظلم، أين حق النصرة التي أمر الله بها، ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾ (الأنفال: 72).

قال القرطبي: "فذلك فرض عليكم فلا تخذلوهم ... أن يكونوا أسراء مستضعفين، فإن الولاية معهم قائمة، والنصرة واجبة حتى لا تبقى عين تطرف حتى تخرج على استنقاذهم، إن كان عددنا يحتمل ذلك، أو نبذل في استخراجهم حتى لا يبقى لأحد درهم، كذلك قال مالك . وجميع العلماء، فإن لله وإنا إليه راجعون على ما حل بالخلق في تركهم إخوانهم في أسر العدو وبأيديهم خزائن الأموال، وفضول الأحوال، والقدرة، والعدد، والقوة، والجلد"[1].

رحم الله القرطبي كيف لو رأى أحوال الأمة وما ينتهك من أعراض المسلمات والمسلمين، بل تحولت بعض بلاد المسلمين إلى سجن لأهلها، وقد يكون بعض المسلمين طرفا في هذه السجون فمنهم من هو من حراس تلك السجون، إن ما يندى له الجبين ويقف له شعر الرأس حال الدعاة عندما يطلب منهم إعانة بعض المعتدى عليهم من اليهود، أو الرافضة كما في العراق واليمن وسوريا، فنجد أنه يتوقف، وقد جمع أموالا كثيرة من المسلمين العامة لنصرة المسلمين، ثم تجده يتعذر ويتلون وكأن هؤلاء الذين قد وقع عليهم القتل والتشريد ليسوا مسلمين، فأذكر أن في اليمن قد حوصر أهل السنة في الجوف من قبل الحوثيين، فقام أحد المشايخ الفضلاء وكون جبهة مقاومة وصد لهؤلاء، وهو من أهل السنة وقد كان له

(1) الجامع لأحكام القرآن 10/ 86، 87.

ارتباط بحزب الإصلاح، إلا أنه أخذ يقاتل ويقاوم عندما تخاذل غيره، الشاهد أن بعض أفراد الجماعات المنغلقة طلب منه المساعدة لهؤلاء وهم يقتلون والقذائف قد دكت كثيراً من منازلهم، وقتل ابن هذا الشيخ المقاوم وأبناء أخيه وكثير من أبناء السنة، فماذا كان جواب هذا الشيخ ؟! إنا لا ندعم إلا أهل السنة، قل لى بربك: هل النصرة للمسلم أم لمن كان في عرفك من أهل السنة ؟ أي بوضوح من جماعتك، فأنا أشهد أنه من أهل السنة وإن لم يكن من أهل السنة فمن يكون أهل السنة ؟ إن أهل السنة عندهم هم من انتسب لهم وليس من أهل السنة من خالفهم ولو كان من هيئة كبار العلماء.

أي فهم، وأي دين، وأي دعوة هذه، أم إن من أركان الإسلام أن يتحقق نصر الإسلام إلا عن طريقي وطريق جماعتي، أما إن كان عن غير جماعتي فلا نصرة، بل السعي لأن تكون له الهزيمة .

عندما حوصر السلفيون في دماج كانت الجماعات كالإصلاح والسرورية تتغنى على ذلك وتقول خلو ولاة الأمر ينفعونكم، ثم بعد ذلك حوصر الإصلاحيون، فاستنجدوا بالسلفيين فكان ردهم ألم يكن موقفكم كذا وكذا من دماج، أما السلفية الحركية فقد انكفأت عن ذلك إلى جحرها كما هو عادتها وقالت: إنها لا تدعم إلا أهل السنة، وأهل السنة يجتثون من أرض اليمن، أما في سوريا فحدث ولا حرج، والعراق والصومال هناك مواقف مبكية لانعدام نصرتهم، بل تعدى الأمر أن التنافس الحزبي تحول إلى قتال وتصفيات بين الجماعات، فما الصحوات وغيرها في العراق إلا خير مثال، وكذلك دولة الإسلام، وأحرار الشام، إن المسألة تعدت انعدام النصرة إلى إلحاق الهزيمة وأن يكونوا جزءا من الحرب على تلك الجماعة.

أين نصرة مئات الألوف في السجون، أين نصرة المهجرين الذين يحرقون أحيانا في مهجرهم كما في عرسال، هذا بالنسبة لما يسمى بالصحوة، أو الجماعات الإسلامية والتي أصبحت طرفا في مشكلة الأمة ؟!!

إن المحافظة على الجماعة ومكتسباتها قد أفقد هؤلاء الأتباع حق النصرة والمدد لإخوانهم المسلمين في مناطق الصراع والذي توسع وامتدت مناطقه كل يوم ويتوسع، والجماعات لا تتحرك إلا من خلال مصالح الجماعة ومراعاة مكتسباتها وولاتها.

هل تحركت الجماعات، أو حاولت لرفع الظلم الواقع على غيرها من بعض الجماعات.

يقول صادق أمين: "إن كثيرا من الاضطهاد الذي لقيه من إلتجأ إلى اليمن لم يجدوا من الحركة الإسلامية ذرة مناصرة لهم"[1]. بل يتعدى الأمر لتسليمهم للجهات الأمنية كما فعل عبد الرحمن الفقعسي وغيره.

بغض النظر عن كون هؤلاء الجهاديين على حق أم لا، فأنا لا أؤيد إشاعة الفوضى واستعداء الدولة والحكام والتفجيرات، وإرهاب الآمنين الذين في بلاد المسلمين.

إن النصرة منعدمة عند الجماعات الإسلامية، بل تتشفى عندما تضرب إحدى الجماعات المنافسة لها في الساحة، وتفرح بذلك، أليس ذلك يدل على أن الولاء والبراء والحب والبغض للجماعة، وأن الجماعة هي أولا.

إذا ماذا كسبت الأمة من هذه الجماعات إلا التناحر والتباغض واستعداء القوى الكافرة خارجياً، والحاكمة محلياً على الأمة حتى دكت مدن، وأسقطت دول، وهذه الجماعات هي من الأسباب الرئيسة فهذه هي المكاسب التي كسبتها الأمة من الجماعات، إن الجماعات قد أفرزت لنا قيادات وشخصيات تحمل أفكار الجماعة الانتقامي، وعدم النصرة للمسلمين إذا اختلفت معهم، حتى كتب كتاب "احذروا الأيدز الحركي" وقد أسست جبهة العمل الإسلامي وتحول إلى معارض للحكومة اللبنانية التي يؤيدها الإخوان مع حزب الله وبعض القوى النصرانية

(1) إلى أين يتجه الإخوان المسلمون في اليمن (137).

وأنصار النظام السوري في لبنان، إن هذا التحول يدل كيف كانت المفاهيم والقيم التربوية لدى الجماعات الإسلامية إنها قيم ذات استحواذ تنظيمي، فإذا فسد ذلك تحول إلى مسمار في نعش تلك الجماعة، فيصبح العمل إما للجماعة، أو ضد الجماعة.

إن نصرة المسلمين يجب أن يكون في أولويات الجماعات مقدماً على ما يسمى مكتسبات الجماعة، لأن مكتسبات الجماعة أمر يدخل تحت دائرة الخلاف من حيث شرعيته، أما نصرة المسلمين فإنه لا جدال ولا نقاش في وجوبه، فالمتفق عليه بين علماء الأمة مقدم على ما كان أمره موهماً.